ولاية أهل البيت عليهم السلام

أبعاد وامتداد

تأليف

عامر فاضل الحصناني

مركز الدليل العقائدي

الدليل العقائدي

مركز بحثي متخصص في الرد على شبهات المخالفين

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: ولاية أهل البيت عليهم السلام أبعاد وامتداد

التأليف: عامر فاضل الجصاني

الناشر: مركز الدليل العقائدي

الإخراج الفني: صفاء الشمري

سنة الطبع: ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمركز الدليل العقائدي

الإهداء

إلى خـــــاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.............

وإلى سلطان الأوليـاء عليه الصلاة والسلام.........

وإلى خزانة الأسرار وريحانة المختار صلوات الله وسلامه عليها.....

وإلى صفوة خلــق الله آل محمد الأطهار عليهم أفضل الصلاة........

وإلى أبي الرؤوف وأمي الحنون رحمة الله عليهما.........

إلى إخوتي في الإيمان والولاية.......

إلى شـهداء الإسـلام وأخـص بالذكـر شـهداء الحشـد الشـعبي المقـدس الذيـن ضحـوا بأعـز مـا يملكـون؛ لأجـل العقيـدة.......

وإلى كل مَنْ أعانني بقول أو فعل.....

أهـدي هـذا الجهـد المتواضـع راجيًـا الله سـبحانه أن يجعلـه ذخـرًا لي يـوم لا ينفـع مـال ولا بنـون إلا مَـنْ أتـى الله بقلـب سـليم...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم وصل على أوليائهم المعترفين بمقامهم،

المتبعين منهجهم، المقتفين آثارهم،

المستمسكين بعروتهم، المتمسكين بولايتهم، المؤتمين بإمامتهم، المسلمين لأمرهم، المجتهدين في طاعتهم،

المنتظرين أيامهم، المادين إليهم أعينهم،

الصلوات المباركات الزاكيات الناميات الغاديات الرائحات

وسلم عليهم وعلى أرواحهم،

وأجمع على التقوى أمرهم، وأصلح لهم شؤونهم،

وتب عليهم إنك أنت التواب الرحيم، وخير الغافرين،

واجعلنا معهم في دار السلام،

برحمتك يا أرحم الراحمين

من دعاء للإمام السجاد عليه السلام

مقدمة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ الأتمّانِ الأكملانِ على سيِّدِ الأوّلينَ والآخرين وأشرفِ الخلقِ أجمعين، سراج المهتدين، والمبعوث رحمة للعالمين، المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين.. وبعد:

انطلاقًا من قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، أخذ مركز الدليل العقائدي على عاتقه التصدّي للشبهاتِ التي تطال العقيدةَ الإسلامية عمومًا، والتعريفَ بعقائدِ الشيعة الإماميّة خصوصًا، مع التصدي للرد على كل الشبهات التي تطال المذهب الشيعي خصوصًا، هذا المذهب الشريف الذي أسس بنيانه، ووضع لبناته الأولى النبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم حين قال في حديثٍ صحيح: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين الأرض والسماء، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»، وما تلاه من بيانات وأحاديث متضافرة تحث على التمسك والأخذ والمتابعة للثقلين (الكتاب والعترة) معًا، كهذا الحديث الصحيح: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض،

(١) فصلت: ٣٣.

وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، وغيرها من الأحاديث الشريفة الصحيحة الواردة في هذا الجانب التي يكاد المنصف أن يقول بتواترها، بل هي متواترة فعلًا، لتضافر نقلها عند جميع الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربهم الفقهية والعقَدية.

وكل هذه الردود إنما تجري على وفق أسس علمية ومنهجية سليمة، بعيدة عن التعصب الأعمى والانغلاق المقيت، فالعلم هو السلاح الوحيد النافذ الذي يصح الاحتجاج به، وما عداه لا قيمة له، وكما قال سيد الموحدين أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام:

ففُزْ بعلمٍ ولا تطلُبْ به بدلًا فالناسُ مَوتى وأهلُ العِلم أحياءُ

وعلى وفق هذه المعطيات جاء كتاب (ولاية أهل البيت عليهم السلام أبعاد وامتداد)، لمؤلفه عامر فاضل الجصاني.

ونسأل الله العليّ القدير أن يجعله ذخرًا لمؤلفه يوم الحشر، وأن يحشره مع محمّد وآله المنتجبين، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

السيد مهدي الموسوي الجابري

النجف الأشرف

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمـد لله رب العالمـين، والصـلاة والسـلام عـلى أشرف خلـق الله أجمعـين، محمـد وآلـه الطيبـين الطاهريـن، واللعنـة الدائمـة عـلى أعدائهـم أجمعـين، مـن أول الخلـق إلى قيـام يـوم الديـن...

بات لزامًا ومن الضرورة بمكان التعرض إلى مبحث الولاية والبراءة والوقوف على ما يفترض أن تكون عليه حقيقة العلاقة بين الموالين وأبعاد وامتداد هذه العلاقات؛ لما تشهده الساحة في الآونة الأخيرة من خلافات ومهاترات جرتهم إلى حد الكراهية والعداء؛ بسبب الهجمة الشرسة التي شنها أعداء المذهب الذين شهروا سيف الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، الذي يستهدف اختلاق هوة تسقط فيها كل أواصر القوة التي يفترض أن تكون ناتجة عن الارتباط العقائدي بين أتباع المذهب الحق، وهذا ما كان يسعى الدين لإيجاد خلافه، حيث توجيهه الناس توجيهًا جازمًا من أجل إيصالهم إلى التحاب والتواد في الله، والوصول إلى حقائق الاعتقاد الصحيح وما يستلزمه، ومنعه اصطناع العقائد المجعولة والمبتدعة واتباعها، وهدم كل أساس لبناء تشوبه الشُبه والبِدع في عصر الفتن ومنع فرضها على

الناس من خلال إلباسها ثوبًا دينيًا باعتبار إيمان السواد الأعظم بها والدين منها براء، فليس من المتوقع أن يذعن الدين في خطاباته وتعاليمه لكل طريقة واعتقاد يسود الناس؛ لأنه خلاف منهجه في التعاطي مع تشريعاته، ولكي لا يفتح الباب أمام المضلين لتأصيل عقائد فاسدة، فيكون رأسًا في الدعوة إليها؛ إذ ليس من طبعه أن يثقف الناس على أن يحتملوا الخطأ فيما يبلغه أو الصواب فيما يكون ضد أحكامه؛ لأن ذلك أدعى للخطأ والاختلاف والتفرقة، وأما الكراهية والبغضاء بين الناس فإنه لم يكن يومًا ما سببًا فيها، إنما سببته مزاجيات الإنسان واستغلاله للدين من أجل إشباعها، كما ليس من شأنه الإهمال أوالتفريط في البحث عن الحقيقة، أو غض الطرف عن إلحاح المبغضين، الذين يرومون بلوغ غايات وأهداف من شأنها تفريق الأمة وإضعافها وزعزعة أواصر المحبة بين الأتباع، الذين اعتمدوا أسلوب خلط الأوراق الذي أوصل الكثير إلى عدم التفرقة بين العدو والصديق والمبغض والمحب وإنكار حقائق جلية جلاء الشمس في رائعة النهار مستفيدين من بعض الترهات التي سوقت إليهم بحجة كونها حقائق، فأمثال هؤلاء ورد عن الدين ضرورة التبري منهم وبغضهم في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى بغض عملهم وإنكار ما يفعلون والتبري منه؛ لئلا يكون الإنسان شريكًا فيه، ولقد ساعدهم في بلوغ ما وصلوا إليه التصدي الخجل من قبل المختصين والانبراء غير الموازي لتلك الهجمات، لكن رغم المزاعم الباطلة للشانئين تبقى الحقيقة واحدة والفطرة الربانية صامدة، فمهما ابتعد الإنسان عن أصله سيعود رغم أنفه؛ لأن الله جبله على ذلك، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)]، فكل الأمور الإلهية صائرة إلى غاياتها، سائرة إلى نهاياتها لا محالة، وإن كانت فترة الابتعاد هذه سوف تستلزم لوازم خطيرة، وستترتب عليها آثار وخيمة، أما المنحرفون الذين يصرون على عدائهم وانقلابهم فإصرارهم يكشف عن حقيقة طينتهم وإن ولدوا من موالين، فوجود ولاءات للإنسان مع غيره وبراءته من آخرين هي حالة بديهية ومشهورة لنا جميعًا من خلال ما نجده من التجاذبات والمنافرات التي تحصل بيننا وبين الآخرين.

ويبقى على كل حال من الضروري لكل إنسان وان كان معاديًا أن يكون قادرًا على نقد نفسه وسلوكه انطلاقًا من القيم والمبادئ الإنسانية، فإن من ذاب في نفسه وخصاله وسلوكياته يقع في الخطيئة لا محالة، واشتبه عليه الحال، قال تعالى: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**[(٢)]، وبذلك يخدع وعيه الأخلاقي، ولا سبيل للمحافظة عليه أو إرجاعه إلى رشده سوى التذكير الذي يحول دون طرو الزيف أو يكشفه في حال وقوعه.

إن النفس الإنسانية بطبيعتها عرضة للصدأ الناشئ من الميول والغرائز والتأثر بالآخرين، والنقد البنّاء هو الذي يمنع ويزيل الصدأ الأخلاقي الذي يعرض عليها، فإذا لم يعالجه الإنسان بذلك شكل طبقة زائفة في نفسه حتى يهيمن على عقله الباطن، وبذلك سوف تعاق قيمه الفطرية والتقاليد التي عاشها، وأقبح شيء في الإنسان أن يكون هناك

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٢) سورة الكهف، الآية ١٠٤.

حجاب بينه وبين نفسه ومبادئه وعقله.

ورغم أن هذا الأمر لم يكن وليد اللحظة، بل إن جذوره ممتدة لآلاف السنين، إلا أنه لم يثن أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم أجمعين من ذكر أقوال وأحاديث تصب في منابع إسقاط مثل هذه المخططات وتحصين أشياعهم من خلال بيان حقيقة العلاقة بينهم وبين أتباعهم وبين الأتباع أنفسهم وما تؤول إليه هذه الثنائية، والتركيز على مواطن الاشتراك بين المؤمنين، وبيان مكانتهم عند أهل البيت عليهم السلام، منها ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «نحن ومحبونا من طينة واحدة بيضاء نقية من أعلى عليين، فخلقنا نحن من أعلاها، وخلق محبونا من دونها، فإذا كان يوم القيامة التحقت العليا بالسفلى، فضربنا بأيدينا إلى حجزة نبينا، وضربت شيعتنا بأيديهم إلى حجزتنا، فأين ترى يصير الله نبيه؟ وأين ترى يصير ذريته محبينا؟»(١).

وفي مقام بيان مكانتهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أورد العلامة النيسابوري في روضة الواعظين عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي شيعتك هم الفائزون يوم القيامة، فمن أهان واحدًا منهم فقد أهانك، ومن أهانك فقد أهانني، ومن أهانني أدخله نار جهنم وبئس المصير، يا علي أنت مني وأنا منك، روحك روحي وطينتك طينتي، وشيعتك خلقوا من فاضل طينتنا، فمنْ أحبهم فقد أحبنا ومنْ أبغضهم فقد أبغضنا، ومنْ عاداهم فقد عاداني، ومنْ ودهم فقد ودنا، يا علي شيعتك مغفور لهم على ما كان منهم من ذنوب وعيوب، يا علي شيعتك شيعة الله، وأنصارك أنصار الله، وأولياؤك أولياء الله، وحزبك حزب الله، يا علي سعد من تولاك، وشقي من عاداك، يا علي

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات، ص٣٦.

لك كنز في الجنة وأنت ذو قرنيها»[١].

أما فيما يخص تنقية الموالين من شوائب الخلط ومحاولاتهم لتصفية الحب وبيان الطبيعة التي ينبغي أن يكون عليها، فإنهم سلام الله عليهم لم يسمحوا بالجمع بين حبهم وحب أعدائهم حيث بينوا ذلك بمجموعة من الروايات، منها ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام في توضيح معنى قول الله سبحانه: ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٢]، فقد ذكر عليه السلام المراد منها بما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فيحب بهذا، ويبغض بهذا، فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمنْ أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا حب عدونا فليس منا ولسنا منه، والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل والله عدو للكافرين»[٣].

وفي بيان ما يخص ضرورة وخطورة العلاقة بين الشيعة وما ينبغي أن تكون عليه فقد ورد عن الشيخ الصدوق رحمه الله بسند صحيح عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عادانا ومَنْ والى شيعتنا فقد والانا؛ لأنهم خلقوا من طينتنا، مَنْ أحبهم فهو منا ومَنْ أبغضهم فليس منا، شيعتنا ينظرون بنور الله، ويتقلبون في رحمة الله، ويفوزون بكرامة الله، ما من أحد من شيعتنا يمرض إلا مرضنا لمرضه ولا اغتم إلا اغتممنا لغمه ولا فرح إلا فرحنا لفرحه، ولا يغيب عنا أحد من شيعتنا أين كان من شرق

(١) الشيخ الصدوق، أمالي الصدوق، ص١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤.
(٣) الشيخ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٥١٤.

الأرض وغربها، ومن ترك من شيعتنا دينًا فهو علينا ومن ترك منهم مالًا فهو لورثته، شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان ويوالون أهل البيت ويتبرأون من أعدائهم، أولئك أهل الإيمان والتقى وأهل الورع والتقوى، مَنْ رد عليهم فقد رد على الله ومَنْ طعن عليهم فقد طعن على الله؛ لأنهم عباد الله حقًا وأولياؤه صدقًا، والله إن أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر فيشفعه الله فيهم بكرامته على الله»[(١)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى اطلع على الأرض فاختارنا واختار لنا شيعة، ينصروننا ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا أولئك منا وإلينا»[(٢)].

الآن وبعد ذكر هذه السلسة من الروايات سوف أشرع ببيان ما أصبوا إليه من هذا العمل المبارك مستعينا بالله، راجيا منه سبحانه التسديد والقبول إنه سميع مجيب...

عبد سلطان الولاية
الأقل عامر الجصاني
١٣ رجب الأصب ١٤٤٢هـ

(١)الشيخ الصدوق، صفات الشيعة، ص٤.
(٢)الشيخ الصدوق، الخصال ج٢، ص١٦٥.

معنى الولي وأهميته

قال الراغب في المفردات: الولاء والتوالي أن يحصل شيئًان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد[١].

وقد نقل عن تعريفها السيد محمد باقر السيستاني بأن الولاء: هو أية وشيجة[٢] عقلائية تجمع بين ذوات مدركة ومختارة -كالناس بعضهم مع بعض- يوجب مزيدًا من التواد والتآزر والتناصر بينهم، ويعني أيضًا الاتصال والقرب، فيقال: ولي هذا ذاك إذا دنا منه، وقرب أو تبعه من غير فصل، والولاء: المحبة والصداقة والقرابة والنصرة.

والولي: المحب والصديق والنصير والجار والحليف والتابع والصهر.

إن ولاءات الإنسان تنطوي بحسب فطرته على ولاءات دينية كالولاء لله وللرسل وللأوصياء وللمؤمنين، وإنسانية كالولاء بين الوالدين والأولاد والزوجين والأرحام والصداقة والألفة والحاكم والوطن والولاء بالإحسان[٣].

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٣٠١.

(٢) الوشيجة: هي الشيء المتصل المشبك، وتطلق في الأصل على الاشتباك الحسي، فيقال: وشجت الأغصان إذا اشتبكت، ثم أطلقت على العلائق المعنوية فيقال الوشيجة على القرابة المتصلة المشتبكة.

(٣) انظر: السيد محمد باقر السيستاني، ولاءات فطرية، ص٦.

وبالجملة تكون الولاية نوع اقتراب من الشيء، يوجب ارتفاع الموانع والحجب بينهما، يتغير اسمه بحسب ما اقترب منه، فإن كان من جهة التقوى والانتصار، فالولي: هو الناصر الذي لا يمنعه عن نصرة مَنْ اقترب منه شيء، وإن كان من جهة الالتيام في المعاشرة والمحبة، التي هي الانجذاب الروحي، فالولي: هو المحبوب الذي لا يملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته، ويعطيه فيما يهواه، وإن كان من جهة النسب فالولي: هو الذي يرثه مثلًا من غير مانع يمنعه، وإن كان من جهة الطاعة فالولي: هو الذي يحكم في أمره بما يشاء[1].

وقد وردت لفظة الولي في تفاسير الآيات التي ذكرت فيها، فتبين أن لها معان متعددة بحسب تعدد استعمالاتها القرآنية حيث جاءت في أكثر من آية بدلالات مختلفة منها:

أولًا: المحب، وهذا ما يتضح من سورة فصلت فقد نصت على أن الولي بمعنى المحب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

ثانيًا: الناصر، حيث جاء في سورة الأنفال ما يشير إلى هذا المعنى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3].

ثالثًا: المقدم، وهذا ما أكدته سورة الأنفال، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ

---

(١) انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٥، ص٣٦٨.
(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(١)].

رابعًا: الأولى بالتصرف، حسبما ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(٢)]، ولتدل بذلك على المعنى المراد، ولإثبات أنّ معنى الولي هو الأولى بالتصرف ذكر الأعلام مديات واسعة للاستدلال وعلى كل المستويات -أحب أن أقف عليها لما فيها من ارتباط بإثبات حق الإمام علي عليه السلام بقيادة الأمة والخلافة الإلهية بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم- سواء على المستوى اللغوي أم على مستوى الاستدلال القرآني أم الروائي:

أما المستوى اللغوي: فعند التدبّر فيما ذكره اللغويون من المعاني المتعددة لكلمة المولى؛ يتجلّى لنا أن هذا اللفظ ليس له إلا معنى واحد فقط، وهو الأولى بالشيء، وتختلف هذه الأولوية بحسب الاستعمال في كل مورد من موارده، كذلك كلمة الولي لها معنى واحد فقط وهو الأولى، وهذا المعنى الواحد جامع لكل المعاني الأخرى من الناصر والمحب و...، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها، إلا بمناسبة لهذا المعنى، فالعبد مثلًا أولى بالانقياد لمولاه من غيره، والجار أولى بالقيام بحفظ حقوق الجوار من البُعداء وهكذا، وهذه النظرية اختارها ابن البطريق[(٣)]، ووافقه عليها غيره، وإذا ثبت أن معنى المولى هو الأولى

---

(١)سورة الأنفال، الآية٧٥.
(٢)سورة المائدة، الآية٥٥.
(٣)ابن البطريق، عمدة عيون الأخبار، ص١١٤.

بالشيء يكون ذلك هو المراد من آية الولاية؛ لأنّه المعنى الوحداني والأصل للفظ الولي وإن اختلفت استعمالاته بحسب اختلاف الموارد، فيكون مفاد آية الولاية مفاد قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(١)]، الأولى بالتصرف ويشهد لذلك ما نقله ابن منظور في لسان العرب عن ابن الأثير، حيث قال: «وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي»[(٢)]، وقريب من هذا المعنى ما ذكره بعض اللغويين في معاجمهم.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٤٠٧.

الاستدلال على المستوى القرآني

إنّ في الآية المباركة الآتية الكفاية في بيان معنى الولي قرآنيًّا، وطلبًا للاختصار سوف أقتصر الكلام عنها دون غيرها من الآيات التي تعرضت لتوضيح هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١]، حيث تضمّنت هذه الآية المباركة دلالات وافرة لإثبات المطلوب، ومراعاة للاختصار نكتفي بالإشارة المفهمة لبعض منها:

١- أنّ صيغة التعبير في الآية الشريفة جعلت الولاية بمعنى واحد منحصر به، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَ...﴾، فلو كانت ولاية الله تعالى تختلف عن ولاية مَنْ ذكرتهم الآية ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لكان الأنسب في التعبير أن تفرد بالذكر ولاية أخرى لهم؛ لكي تحول دون وقوع الالتباس، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، فقد تكرّر لفظ الإيمان في موضعين؛ بسبب تكرّر معنى الإيمان وتغايره فيهما، إذن لا بد أن تكون الولاية في الآية المباركة بمعنى واحد في جميع الموارد التي ذكرت فيها، وهي بالأصالة لله تعالى وبالتبع لرسوله ﷺ وللذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، وبما أن ولاية الله تعالى في الآية المباركة ولاية عامة وشاملة لولاية التصرف والتدبير والنصرة وغيرها، كما هو

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦١.

المستفاد من قوله تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ﴾(١)، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾(٢)، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك، وعليه يتضح أن كل ما يثبت له سبحانه يثبت للمعطوف في الآية.

٢- إن الولاية التي هي بالأصل لله عزّ وجلّ جعلها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالتبع، فلرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الولاية العامة على الأمة من الحكم فيهم والقضاء والتصرف في جميع شؤونهم، وعلى الأمة التسليم والطاعة المطلقة بلا ضيق أو حرج، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٤)، خصوصًا وإنّنا لا نجد القرآن يعدّ النبي ناصرًا للمؤمنين ولا في آية واحدة، وهذا المعنى من الولاية الثابتة لله تعالى ورسوله عُطفت عليه ولاية: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وهذا يعني أنّ الولاية في الجميع واحدة؛ لوحدة السياق وهي ثابتة لله عزّ وجلّ بالأصالة، ولرسوله ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أجمع المفسرون على أنه هو المقصود من الآية المباركة حيث أنهم أوردوا ذلك في سبب نزول الآية بالعرض والتفضل والامتنان، جاء في تفسير مجمع

(١) سورة يوسف، الآية ١٠١.
(٢) سورة الشورى، الآية ٤٤.
(٣) سورة المائدة، الآية ٩٢.
(٤) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

البيان[1] -وتفاسير وكتب أخرى- نقلًا عن عبد الله بن عباس قوله: أنه كان في أحد الأيام جالسًا إلى جوار بئر زمزم، ويروي للناس أحاديث النبي ﷺ، فتقرب إليهم -فجأة- رجل كان يرتدي عمامة، ويضع على وجهه نقابًا، وكان كلما تلا ابن عباس حديثًا عن النبي ﷺ تلا هو حديثًا عن النبي مستهلًا قوله بعبارة: «قال رسول الله...» فأقسم عليه ابن عباس أن يعرف نفسه، فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه، وصاح: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومَنْ لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا، يقول: «علي قائد البررة، وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله»، وأضاف أبو ذر: أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يومًا من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء، وقال: اللهم أشهد بأني سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئًا، وكان علي عليه السلام راكعًا فأومى إليه بخنصره اليمنى، وكان يختتم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين النبي ﷺ، فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرًا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري، فأنزلت عليه قرآنًا ناطقًا: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطانًا فلا يصلون إليكما.. اللهم وأنا محمد نبيك

(١) انظر: الطبرسي فضل بن حسن، مجمع البيان، ج٢، ص٢١٠.

وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيرًا عليًّا أشدد به ظهري» ، قال أبو ذر رضوان الله عليه: فما استتم رسول الله ﷺ كلامه حتى نزل جبرائيل من عند الله عز وجل فقال عليه السلام: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون[1]، وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: أتى عبد الله بن سلام ورهط معه من أهل الكتاب نبي الله صلى الله عليه وسلم عند الظهر فقالوا: يا رسول الله إن بيوتنا قاصية، لا نجد من يجالسنا ويخالطنا دون هذا المسجد، وإن قومنا لما رأونا قد صدقنا الله ورسوله وتركنا دينهم أظهروا العداوة، وأقسموا أن لا يخالطونا ولا يؤاكلونا، فشق ذلك علينا، فبينا هم يشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ «ونودي بالصلاة صلاة الظهر، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أعطاك أحد شيئًا؟ قال: نعم، قال: مَنْ؟ قال: ذاك الرجل القائم، قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: وهو راكع، قال: وذاك علي بن أبي طالب، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وهو يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُونَ﴾، وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي رافع، قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم يوحى

(١) انظر: الشيرازي الشيخ ناصر مكارم، الأمثل، ج٤، ص٤٦.

إليه، فإذا حية في جانب البيت، فكرهت أن أبيت عليها فأوقظ النبي صلى الله عليه وسلم وخفت أن يكون يوحى إليه، فاضطجعت بين الحية وبين النبي صلى الله عليه وسلم لئن كان منها سوء كان فيّ دونه، فمكث ساعة فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الحمد لله الذي أتم لعلي نعمه، وهيأ لعلي بفضل الله إياه»[١].

إذن الولاية الثابتة في الآية لعلي عليه السلام هي ولاية التصرّف، وإن معنى الولي في الآية تعني الأولى بالتصرف، ومما يؤكد ذلك مجيء لفظ (وليّكم) مفردًا ونسب إلى الجميع بمعنى واحد، والوجه الذي ذكره المفسرون لذلك هو أن الولاية ذات معنى واحد، لله تعالى أصالة ولغيره بالتبع.

---

(١) انظر: الميلاني السيد علي، نفحات الأزهار، ج٢٠، ص٣٨.

أهمية الولي في القرآن

إن الوقوف على بيان أهمية الولاية قرآنيًا أمر ذو قيمة علمية ومعرفية وعقَدية عالية لا يمكن تجاهلها، ولهذا سوف أتعرض لذكر أوضح الآيات التي بينت ذلك، وسأكتفي بذكرها فقط لإثبات المطلوب؛ للسبب الذي تقدم عند التعرض لبيان معنى الولي وهي الآية المباركة التي سبقت تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام في حادثة الغدير، وأسلط الضوء على الكلام الإلهي الذي تلا واقعة التنصيب، فنحن لو أمعنا النظر في الصيغة الخطابية التي تكلم بها سبحانه وتعالى مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لاكتفينا بها عن تطويل الكلام حول الموضوع، حيث رهن سبحانه وتعالى جهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم طيلة بعثته والأذى الذي تحمله في سبيل إرساء دعوته بتبليغ هذا الأمر الذي بدونه لا يكون لهذه الرسالة الخاتمة أثر يذكر ولا شأن يستأثر، فأي أمر هذا الذي اهتم المولى جلّ وعلا بإبلاغه وإيصاله إلى الأمة بهذا المستوى!!!، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١].

لقد ذكر صاحب الميزان رضوان الله عليه أن ما يقارب العشرين رواية ذكرت في مصادر العامة تبين أن سبب نزول هذه الآية هو عدم تبليغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين بولاية علي عليه السلام من بعده[٢]، ناهيك عن الروايات المتضافرة التي ذكرت في مصادر الشيعة منها ما ورد عن أبي

(١)سورة المائدة، الآية٦٧.
(٢)السيد الطباطبائي محمد حسين، الميزان، ج٥، ص١٩٦.

جعفر، عن أبيه عن جده قال: لما انصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع نزل أرضًا يقال له: ضوجان، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلما نزلت عصمته من الناس نادى: الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه، وقال: من أولى منكم بأنفسكم: فضجوا بأجمعهم فقالوا: الله ورسوله فأخذ بيد علي بن أبي طالب، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، لأنه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وكانت آخر فريضة فرضها الله تعالى على أمة محمد ثم أنزل الله تعالى على نبيه: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»(١)، وبذلك كمل الدين بنص القرآن حيث كان ناقصًا، وتمت النعمة على العباد حيث كانت ناقصة، فأي معنى تعنيه الولاية!!!، وأي مقام مقام الولي!!!.

(١) الريشهري محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، ج٢، ص٧٥٢.

الاستدلال على المستوى الروائي

هناك عدّة من القرائن والشواهد الروائية لإثبات المطلوب:

أولًا: لو كانت الولاية الثابتة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بمعنى النصرة، لما وجد فيها مزيد عناية ومزية ومدح لعلي عليه السلام؛ لأنها موجودة بين جميع المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1]، وعلي عليه السلام كان متصفًا بهذه المحبة والنصرة للمؤمنين منذ أن رضع ثدي الإيمان مع صنوه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن لو أمعنا النظر في الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقيب نزول آية الولاية لوجدناها تثبت مزية ومنقبة عظيمة لعلي عليه السلام، ففي الرواية التي مرَّ ذكرها أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال بعد نزول آية إكمال الدين: «الحمد لله الذي أتمّ لعلي نعمه، وهيأ لعلي بفضل الله إياه»[2]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه الآية أيضًا: «مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه وعاد مَنْ عاداه»[3]، إذن في الآية الكريمة مزيد عناية تفترق عن تولّي المؤمنين بعضهم لبعض، وليس تلك المزية العظيمة إلا ولاية التصرف والإمرة بينها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيًا: أن الولاية التي خصّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام يوم غدير خم، هي ولاية تدبير وتصرف؛ لأنها نفس ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما نلمسه من كيفية إعلان الولاية من قِبله صلى الله عليه وآله وسلم وتعميمها،

(١) سورة التوبة، الآية ٧١.
(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج٣، ص١٠٦.
(٣) مسند أحمد، ج١ ص ٨٤.

حيث قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم...»، وهذه الولاية التي هي ولاية تصرف هي نفسها الولاية التي تثبتها الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ...﴾ لعلي عليه السلام.

من هنا نجد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقّب بعد نزول آية الولاية في حق علي عليه السلام بقوله: «مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه وعاد مَنْ عاداه»، وهذا يكشف عن كون الولاية ولاية تصرّف، لا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ذلك الحشد المتنوع من الروايات الذي يؤكّد على علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقرن طاعته بطاعة الله ورسوله، فكل ذلك يكشف عن أن ولايته عليه السلام هي ولاية التصرف، وأنه الأولى بالتصرف؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حق علي عليه السلام حينما وجه كلامه إليه: «مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومَنْ عصاني فقد عصى الله، ومَنْ أطاعك فقد أطاعني، ومَنْ عصاك فقد عصاني»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ يريد أن يحيا حياتي ويموت موتي ويسكن جنّة الخلد التي وعدني ربّي؛ فليتولّ علي بن أبي طالب فإنّه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة»[٢].

وعن عبد الرحمان بن عثمان قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب، وهو يقول: «هذا أمير البررة، قاتل الفجرة، منصور مَنْ نصره مخذول مَنْ خذله، ثم مدّ بها صوته»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٢٨.
(٢) السيد شرف الدين، المراجعات، ص٨٠.

يخرجاه[١]، وغيرها الكثير من الروايات التي تشاركها بالمضمون ذاته.

ثالثًا: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلب من الله تعالى أن يشدّ عضده بأخيه علي عليه السلام، كما شدّ الله تعالى عضد موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ...﴾ بشرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بجعل علي عليه السلام وليًّا وخليفة من بعده، وهذا يدلل على أنّ الولاية لعلي عليه السلام لم تكن مجرّد نصرة ومحبّة، بل كانت ولاية ذات أولوية بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما هو الحال في هارون عليه السلام، باعتبار أولويته بالأمر والإمرة بعد موسى عليه السلام، عندما خلّفه في قومه.

رابعًا: احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أولويته بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بآية الولاية، حيث قال عليه السلام مخاطبًا لجمع من الصحابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنشدكم الله: أتعلمون حيث نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وحيث نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وحيث نزلت: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، قال الناس: يا رسول الله: أخاصة في بعض المؤمنين، أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عزّ وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلمهم ولاة أمرهم، وأن يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجهم فنصبني للناس بغدير خم»[٢]، وهذا يكشف عن كون المراد بالآية هو "الأولى".

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٩.
(٢) ابن المغازلي الشافعي، المناقب، ص٢٢٢.

خامسًا: ما ورد عن أجلاء الصحابة كسلمان الفارسي رضوان الله عليه، أنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده جماعة من أصحابه إذ وقف أعرابي من بني عامر فقال: والله يا محمد لقد آمنت بك من قبل أن أراك، وصدقتك من قبل أن ألقاك، وقد بلغني عنك أمر، فأردت سماعه منك، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي بلغك عني يا أعرابي؟ قال: دعوتنا إلى أن نشهد أن لا إله إلا الله وإلى الإقرار بأنك رسول الله فأجبناك، وإلى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، فأجبناك، ثم لم ترض حتى دعوت الناس إلى حب ابن عمك علي وولايته، فذلك فرض علينا من الأرض أم الله فرضه من السماء؟ قال: فقال له رسول الله ﷺ: بل الله عزَّ وجلَّ فرضه من السماء.

قال الإعرابي: فإن كان الله عزَّ وجلَّ فرضه، فحدثني به يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: يا أعرابي إني أعطيت في علي خمس خصال الواحدة منها خير من الدنيا بحذافيرها، يا أعرابي ألا أنبئك بهن؟ قال: بلى يا رسول الله.

قال: كنت يوم بدر جالسًا، وقد انقضت الغزاة فهبط عليَّ جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله تعالى يقرؤك السلام، ويقول لك: إني آليت على نفسي ألا أُلهم حب علي إلا من أحببته، فمن أحببته ألهمته ذلك، ومن أبغضته ألهمته بغضه وعداوته.

يا أعرابي ألا أنبئك بالثانية؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: كنت يوم أحد جالسًا، وقد فرغت من جهاز عمي حمزة، فإذا أنا بجبرائيل عليه السلام وقد هبط علي، فقال، يا محمد، الله تعالى يقرؤك السلام، ويقول لك: إني فرضت الصلاة ووضعتها عن العليل[١]، والزكاة ووضعتها عن المقسر، والصوم فوضعته عن المسافر، والحج ووضعته عن المقتر، والجهاد فوضعته عمن له عذر وفرضت ولاية علي ومحبته على جميع الخلق، فلم أعط أحدًا فيها رخصة طرفة عين، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أعرابي ألا أنبئك بالثالثة؟ قال: بلى.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما خلق الله عز وجل شيئًا إلا جعل له سيدًا، فالنسر سيد الطيور، والثور سيد البهائم والأسد سيد السباع وإسرافيل سيد الملائكة ويوم الجمعة سيد الأيام وشهر رمضان سيد الشهور وأنا سيد الأنبياء وعلي سيد الأوصياء، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أعرابي، ألا أنبئك بالرابعة؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: يا أعرابي: إن الله عز وجل خلق حب علي شجرة أصلها في الجنة وأغصانها في الدنيا، فمَنْ تعلق بغصن من أغصانها في الدنيا أورده الجنة، وبغض علي شجرة أصلها في النار وأغصانها في الدنيا، فمَنْ تعلق بغصن من أغصانها في الدنيا أورده في النار، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أعرابي ألا أنبئك بالخامسة؟

(١) لعل المراد من وضعها جماعة أو بالإتيان بها كما شرعت بقيامها وقراءتها وركوعها وسجودها ووو.

قال: بلى يا رسول الله.

قال: إذا كان يوم القيامة يؤتى بمنبري فينصب عن يمين العرش ويؤتى بمنبر إبراهيم عليه السلام فينصب عن يمين العرش، يا أعرابي والعرش له يمينان، فمنبري عن يمين، ومنبر إبراهيم عن يمين ثم يؤتى بكرسي عال مشرف فينصب بين المنبرين المعروف بكرسي الكرامة لعلي، وأنا عن يمين العرش على منبري وإبراهيم على منبره وعلي على كرسي الكرامة وأصحابي حولي، وشيعة علي حوله فما رأيت أحسن من حبيب بين خليلين.

يا أعرابي: أحبب عليًّا حق حبه، فما هبط عليَّ جبرائيل إلا سألني عن علي وشيعته، ولا عرج من عندي إلا قال أقرأ مني عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام.

فعند ذلك قال الأعرابي: سمعًا وطاعة لله ولرسوله ولابن عمه علي بن أبي طالب[(١)].

وورد عن عمار بن ياسر رحمة الله عليه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أوصي مَنْ آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب فمَنْ تولاه فقد تولاني ومَنْ تولاني فقد تولى الله عزّ وجلّ»[(٢)]، وعن عبد الله بن عباس، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «علي ولي كل مؤمن من بعدي»[(٣)].

(١) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج١، ص٢٢٢-٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

وبحديث آخر عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بعضد علي عليه السلام فأقامه، ثم قال: «هذا وليكم من بعدي، والى الله من والاه، وعادى من يعاديه. قال: فقام عمر بن الخطاب إليه. فقال:

يهنيك يا بن أبي طالب، أصبحت، أو قال: أمسيت ولي كل مسلم»[(١)].

وفي حديث آخر عن بريدة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «علي وليكم من بعدي»[(٢)].

وروى الدغشي، بإسناده عن عمران بن حصين أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «علي مني وأنا منه، فهو ولي كل مؤمن من بعدي»[(٣)].

وبذلك يتحصّل أن معنى الولي هو الأولى بالتصرف وأن الآيات التي مرت وأمثالها بصدد جعل الولاية لعلي عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا مجال لفهمها بغير هذا الفهم، أما بقية المعاني التي جاءت في الآيات المتقدمة التي ذُكِر فيها لفظ الولي لإفادة معنى غير الذي ثبت لأمير المؤمنين عليه السلام فهي أيضًا ثابتة تستعمل في معانيها الخاصة ولا تنافي ولا تعارض بين معانيها والمعنى المراد إثباته...

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

أهمية الولاء

إن وجود الإمام ضرورة دينية وعقلية، فلا معنى للدين من دونه ولا طعم للشريعة إن فُقِد، وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «مثل علي في هذه الأمة كمثل الكعبة، النظر إليها عبادة والحج إليها فريضة»[١]، وكذلك يفهم من خلال هذا التوصيف النبوي للإمام علي عليه السلام أن الإمام هو الإمام، ويبقى إمامًا للناس وإن أنكره مَنْ أنكره كالكعبة التي هي الكعبة توجه إليها الناس في صلاتهم أم لم يتوجهوا قصدوها أم لم يقصدوا، وإن كان هناك ميزات كثيرة لهذا الاعتقاد ومن أبرز ما يميزه توحيده للأمة؛ ولذا طرحته السيدة الزهراء عليها السلام علاجًا لمشكلة خطيرة واجهت المسلمين حينذاك، فتمزيق الأمة ينطلق من تضييع المتولي الحقيقي عليها والراعي الإلهي إليها والقائد المنصب بأمر السماء، وهذا ما بينته سلام الله عليها حينما خطبت في المسجد النبوي الشريف بعد الاعتداء الذي حصل عليها وغصب الأمة حقها، حيث قالت: «وإمامتنا أمانًا للفرقة...»[٢]، فظاهرة الولاء موجودة في حياة الإنسان وطريقة تعامله مع الآخرين إذ ليس بإمكانه التخلص منها بسهولة؛ كونها نابعة من صميم فطرته، حيث يعتمد في حياته على مجموعة من الولاءات التي تربط بينه وبين المحيط الذي يعيش به أو يستشعر وجوده من الغيبيات والماديات، فنحن نجد من أنفسنا تعلقًا وانجذابًا إلى الله سبحانه وتعالى، كما نجد تعلقًا بالذين نشاركهم في الدين والعقيدة

(١) القمي شاذان بن جبرئيل، الروضة في فضائل أمير المؤمنين، ص٨٣.
(٢) محمد بن جرير، دلائل الإمامة، ص١٠٩.

حتى كأن هناك صلة قرابة رابطة بيننا، وهكذا الحال في كل علاقة وارتباط يكون مشابهًا لهذا النوع كما في الزوجية والرحم والصديق والحاكم وغير ذلك، وهذا ما يعطي الإنسان شعورًا بالانتماء إلى سائر الموجودات المحيطة به، بل هذا ما يشعره بالتكامل مع الأشياء فهو جزء من نظام كامل، قمته إله عظيم وخالق أزلي وآخره التربة التي عاش عليها -وان كان ذلك يسمى انتماءا على نحو الدقة كما سيأتي توضيحه بعد قليل إن شاء الله تعالى- وفيما بين ذلك تتباين الرتب، فالولاء نتيجة لما يجعله الإحساس بضرورة التوسع الوجودي داخل الإنسان اعتمادًا على هذا النوع والرغبة من الانسجام والتكامل في حياته، وهو أحد أسباب ارتفاع الأنانية عنده بالتعامل مع الآخرين، فنراه مستعدًا للإيثار والتضحية لأجل ما يرتبط به ويتولاه، وبالإضافة إلى الفطرة حاول أهل البيت عليهم السلام بث نسائم اللطائف الولائية في نفوس المسلمين عامة وأتباعهم خاصة من خلال الحث على إيجاد مثل هذه السمات في طبيعة تعاملهم فيما بينهم، ومنها ما ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «حق المسلم على المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه، ولا يروى ويعطش أخوه، ولا يكتسي ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم»(١)، وقال عليه السلام: «أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، وان احتجت فسله، وإن سألك فأعطه، لا تمله خيرًا ولا يمله لك، كن له ظهرًا فإنه لك ظهر، إذا غاب فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره وأجله وأكرمه، فإنه منك وأنت منه، وإن كان عليك عاتبًا

(١) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج٩، ص٤٣.

فلا تفارقه حتى تسل سخيمته[١]، وإن أصابه خير فأحمد الله وإن ابتلي فأعضده، وإن تمحل له فأعنه، وإذا قال الرجل لأخيه: أف، انقطع ما بينهما من الولاية، وإذا قال له أنت عدوي كفر أحدهما، فإذا اتهمه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء...»[٢].

ومن الأمور التي تجعل للولاء أهمية في حياة الفرد بصورة عامة والمؤمن بشكل خاص - باعتباره الأولى باكتساب الفضائل- جعله الميزان في التقييم، مع رفض التعصب والتعنصر، فهما أمران غاية السقم والظلم إذا ما كانتا هما المقياس الذي يتكئ عليه في تحديد العلاقات في الحياة كونهما يفقدان الإنسان قيمه الإنسانية والدينية، فقد يظلم ويعتدي ويتعدى حدوده بالتعامل مع مَنْ لم يشترك معه بالعشيرة أو القومية أو البلد، بل قد يجعلانه ينتصر للباطل، وهو يعلم أنه باطل لمجرد كون المنصور يخصه، والمظلوم لا يمت له بصلة، وهذا تحديدًا ما حاربه الإسلام، ونبذه، وحاول القضاء عليه بشتى الوسائل حيث اعتبره من قيم الجاهلية؛ لأنه مرض فتاك قد يودي بالمحبة ويذهب الألفة ويغري العداوة بين المتعصب ومن تجب مودته ويفرق بين الأمرين، بل قد يكون سببًا في إثارة الحروب في بعض الأحيان ويزرع الضغائن بين منْ يفترض أن يكونوا كالبنيان المرصوص، ومن هنا قرب النبي ﷺ سلمان رضوان الله عليه مع أنه فارسي وأبعد أبا لهب وهو عمه، وبذلك جعل ما يثبت ركائز القرابة والأخوة هو الإيمان والولاية

(١) الحقد والضغينة.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٠٧، ح١٦٠٩٨.

الحقة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]، وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]، ولهذا اهتم صلى الله عليه وآله وسلم بضرورة ترسيخ هذه العلاقة، فقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»[٣]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٥]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في إحدى خطبه موجهًا كلامه إلى المؤمنين: «أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس»[٦].

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢١٢.
(٤) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٨٣٧.
(٥) الشيرازي الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص٦٢٧.
(٦) نهج البلاغة، ج١، ص٢٣١.

فائــــدة: الفرق بين الولاء والانتماء

إن من الأمور التي تخلط الأوراق بنظر الكثيرين التشابه والتقارب في الاستعمال العرفي لكلمتي الولاء والانتماء عند البعض، فيلتبس المعنى عندهم ويرتبون على ذلك أحكامًا قد تكون مجحفة بحق الكثيرين حيث يشار إليهم بيد الاتهام، ويباشر الطعن فيهم والتسقيط لهم بدعوى أنهم عملاء تبع وخونة لا ولاء لهم لأوطانهم وقبائلهم والبيوتات التي ينتسبون إليها، ومن هنا بات من المهم جدًّا الوقوف على بيان الفرق بين هاتين المفردتين؛ لتتبين الحقيقة لمن اشتبه عليهم الأمر، وفي نفس الوقت لتدفع شبهة أن الدين يدعو إلى التعنصر.

الآن وقبل الدخول في صلب الموضوع أحب أن أذكر مقدمة توضح خطورة ابتداع بعض المصطلحات، ومن أين جاءت؟

لا يخفى على المتتبع للأحداث فكرة أن مصطلحي الوطنية والقومية إنما وجدتا وروّج لهما لا لتكونا بعرض الإسلام فحسب، بل جاءتا لهدم قواه وتضعيفه بداعي تقديم مصلحة الوطن -الوطن أولًا- على كل معتقد وقيم، والقومية ثانيًا فهي أيضًا مقدمة على ما سواها، وهذا ما حاول الدين الإسلامي القضاء عليه؛ ليجعل الولاء لله وللرسول وللإمام والدين فيكون بذلك في نفوس المسلمين ركنًا وثيقًا وحصنًا حصينًا، وفي نظر أعداء الإسلام مصدر القوة الذي يمنح المسلمين الهيبة والعز والاحترام، وأعداءهم الخوف والخشية من الإسلام، فيتحاشى مَنْ يكن للمسلمين العداء التعرض لهم، وهذا ما

حصل طيلة فترة الخلافة الإسلامية، فقد كانت جميع الأمم والديانات تحسب لهم حسابًا، الأمر الذي لم يرق للكافرين، حيث كان سبب أرقهم وقلقهم، فكان السبب الرئيس للتفكير في كيفية سلب المسلمين هذا المصدر، فبدأت مؤامراتهم تحاك لأجل الوصول إلى الهدف، حتى نجح الروم بتحقيق هذا الأمر وبشكل واسع بعد الحرب الصليبية، فبدأوا الترويج إلى زرع مفهوم الوطنية والقومية في الدول التي يريدون الفتك بها، تلك الثقافة التي انبثقت في أوربا أول الأمر على أثر تحولات فكرية وسياسية أدت إلى إعادة هيكلة المجتمعات الأوربية من مجتمعات دينية تتكتل على أساس الدين والمذهب إلى مجتمعات تتكتل على أساس القومية (القوم) والجغرافية (الوطن) فولدت آنذاك الدول القومية والوطنية، واتخذت من العلمانية اللادينية منهجًا لحياتها كردة فعل على استبداد الكنيسة وفساد البابوات وبطش الحاكم باسم الدين وضد الصراع الديني المذهبي الأوربي الدامي الذي حصد الكثير من الأرواح وبدد الثروات في تلك العصور، ثم صُدِّرت هذه المفاهيم والثقافات إلى المسلمين لتفريق الأمة قبليًّا وعرقيًّا، ثم تلتها مرحلة ترسيم الحدود تلك الكذبة اللئيمة التي صدَّق بها المغفلون والتي أكل من خلالها المسلمين طعم التفريق والتضعيف والتمزيق، والتي قسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات بحسب اتفاقية سايكس بيكو المشؤومة، وحينها قضوا على مفهوم الولاء للدين بشكل كامل فوجد هذا المفهوم –الوطنية– طريقه للتطبيق عند المسلمين مستندين في ذلك على فكرة أن الوطن: هو البلد الذي يعيش فيه جماعة من الناس تتفق على أن تلتزم

بالولاء للوطن بعد أن كان لله تعالى، وسيادة القانون الوضعي بعد أن كانت الشريعة وقانونها هو السائد، وطاعة الحاكم كيفما كان الدستور الذي يعتمده في حكومته بعد أن كانت فكرة إسلامية عامة للحاكم الذي يحكم ظاهرًا وفق دستور الإسلام وإن لم يلتزم هو بأحكام الدين، وبناءًا على نظرية الوطن، يكون للمواطن – ابن البلد – حقوق تختلف عن غيره حيث أصبح الأخير يسمى أجنبيًّا وإن كان بالأصل أخوه في الدين والمذهب ومقابل ذلك على المواطن أن يدافع عن هذه المنظومة الوطنية، ويوالي من والاها وإن كان متقاطعًا عقَديًّا معه، ويعادي من عاداها، وهذا ما حصل فعلًا، وقضي الأمر وضعفت لحمة المسلمين وتشتت قوتهم وبادت حصونهم إلى أن أصبحوا عبيدًا للغزاة والمحتلين ومطمعًا لكل مَنْ يفوقهم عدة وعددًا، وأداة لقتل شريكهم في الدين تلبية لرغبة الدول المعادية، وعلى كل حال باتت هذه المفاهيم معاول هدمَت حصون الإسلام، وألبست المسلمين لباس الضعف والهوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بعد هذه المقدمة حان الأوان للتطرق إلى معنى الانتماء؛ ليتبين الفرق بينه وبين الولاء، وليرفع توهم الخلط بين المفهومين وشبهة أن الدين يدعو إلى التعنصر إلى فئة معينة، وإثبات أن تقسيم البلدان هو أول الأسباب التي دعت إلى العنصرية.

لقد عرَّف أهل اللغة الانتماء: هو الانتساب، يقال: انتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النسب[(١)].

(١) البغدادي، ، خزانة الأدب، ج٦، ص٩٧.

واصطلاحًا: الانتساب الحقيقي للمكان وتمجيد أهله والاعتزاز بهم، وبلغتهم وتراثهم وعقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وبالنسبة إلى تعريف الانتماء للوطن يقال: هو الاستعداد بالتضحية من أجله بالغالي والنفيس[(١)]، وبهذا يفهم أن الانتماء عبارة عن ارتباط شخص بمكان أو انتساب إلى قبيلة أو شخص أو فئة معينة، وهو صنيعة بشرية يتحرك من خلال فاعلية المشاعر والعواطف والعصبية تجاه المكان الذي يعيش فيه والقوم الذين ينتمي إليهم.

أما الولاء فهو: عموم في الالتجاء والارتباط والاتصال، ناشئ عن فكرة دينية، مع ملاحظة أن الدين دائمًا ما يهتم بالمشتركات في طريقة التعامل بين بني البشر، ويدعو إلى احترام الآخرين، أما معيار التفاضل عنده فهو مبتنٍ على أسس منطقية ترضي كل مَنْ اطلع عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٤)].

وبذلك يتبين أن الانتماء تضييق في الانتساب والارتباط، ناشئ عن فكرة تعصبية، تكتسب بحكم الولادة في المكان أو النشأة فيه أو النسبة إلى العائلة أو القبيلة وما شاكل ذلك، أي أنها جميعًا أمور غالبًا

(١) سميح الكراسنة، الانتماء والولاء الوطني في الكتاب والسنة النبوية، ص٥١.
(٢) سورة الحجرات، الآية١٣.
(٣) سورة الزمر، الآية٩.
(٤) سورة النساء، الآية٩٥.

ما تنتج عن اضطرار؛ كونها خارجة عن إرادة الفرد، بينما منشأ الولاء منطلق من فكرة دينية وأفكار الدين عقلائية ومنطقية جميعها، ناتجة عن مصلحة صادرة من لدن حكيم عليم، إلا أنها مع هذا تكون واقعة تحت اختيار الفرد، تصدر منه بإرادة حرة، وبهذا يتضح أنها من الأمور المفروضة شرعًا - بالنظر إلى كون خلاف ما سيذكر مخططًا ناشئًا عن أيادٍ خبيثة- وعرفًا وعقلائيًا تقديم الولاء على الانتماء باعتبار أن الأخير فكر هدام يسلب الأمة مكامن القوة منها؛ لأنه يمثل أحد أقوى دعائم التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، بل هو العامل الأول لخلق العصبية والعنصرية لا الدين كما يتهمونه، مع ملاحظة أن هذا لا يعني التخلي عن الدفاع عن الأوطان أو الوفاء والإخلاص لها، أو ترك العشيرة والابتعاد عنها أو الزهد فيها، بل إن الالتزام بذلك يُعد من ضروريات الحياة، ومن الأمور التي أقرتها الشريعة السمحاء، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينطلق في تبليغ دعوته من مفاتحة أهله وعشيرته، وفي ذلك إشارات متعددة منها: أنهم الأقرب إليه فهم الأولى بالمعروف، وكذلك أنهم السند غالبًا في كل حركة وممارسة يبادر بها المصلح، وأن الإنسان يبقى منهم في مأمن وإن عارض أهواءهم فيما يدعو إليه فمن الصعب عليهم عادة أذيته وإلحاق الضرر به؛ لكثرة الروابط التي تجمعهم والرحم الذي يحتم على ذويه التراحم والتعاطف، بل قد يكونون له ناصرًا وحاميًا وسيوفًا مشرعة بوجه مَنْ يكن له العداء، وغير ذلك مما يمكن أن يتصور بحقهم، قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[١]، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي تطير به، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول»[٢]، وفي مقام التأكيد على ضرورة تنظيم العلاقات مع الأرحام والتوصية بهم يقول عليه السلام: «أكرم ذوي رحمك ووقر حليمهم واحلم عن سفيههم وتيسر لمعسرهم فإنهم لك نعم العدة في الرخاء والشدة»[٣]، وقد أشار صلوات الله عليه في سياق بيان خسارة البُعد والابتعاد عنهم: «مَنْ يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض يدًا واحدة عنهم ويقبض عنه أيدٍ كثيرة منهم»[٤]، فليست العصبية من ذلك في شيء إنما العصبية أن يجعل المرء من شرار قومه خيرًا من خيار غيرهم كما جاء عن الإمام السجاد عليه السلام حينما سئل عن العصبية[٥]، هذا مع أن الدين الحنيف لم يغفل عن مقت العصبية والنهي عنها، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٦]، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ تعصب أو تُعُصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه»[٧]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.
(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٣، ص٥٧.
(٣) الواسطي الليثي علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، ص٨١.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) (العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرًا من خيار قوم آخرين وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على ظلم) [الكافي، ج٢، ص٣٠٨].
(٦) سورة الفتح، الآية ٢٦.
(٧) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٠٨.

«مَنْ كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[١]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منا مَنْ دعا إلى عصبية وليس منا مَنْ قاتل على عصبية وليس منا مَنْ مات على عصبية»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ تعصب عصبه الله عزَّ وجلَّ بعصابة من نار»[٣]، وإن كان ولا بدَّ منها فلتكن في المحل الذي ينبغي أن تكون فيه كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه حيث قال: «فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل[٤]، بالأخلاق الرغيبة[٥]، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة. فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض»[٦].

بعد هذا كله ينبغي للمؤمن أن يعيد حساباته في تنظيم المفاهيم في ذهنه، والتعامل بحذر مع الآخرين، وأن يتخذ السبيل الحق في تقييم علاقاته وبناء واجباته تجاه دينه ومعتقده والمنتمين إليهما؛ فإن من أخطر المواجهات والأزمات التي تعرض لها الدين والمتدينين عبر

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٢)سنن أبي داود، ٥١١٩.
(٣)الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال ج٢، ص٢٦٣.
(٤)اليعاسيب: جمع يعسوب وهو أمير النحل ويستعمل مجازًا في رئيس القوم.
(٥)أي: المرضية المرغوبة.
(٦)المعتزلي ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٠.

التاريخ هي الصراع الدائر بين النزعة الدينية والنزعة القبلية والقومية، فقد ترى سبب عدائية المرء هو نسب نبي زمانه الذي يختلف عن نسبه، أو أن انتماء وليه الذي يجب عليه طاعته يكون لغير الأرض التي ينتمي إليها، ومن هنا تبدأ عاصفة الحسد تحرك مشاعر ضعاف النفوس فتصيّره حقدًا لتعلن من بعده الحرب التي لا تنفل إلا بمقتل ولي الزمان في حينه والثلة المؤمنة من قومه، أو محاصرته وتعذيبه في بعض الأحيان كما حصل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من أنبياء الله صلوات الله عليهم أجمعين أو الأئمة عليهم السلام، كل ذلك جرى عليهم لا لجرم ارتكبوه سوى أنهم ليسوا من قبيلة فلان، أو يكون منشأ العداء والكراهية هو القومية المقيتة التي أماتت الدين عند البعض وخلّفته الردة والكفر كما في الشلمغاني ذاك الفقيه المعروف بعلمه عند أهل زمانه الذي أخذت منه نائرة الحقد والحسد مأخذها فأثارت فيه النزعة القومية بعد تنصيب الحسين بن روح النوبختي الفارسي رضوان الله تعالى عليه السفارة بعدما أوصى له بها السفير الثاني محمد بن عثمان رضوان الله تعالى عليه في آخر أيام حياته بأمر من صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه أيام الغيبة الصغرى، فأصبح عدوًا للنوبختي يشكك فيه ويثير الناس ضده، ولم يكتفِ بذلك حتى ادعى النيابة والسفارة، فصدر بحقه لعن بتوقيع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قال عنه الشيخ القرشي (رحمة الله عليه): هو «محمد بن علي: الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر كان مستقيم الطريقة فحمله الحسد للشيخ أبي القاسم بن روح وكيل الإمام المنتظر عليه السلام، فترك مذهبه واعتنق المذاهب الرديئة،

وكان من مذهبه الخبيث ترك العبادات كلها وإباحة الفروج من ذوي الأرحام، وأنه لا بدَّ للفاضل أن ينكح المفضول ليولج فيه النور، وقد خرج من الإمام المنتظر عليه السلام توقيع يلعن الشلمغاني والبراءة منه على يد الثقة الزكي الشيخ أبي القاسم، الحسين بن روح، وهذا نصه «عرف أطال الله بقاك، وعرفك الله الخير كله، وختم به عملك، من تثق بدينه، وتسكن إلى نيته من إخواننا أدام الله سعادتهم بأن محمد بن علي المعروف بالشلمغاني، عجل الله له النقمة ولا أمهله قد ارتد عن الإسلام وفارقه، وألحد في دين الله، وادعى ما كفر معه بالخالق جلَّ وتعالى، وافترى كذبًا وزورًا، وقال بهتانًا وإثمًا عظيمًا، كذب العادلون بالله، وضلوا ضلالًا بعيدًا، وخسروا خسرانًا مبينًا وإنا برئنا إلى الله تعالى، وإلى رسوله صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته منه، ولعناه عليه لعائن تترى في الظاهر منا والباطن في السر والجهر، وفي كل وقت، وعلى كل حال، وعلى كل من شايعه وبلغه هذا القول منا فأقام على توليه بعده[(١)] «ولما ظهرت بدعه أخذه السلطان، وقتله، وصلبه في بغداد، وكان هلاكه في سنة ٣٢٣هـ»[(٢)]، وكفى بذلك عبرة.

---

(١) أي: من تولي الشلمغاني بعد صدور هذا النص منه عج.

(٢) الشيخ علي اليزدي الحائري، إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، ج١، ص٣٨٩.

الفرقة والتشتت

لقد عادت من جديد بعد حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قيم الجاهلية منذ أن أنكر معظم المسلمين تنصيب الإمام علي عليه السلام من قبل السماء خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وراعيًا للأمة من بعده، وعمت ميادين الحياة مظاهر الفساد والانحراف، وبدأت تنمو هذه الجنبة في حياة المسلمين، وأخذت تزداد تفاقمًا حتى أنهكت جسد الإسلام، فوهنت الأمة بين الأمم، وتشوهت صورة الدين وقد حصل جميع ذلك بسبب السياسات الفاسدة التي تسنمت دكة الحكم، وسيادة الجاهلين آنذاك، وارتقاء الناس منصة التعصب، وتحكيم العاطفة، بعد أن حاول النبي صلى الله عليه وآله وسلم تركيز حكومة العقل وزرع هذا المفهوم في أذهان المسلمين، حيث بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل معنى ذلك، ومدى أهمية اللجوء إليه في شؤونهم ما لم يتقاطع مع تعاليم الدين وحذَّر من الانسياق إلى العصبية والعاطفة في التقييم؛ لأنها لا ضوابط لها، فقد تنفتح على هوى النفس وشهواتها وما يحيط بها من حالات طارئة، فتكون أساسًا هشًا لبناء أحكام الإنسان، بينما للعقل قواعده وضوابطه ومعادلاته وعمقه؛ ولهذا جعله الله سبحانه حجة بينه وبين عباده لذلك، ولما له من طاقة قدسية على تلقي أوامر الله ونواهيه.

لقد أصرَّ الدين الحنيف على تحذير المسلمين من تنامي بذرة الشقاق والتخاصم والتقاطع؛ لتوخي لوازمه الوخيمة التي تطيح بهيبتهم وتعصف بمركز مكامن القوة لديهم، فيتفاقم الداء ويبقى

جاثمًا على جسد الأمة، مستحوذًا على قلوب وعقول المسلمين، فيذلون بعد عزّ، ويضعفون بعد قوة، ويتفرقون بعد وحدة، ويتخلفون بعد ريادة، ويهون أمرهم ويصبحون مطمعًا لكل عدو وحاقد، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢]، وأنذرهم من عاقبة أمر الفرقة في الآخرة أيضًا، قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣]، ولو قرأنا وتتبعنا النصوص الروائية التي تعرضت لهذا الموضوع والتي تناولت أهمية الوحدة والاجتماع لوجدناها كثيرة جدًا، ولو اقتبسنا شيئًا من حياة أي من المعصومين عليهم السلام لوجدناها حافلة بمواقف من شأنها تحقيق هذا الأمر بين المسلمين، وتنازلهم عن حقهم في تسنم موقع الخلافة وقيادة الأمة مع علمهم صلوات الله عليهم أجمعين بأنهم أصحاب الحق في هذا الأمر، وأنهم الأولى بهذا المنصب باطنًا وظاهرًا خير دليل على إرادتهم الحفاظ على وحدة الصف، إلا أنهم صلوات الله عليهم مع ذلك لم يجعلوا هذا الأمر سببًا للصراع والتصادم، بل كان كل منهم لا يتردد بتقديم النصيحة لغاصب حقه، كما أخرج الطبري عن يحيى بن عقيل، قال: كان عمر يقول لعلي إذا سأله ففرج عنه: لا أبقاني الله بعدك

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٥.

يا علي، وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع عمر يقول لعلي وقد سأله عن شيء فأجابه، أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن[١]، ويتدخل في إصلاح شؤون الأمة متى استوجب الأمر ذلك، ويربي أصحابه وأتباعه على ضرورة لمّ الشمل تحقيقًا للمصالح العليا للأمة.

إن التخلص من هذا الداء الخطير والمرض العضال الذي تعاني منه الأمة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى يومنا هذا لا مرهم له ولا دواء، سوى التحرك نحو رضا الله سبحانه والالتزام بتعاليمه ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال البدء بإصلاح النفس وتجلية صقعها؛ لتكون مهيأة ومستعدة لتقبل التغيير الذي وعد الله عباده به جزاءً لتغيير أنفسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٢]، وتكريس القوى وتظافر الجهود؛ لأجل الوصول إلى ذلك، فما دامت أنفاس الفرقة والتشتت والابتعاد عن دين الله سبحانه هي الحاكمة والعقليات البائسة هي التي تتصرف بأحوال العباد والبلاد في العالم الإسلامي فلا خير يرجى ولا بوادر انكشاف ترتجى.

لكن الأمر الذي لا محيص عنه بحسب الأدلة النقلية هو الوعد الإلهي بالخلاص وحسن العاقبة، هذا الأمل الذي يعيشه المسلم والذي أصبح سره في الحياة الذي يتعدى به المحن والصعاب، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ

(١) الطبري محب الدين، ذخائر العقبى، ص٨٢.
(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾[٢]، فهذا الوجود للسلسلة من الإمدادات الغيبية التي تنتظر المؤمنين والمخلصين تكون لهم مطايا التسلية التي يعبرون بها كل أمواج البلاء حتى تبلغهم بر الأمان، وهي التي تطيّب لهم الحياة، وإن كان لا ينال هذه المنح مَنْ يناها جزافًا، بل لا بدَّ من الاستعداد والجدارة، فالمنع والعطاء مرهونان بذلك، كما ورد عن الإمام الصادق أنه عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد بنعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنبًا يستحق بذلك السلب»[٣]، وفي حديث آخر عنه أيضًا عليه السلام: «أن الله عزَّ وجلَّ بعث نبيًّا من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون»[٤].

(١)سورة الأعراف، الآية١٢٨.
(٢)سورة القصص، الآية٥.
(٣)تفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٩٣.
(٤)الشيرازي الشيخ ناصر مكارم، تفسير الأمثل، ج٥، ص٤٥٨.

الفرق بين الخلاف والاختلاف

رغـم أن بعـض اللغويـين لم يفرقـوا بـين معنـى كلمتـي الخـلاف والاختـلاف وعدوهمـا مـن الألفـاظ المترادفـة، إلا أن البعـض الآخـر عدهمـا بمعنيين متباينين رغـم اتحادهمـا في الجذر عـلى أسـاس أن وزن كل منهـما والصيغـة البنائيـة لـكلا اللفظـين مختلفـة ففـرق بـين صيغـة الفعـال والافتعـال، لكنهـم جميعًـا عـلى كل حـال رغـم هـذا الاختـلاف اتفقـوا عـلى التفرقـة بينهـما في مقـام الاسـتعمال، وقـد ذكـرت لمعنييهـما الاصطلاحيـين معـانٍ متعـددة كـما ذكـره أبـو البقـاء الكفـوي[١]، منهـا:

١- الاختـلاف: مـا اتحـد فيـه المقصـد واختلـف في الوصـول إليـه، أمـا الخـلاف: فهـو مـا اختلـف فيـه القصـد مـع الطريـق الموصـل إليـه.

٢- الاختـلاف: هـو التبايـن في الـرأي والمغايـرة في الطـرح، وأمـا الخـلاف: فهـو المخالفـة أو المعارضـة.

٣- الاختـلاف: يعنـي نـوع مـن أنـواع التكامـل والتناغـم، وأمـا الخـلاف مشـكلته: أنـه ليـس فيـه تناغـم بالعكـس مـن الاختـلاف.

٤- الاختـلاف: ينصـب عـلى الـرأي، بينـما الخـلاف: ينصـب عـلى الشـخص.

٥- الاختـلاف: لا يـدل عـلى القطيعـة، بينـما الخـلاف يـدل عـلى القطيعـة.

(١) أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، ص٦١.

٦- الاختلاف: هو افتراق الطرفين في الوسائل والغاية واحدة، بينما الخلاف: هو افتراق الطرفين في الوسائل والغايات.

٧- ربما يؤدي الاختلاف إلى خلاف، ولكن ليس دائمًا، ولكن كل خلاف ينتج عن اختلاف.

٨- أحيانًا يستعمل (الاختلاف والخلاف) أحدهما مكان الآخر، إلا أن الغالب استخدام الاختلاف فيما كان محمودًا ومقبولًا، والخلاف في المذموم منه وهو قرين الفرقة والنزاع.

من هنا تتبين حقيقة الفرق بين الكلمتين، وما يهمنا بعد هذا كله أن نشير إلى أن الاختلاف حالة صحية، بل هي أحد سبل تطوير الأمم ونضوج الفكر البشري، فإن تكاثر النظريات وتطور الأطروحات ورقي الحركة العلمية ينشأ من ذلك، بينما الخلاف حالة مرضية يجب التخلص منها والابتعاد عنها لما لها من عواقب وخيمة على الأمة، فما لها سوى إشاعة حالة البغض والكراهية وما تزيد المتوسمين بها إلا وهنًا وضعفًا، فلينظر كل منا إلى المشتركات بينه وبين الآخرين فإنها تبان واضحة بأدنى تأمل ولا تحتاج إلى كثير من الإمعان والتفكر، وليجعلها دائمًا نصب عينيه تجنبًا للعواقب، ولا نجعل للشيطان وأوليائه علينا سلطانًا، فيصيره خلافًا، فمن المعيب غياب لغة الحوار في أمة تعاطى نبيها مع أعدائه بإظهار دعوته إليهم بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ

﴿رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١)، وكانت أرقى سبل هدايته للآخرين ناتجة عن خُلُقه العظيم الذي شهد له الكفار أنفسهم بذلك وكما شهد له رب العزة جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، فيفترض أن نكون الأولى باتباعه والسير على خطاه بالتعامل فيما بيننا فضلًا عن غيرنا من المخالفين، علمًا أن الاختلاف بين الناس أمر طبيعي وسنة من سنن الحياة علينا أن نحسن التعامل معها بشكل إيجابي وفعال لتحقيق التفاهم والتعاون ويجب أن يكون كما يقولون: الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

التسقيط والتقويم والفرق بينهما

ليس من السهل بحسب العادة صناعة المؤمن والصالح والقائد، فقد تستغرق مثل هذه العملية عدة سنوات، ولعلها لا تنتج رغم الإصرار والعزيمة والعمل الدؤوب كما كان الحال مع أنبياء الله صلوات الله عليهم أجمعين والتي بانت واضحة بخصوص قصة النبي نوح على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام، فتكامل النفس والأخذ بيد الآخرين نحو هذا المقصود أمر ليس بالهين؛ لشائكة الطريق الذي يحف بذلك، ولكثرة التحديات التي تواجهه، ابتداءً من النفس الإنسانية وإبليس الذي يحاول جاهدًا منع ذلك، وانتهاءًا بالعداوة والأنانية والحسد والتنافس غير الشريف، فنرى متسافل الدرجات يسعى بكل

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.
(٢) سورة القلم، الآية ٤.

قوة محاولًا تسقيط مَنْ يروم التكامل إن لم يدرك منعه، ولم يتمكن من الحيلولة دون ارتقائه ووصوله، مستعينًا بكل الوسائل المقيتة، فإذا ما رأينا قلة الواصلين فليس لقلة المواهب التي يحملها الناس أو ندرة المؤهلات التي يتمتع بها الأشخاص، أو عدم وجود فرصة لذلك، بل لكثرة القراصنة الذين يعترضونه أثناء مسيرته التكاملية، فيثيرون ضده حملات ممنهجة أولها التشكيك به على مستوى التدين أو التطور الذاتي أو الرقي العلمي أو قيادة المجتمع.

فربما يكلف الشانئ لأجل إسقاط خصومه الكذب والافتراء عليه بغيبته وبهتانه، ويحاول أن يجد لنفسه مبررًا أو يحتج بحجج واهية إن مررها على غيره فسيبقى على علم بأنه لا يريد ما يذكر؛ لأنه لا ينكر مقاصده وإن أظهر غيرها، قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1]، فيفقد مروءته وتسوء عاقبته؛ ولذا نهت الشرائع السماوية عن مثل هذه الذنوب، واعتبرتها من أشد الكبائر، فمفاسدها ليست منحصرة بمجرد ارتكاب معصية ومخالفة توجيه إلهي، بل لما تتبعها من آثار اجتماعية سيئة؛ ولذا حذَّرت من عاقبة أمر مرتكبها، فوصفت الغيبة بنص القرآن بأبشع صورة يمكن أن يوصف بها ذنب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[2]، وقد ورد في الروايات ما يبين آثار هذين الذنبين المقوتين، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ اغتاب مؤمنًا بما فيه لم

(١) سورة القيامة، الآية ١٤-١٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٢.

يجمع الله بينهما في الجنة أبدًا، ومَنْ اغتاب مؤمنًا بما ليس فيه انقطعت العصمة بينهما وكان المغتاب في النار خالدًا فيها وبئس المصير»[١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ روى على أخيه المؤمن رواية يريد شينه وهدم مروته وقفه الله في طينة خبال في الدرك الأسفل من النار»[٢]، وغير ذلك من الروايات التي يطول المقام عند ذكرها.

وعلى كل حال تبقى مثل هذه الصفات وطرق التعامل مع الآخرين ليست من صفات المؤمنين، فالمؤمن واجبه تقويم أخيه المؤمن وإصلاحه إن وجد فيه عيبًا، ويكامله ويتكامل معه إن وجد فيه نقصًا، وهنا تظهر الأرواح الراقية، وتتبين الأخوة الإيمانية الحقيقية، لتنتج المشتركات بين المؤمنين، وبذلك تتحقق وصايا المعصومين وتوجيهاتهم التي خصوا بها هذه الثلة، وبذلك يظهر الموالي ألطف ألوان الزينة التي يجمِّل بها أخاه على أن يراعي في طريق التقويم منها نصحه بالسر، فقد ورد عن الإمام العسكري عليه السلام: «مَنْ وعظ أخاه سرًا فقد زانه، ومَنْ وعظه علنًا فقد شانه»[٣]، بل من حق المؤمن على المؤمن النصيحة على كل حال، وهذا ما أكدته المرويات عن النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن مرآة لأخيه المؤمن، ينصحه إذا غاب عنه، ويميط عنه ما يكره إذا شهد»[٤]، وعن الإمام علي عليه السلام: «امحض أخاك

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص١٦٤.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٥٩.

(٣) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص٣٥٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٤٥.

النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يرده عنه وهو يقدر عليه فقد خانه»[٢]، ويحذِّر من الإساءة إليه بداعي نصحه فإن في ذلك إقلال هيبته، وهتك حرمته، ويعد إهانة له أمام الآخرين، كما حذَّر من ذلك أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «نصحك بين الملأ تقريع»[٣]، وقد جعل الإسلام ذلك من ضمن الحقوق التي لا بدَّ أن تحترم ويحافظ عليها، فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق، أنه قال بخصوص هذا الشأن: «أما حق أخيك فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوتك، فلا تتخذه سلاحًا على معصية الله، ولا عدة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له، فإن أطاع الله وإلا فليكن الله أكرم عليك منه»[٤]، وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إن من واجب حق أخيك أن لا تكتمه شيئًا تنفعه به لأمر دنياه وآخرته، ولا تحقد عليه وإن أساء، وأجب دعوته إذا دعاك، ولا تخل بينه وبين عدوه من الناس وإن كان أقرب إليه منك، وعده في مرضه»[٥]، وعن سماعة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أيما مؤمن مشى في حاجة أخيه فلم يناصحه فقد خان الله ورسوله»[٦].

والنتيجة الأخطر أن المسقط لأخيه فإنما يسقط أحباب الله، ورد في

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٢) العلامة المجلسي، البحار، ج٧٥، ص٦٥.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) الخصال، ج٢، ص٥٦٨.
(٥) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، ج٨، ص١٢٦.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٦٢.

الحديث عن مالك بن أعين الجهني، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «يا مالك إن الله يعطي الدنيا مَنْ يحب ويبغض ولا يعطي دينه إلا مَنْ يحب»[١]، وعن عمر بن حنظلة قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا الصخر إن الله يعطي الدنيا مَنْ يحب ويبغض، ولا يعطي هذا الأمر إلا صفوته من خلقه، أنتم والله على ديني ودين آبائي إبراهيم وإسماعيل، لا أعني علي بن الحسين ولا محمد بن علي و إن كان هؤلاء على دين هؤلاء»[٢]، بل إن تسقيط المؤمن لا يستلزم هتكه فحسب، بل سيعم ذلك الدين كله؛ باعتبار أن الناس يرونه من خلال المتدينين، وحينئذ سيكون التسقيط هدامًا لمراقي الدين والمؤمنين معًا، وسيصبح هذا الإنسان بهذا العمل الشنيع محطمًا لما بناه المعصومون وبذلوه لأجل إقامة دين الله وترغيب الآخرين به، والتقويم على خلاف ذلك فالمقوم سيكون معينًا للنبي وآله في رسالتهم وسوف يسهم بتنصيع وجه المتدينين بين الناس، وبالتالي سوف يستحسن الآخرون وجه الدين، وسيؤدي حق الأخوة الذي عليه، وسوف يمسي أجره على الله سبحانه وصاحب الرسالة العظمى صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الانتقاد والنقد البناء

لا يوجد عندنا تداول لمصطلح الانتقاد في الشريعة الإسلامية، أقصد بحسب ما جاء في نصوصها، قرآنية كانت أو روائية إلا ما ندر، فقد ورد مصطلح الانتقاد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «الانتقاد عداوة»[1]، ومع هذا نجد الكثير من المسلمين يتداولونه في الأوساط ويبالغون في استعماله بعض الأحيان، باعتبار أن الناس يستسيغونه ولا يستهجنون فاعله؛ ليغطوا على سوءة الغيبة والبهتان اللذين يؤديان إلى تسقيط الطرف المعني بهما، فقد يحاول البعض تلطيف المصطلحات؛ ليواري عن قبح ما يفعل وليجعل من فعله مقبولًا بنظر الآخرين؛ وليمهد نفسياتهم للاستماع والإذعان له، وهذا ما قد يسميه البعض تهكمًا بغيبة المقدسين الذين يحاولون أن يقدموا المقدمات الدينية المصطنعة التي تبدو مقبولة قبل التورط بمثل هذه الرذائل، إلا أن الله تعالى يسمع ويرى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يفرق عنده تبارك اسمه سواء أعلن المرء ما يكنه أو يضمره عن الآخرين أو أعلنه، وكل ذلك سيدون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

أما ممارسة النقد البنّاء الذي هو في حقيقته: عملية تقديم آراء صحيحة ووجيهة حول عمل الطرف المقابل، والتي تنطوي عادة على تعليقات إيجابية وسلبية، ولكن بطريقة ودية وليس بطريقة فيها عناد

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص١٨٤٧.

وتسقيط وتكون في الأعمال التعاونية، وغالبًا ما يكون هذا النوع من النقد أداة قيمة للارتقاء بمعايير الأداء والمحافظة عليها، ولكي يكون هذا النوع من الكلام مبررًا شرعًا، لا إشكال فيه، يشترط أن يكون بحضور الطرف الذي يرغب المرء بانتقاده؛ لئلا تسجل عليه غيبة أو انتقاص أو بهتان وما شاكل ذلك من الأمور التي حرمها الله سبحانه وتعالى، وبهذا يتضح أن النقد البنّاء هو رديف التقويم والإصلاح الذي ينبثق من دافع الحرص على الآخر، ايفاءًا للأخوة بين المُنتَقَد وبين الناصح.

ومن هنا يمكن أن يقال في مقام تحديد الفرق بين الانتقاد والنقد البنّاء، أو قل: بين النقد الهدام والنقد البنّاء، هو:

١- أن النقد البنّاء يستخدم فيه أساليب علمية، بينما يقوم الهدام على أسلوب التجريح الشخصي والتسقيط وقد يصل إلى مرحلة الشتيمة والسب وتكفير الطرف المقابل أو إخراجه من الدين والمذهب.

٢- ينطلق الناقد البنّاء في كلامه من أسس علمية تنبع من صميم معرفته أو تخصصه، بينما يتكلم الثاني بغير تخصصه، فينتقد أفكارا لا يلم بها، ويتكلم في غير مجاله، فلا هو من أهل علم ودراية ولا هو من أصحاب المعرفة في النطاق، وليس لديه حجة شرعية أو مبرر ديني، سوى محاولته تسخيف أفكار، أو تسفيه آراء الطرف المقابل؛ كونها لا تنسجم مع ذوقه؛ أو لأنها صدرت من ندٍ له أو من شخص يعتقد أنه يزاحمه الزعامة بأي شكل من أشكالها.

٣- النقد البنّاء غالبًا ما يكون دافعه المحبة، بينما تقوم ركائز الهدام

على العداوة والحقد والكراهية وإن لم تبدُ حتى للناقد.

٤- أحد دواعي النقد البنّاء هو النضوج الفكري وتطوير الفكرة وإيجاد حركة فكرية علمية أو تقوية الفرد المُنتَقَد، بينما هدف الثاني كسر شوكة المُنتَقَد وهدم أفكاره وإضعافه.

٥- يكون صاحب النقد البنّاء محبًّا مصلحًا عادة؛ ولذلك تجده يركز على الإيجابيات ويستعمل المقدمات اللطيفة حينما يتعرض للسلبيات مع طرحه الحلول المناسبة والأفكار التي من شأنها تصحيح المسار، بينما لا يرى الثاني – الهدام – أي فكرة، سوى الجانب السلبي.

٦- لا تُرفض في النقد البنّاء غير الفكرة محل الاعتراض فالناقد يفصل بينها وبين غيرها من الأفكار التي لا علاقة لها بالموضوع، حيث ينتقد الفكرة أينما وجدت وبغض النظر عن قائلها، بينما يعمم الهدام اعتراضاته على جميع الأفكار، ويفرق عنده الحال بحسب حبه أو كرهه لِمَنْ يأتي بها.

٧- الناقد البنّاء يعتبر النقد مرحلة من مراحل العمل والإنجاز، وقد يكون جزءًا من عمله، فهو داخل ضمن واجباته اتجاه الآخرين، بل قد يعده تكليفًا وواجبًا شرعيًا، بينما يقف الهدام عند النقد، هذا إن لم يكن داعيه إلى ذلك ما مرَّ ذكره.

أثر وسائل الإعلام في نشر الخلافات

إن من أخطر الوسائل التي تُعتمد لإيصال الأفكار وتغذية النفوس بتعاليم محمودة أو مذمومة هو الإعلام؛ ولذا اهتمت الحكومات كثيرًا به منذ صدر الإسلام وإلى الآن؛ لأن هذه الأنظمة لا تعيش في فراغ، بل تتحرك ضمن أطر بيئية داخلية وخارجية تدفع إليها بمتغيرات تؤثر في موضوع صنع القرارات الدينية والسياسية، فالإعلام بلا شك لغة حوار عابرة للحدود وهو يمثل بشكل أو بآخر حلقة الوصل بين الجماهير ومتخذي القرار، وهو اليوم أحد أهم الوسائل التي تدفع بيدها إلى خلق حالة من التفاعل بين الرأي العام ومتبنيات السلطة الحاكمة؛ ولذا نجح في تحقيق مآرب الظَلَمَة على مدى التاريخ، فبه أصبح الرائج عند الشاميين والمشهور بينهم أن أمير المؤمنين عليه السلام لا يصلي!!!، فاستغربوا عندما جاءهم خبر شهادته عليه السلام بمحراب صلاته في مسجد الكوفة، وفي الوقت نفسه جعل من الحسين عليه السلام خارجيًا!!!، ومن أهل بيت النبي صلوات الله عليهم أجمعين كفارًا!!!، فأدخلوهم على يزيد سبايا!!!.

لقد ألفت لأجل منهجة الإعلام الرسائل والكتب، وابتدعت النظريات وصرفت أموال طائلة لدعم هذا السلاح الفتاك، وما زال إلى الآن مُستغلًا من قبل جميع ذوي المآرب، فمَنْ يريد أن يحدث حدثًا أو يترك أثرا سلبيًا كان أو إيجابيًا تراه يلتجئ اليوم إلى وسائل الإعلام للوصول إلى غايته ومراده، فمَنْ يرغب بتفرقة أية أمة وتشتيت أية جماعة

يمكنه أن يسلك أقرب الطرق وهو الإعلام، ويطوي أبعد المسافات بأسرع وسيلة من خلال ركوب أمواج الوسائل الإعلامية، فهي أقوى سلاح يشهر بوجه مَنْ يلاقيه حيث يمكنه من خلاله تدمير أعتى قوة، فقد تقلب الحقائق وتختلف الموازين ويستعدى الصديق، ويصاحب العدو، ويخون الأمين ويؤتمن الخائن، فكل ذلك يتم عبر توجيه أصوات منصات الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي، ومن هنا جاء في الحديث عن المعصومين عليهم السلام تنبيهًا للمؤمنين وإلفات نظرهم لذلك، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «فتنة اللسان أشد من ضرب السيف»[(١)]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حد اللسان أمضى من حد السنان»[(٢)]، وقد لمسنا ذلك في الآونة الأخيرة حيث نجحت بعض هذه الوسائل من بث روح الكراهية والعداء بين المؤمنين أنفسهم، وبينت لكل منهم أن عدوه اللدود أخوه المشترك معه بالدين والمذهب حتى أصبح أحدهم لا يطيق الآخر ويتربص به الدوائر، تاركين خلفهم عدوهم الحقيقي يسرح ويمرح، ويصول ويجول، بينما هم في شأن غير شأن، ولله المشتكى.

إن من الصفات التي ذكرت للمؤمن عن النبي وآله صلوات الله عليهم أجمعين أنه فطن يصعب استغفاله واستغلاله، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المؤمن كيس فطن حذر»[(٣)]، ومن الروايات التي فيها شاهد آخر يؤكد هذه الحقيقة ما ورد عن الإمام

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٢٧٧٩.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) النجفي الشيخ هادي، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ج٩، ص٤٣٢.

الصادق عليه السلام سأذكرها غير مقتصر على محل الشاهد؛ لأن فيها ما ينبغي أن يطلّع عليه كل مؤمن ليعرض نفسه عليه ويرى أين محله من هذه الصفات؟؟؟، وهي ما نقله عبد الله بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قام رجل يقال له همام وكان عابدًا ناسكًا مجتهدًا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا صفة المؤمن كأننا ننظر إليه فقال: يا همام المؤمن هو الكيس الفطن، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه أوسع شيء صدرًا، وأذل شيء نفسًا، زاجر عن كل فان، حاض على كل حسن لا حقود، ولا حسود، ولا وثاب، ولا سباب، ولا عياب، ولا مغتاب، يكره الرفعة، ويشنأ السمعة، طويل الغم، بعيد الهم، كثير الصمت، وقور ذكور، صبور، شكور، مغموم بفكره، مسرور بفقره، سهل الخليقة، لين العريكة رصين الوفا، قليل الأذى، لا متأفك ولا متهتك، إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق، ضحكه تبسم، واستفهامه تعلم، ومراجعته تفهم، كثير علمه، عظيم حلمه كثير الرحمة، لا يبخل ولا يعجل، ولا يضجر ولا يبطر، ولا يحيف في حكمه، ولا يجوز في علمه، نفسه أصلب من الصلد، ومكادحته أحلى من الشهد، لا جشع ولا هلع، ولا عنف ولا صلف، ولا متكلف ولا متعمق، جميل المنازعة، كريم المراجعة، عدل إن غضب، رفيق إن طلب، لا يتهور ولا يتهتك، ولا يتجبر، خالص الود وثيق العهد، وفي العقد شفيق، وصول حليم حمول قليل الفضول، راض عن الله عزَّ وجلَّ مخالف لهواه، لا يغلظ على مَنْ دونه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ناصر للدين، محام عن المؤمنين، كهف للمسلمين، لا يخرق الثناء سمعه، ولا

ينكى الطمع قلبه، ولا يصرف اللعب حكمه، ولا يطلع الجاهل علمه، قوّال عمّال، عالم حازم، لا بفحاش ولا بطياش، وصول في غير عنف، بذول في غير سرف، ولا بختّال ولا بغدّار، ولا يقتفي أثرًا ولا يحيف بشرًا، رفيق بالخلق ساع في الأرض، عون للضعيف، غوث للملهوف. لا يهتك سترًا، ولا يكشف سرًا كثير البلوى، قليل الشكوى، إن رأى خيرًا ذكره وإن عاين شرا ستره، يستر العيب ويحفظ الغيب، ويقبل العثرة ويغفر الزلة، لا يطّلع على نصح فيذره ولا يدع جنح حيف فيصلحه، أمين رصين، تقي نقي، زكي رضي، يقبل العذر، ويجمل الذكر، ويحسن بالناس الظن ويتهم على الغيب نفسه، يحب في الله بفقه وعلم، ويقطع في الله بحزم وعزم، لا يخرق به فرح، ولا يطيش به مرح، مذكر للعالم، معلّم للجاهل، لا يتوقع له بائقة، ولا يخاف له غائلة، كل سعي أخلص عنده من سعيه، وكل نفس أصلح عنده من نفسه، عالم بعيبه، شاغل بغمه، لا يثق بغير ربه، قريب وحيد حزين، يحب في الله، ويجاهد في الله ليتبع رضاه، ولا ينتقم لنفسه بنفسه، ولا يوالي في سخط ربه، مجالس لأهل الفقر، مصادق لأهل الصدق، مؤازر لأهل الحق، عون للغريب، أب لليتيم، بعل للأرملة حفي بأهل المسكنة، مرجو لكل كريهة، مأمول لكل شدة، هشاش بشاش لا بعبّاس ولا بجسّاس، صليب كظّام بسام، دقيق النظر، عظيم الحذر لا يبخل وإن بخل عليه صبر، عقل فاستحيى، وقنع فاستغنى، حياؤه يعلو شهوته، ووده يعلو حسده، وعفوه يعلو حقده، لا ينطق بغير صواب، ولا يلبس إلا الاقتصاد، مشيه التواضع، خاضع لربه بطاعته، راض عنه في كل

حالاته، نيته خالصة، أعماله ليس فيها غش ولا خديعة نظره عبرة، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة، مناصحًا، متباذلًا، متواخيًا، ناصح في السر والعلانية، لا يهجر أخاه، ولا يغتابه، ولا يمكر به، ولا يأسف على ما فاته ولا يحزن على ما أصابه، ولا يرجو ما لا يجوز له الرجاء، ولا يفشل في الشدة، ولا يبطر في الرخاء، يمزج الحلم بالعلم، والعقل بالصبر، تراه بعيدًا كسله، دائمًا نشاطه، قريبًا أمله، قليلًا زلله[1]، متوقعًا لأجله، خاشعًا قلبه، ذاكرًا ربه، قانعة نفسه، منفيًا جهله، سهلًا أمره، حزينًا لذنبه، ميتة شهوته، كظومًا غيظه، صافيًا خلقه، آمنًا منه جاره، ضعيفًا كبره، قانعًا بالذي قدر له، متينًا صبره، محكمًا أمره، كثيرًا ذكره، يخالط الناس ليعلم، ويصمت ليسلم، ويسأل ليفهم، ويتجر ليغنم، لا ينصت للخير ليفخر به ولا يتكلم ليتجر به على من سواه.

نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، فأراح الناس من نفسه، إن بغي عليه صبر حتى يكون الله الذي ينتصر له، بعده ممن تباعد منه بغض ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، وليس تباعده تكبرًا ولا عظمة، ولا دنوه خديعة ولا خلابة، بل يقتدي بمن كان قبله من أهل الخير، فهو إمام لمن بعده من أهل البر.

قال: فصاح همام صيحة ثم وقع مغشيًا عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه وقال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها.

---

(١) أي: قليل ما يزل ويخطئ.

فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لكلٍ أجلًا لن يعدوه وسببًا لا يجاوزه، فمهلًا لا تعد، فإنما نفث على لسانك شيطان»[(١)].

الآثار الاجتماعية للتسقيط وما يستلزمه

إن السلام ليس مسألة فوقية في ثقافة الإسلام وبناء الفكر والمجتمع الإسلامي، بل هو قائم في عمق الحياة الاجتماعية والعلاقات التي يرتبط بها الإنسان المسلم، ويستوعب كل المساحات الواسعة للعلاقات عند المسلمين؛ إذ إنه ليس ظاهرة مبتورة عديمة الجذور والآثار والنتائج في الحياة، وإنّما له جذوره وخلفياته وأصوله، كما له ثماره ونتائجه وفروعه في الدنيا، فإذا كان مجرد شعار افتراضي في حياة الناس وهتاف في فلاة، فلن يطول بقاؤه، ولن يقاوم أسباب الخلاف والصدام والنزاع، بل سيموت منذ اللحظة التي يولد فيها، أما عندما يكون أمرًا قائمًا في عمق حياة الإنسان وعلى أصول وخلفيات ثابتة ومستقرة، وجذور عميقة وممتدة، فإنه لن يتعرض للخطر، ولن تغلبه أسباب العداوة والصراع، وسوف تكون له ثمار طيبة مباركة في هذا العالم، أما الذي تهتف به المجتمعات الجاهليّة المعاصرة والهيآت الدولية والأنظمة، إنما هو سلام لا يتجاوز حدود اللسان، فهو خال من الجذر والعمق في حياة الناس، ولا يزيد على أن يكون شعارًا يرفع للتمويه والتضليل، ثبت فشله حين المواجهة.

---

(١)الكليني الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي،ج٢، ص٢٢٦.

أمّا الإسلام فبالإضافة إلى ما مرَّ، فإن له تصوّرًا آخر عن السلام على مستوى كل الشبكات الاجتماعية للعلاقات، فهو يقوم على خلفية في داخل النفس الإنسانية، وله فروع وثمرات وآثار واسعة في حياة الناس، وله امتداد واسع في كل العلاقات وخصوصًا شبكة الولاء -التي هي محل بحثنا- طولًا، وعرضًا، وعمقًا، إلا أن أخذه هذه المساحة يعتمد على إشاعة ثقافة الحبّ، وحسن الظن، والعدل، والتحلي بها، ولا قيمة للسلام دون وجود هذا العمق إطلاقًا، فما لا يقوم منه على هذه الأسس النفسية لا يستقيم ولا يدوم، ولا يتجاوز أن يكون حبرًا على ورق، شأنه شأن السلام الذي تدعو إليه دول الاستكبار في عصرنا الحاضر.

أما عن آثاره ونتائجه في هذه المنظومة العقَدية المرتبطة بحياة المؤمن فهي رهينة النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، والتعاون والتآخي، والعفو والتسامح، والتكافل والتضامن، والبرّ والتسديد، والتآزر والتعاضد، وغير ذلك من النقاط التي تكون صلات الإنسان وعلاقاته، فإذا تحولت هذه المفاهيم التي ينبغي أن تسود حياة المؤمنين إلى عدائية في التعامل، ومصالحية في ترتيب العلاقات، وتحول الأساس في الحياة من الثقة والاطمئنان في الركون إلى الآخر، إلى الشك وسوء الظن والتسقيط، فسوف تكون القاعدة العامة في التعايش بين الناس هو الريب والحذر وانعدام الثقة في التعامل وتهميش الآخرين والتآمر عليهم، وستنسف حينئذ كل مواطن الأمان والسلام بينهم وسوف تتفتت العلاقات الاجتماعية وسيؤول حالهم إلى ما لا يحمد عقباه، حيث

تباغض الجماعات وزيادة الحقد والعداوات، وإشعال فتيل الصراعات ونشوب الخلافات، ولهذا لم يخلُ التراث الإسلامي من حبوة تخص هذا الأمر، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «شر الناس مَنْ لا يثق بأحد لسوء ظنه ولا يثق به أحد لسوء ظنه»[1]، وعنه عليه السلام: «لا إيمان مع سوء الظن»[2]، قالها سلام الله عليه حفاظًا على المجتمع المسلم من أن تصيبه مثل هذه المهالك التي تستلزم سيادة ثقافة التسقيط والتضعيف وبالتالي تمزيق الأمة - وإن كانت مثل هذه الثقافات انهزامية بطبعها، قصيرة الحبل والمد -، حيث تعكس الأزمة والانتكاسة النفسية التي يمر بها الشخص، واللادين الذي يحركه، فالذي يمارس هذه الرذيلة الأخلاقية، إنما يعبّر من خلال ممارسته عن انسلاخه من السماء والقيم الإنسانية؛ ولهذا اعتبر القرآن الكريم ما يقوم به إثمًا مبينًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[4]، ويشير الإمام الصادق عليه السلام إلى فداحة ثقافة تسقيط الإنسان المؤمن وشناعة هذا الفعل بحسب ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «مَنْ روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروته، ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله عزَّ وجلَّ من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»[5]، ولحفظ تلاحم بني الإسلام

(١) عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، غرر الحكم، الحكمة٥٧٤٨.
(٢) المصدر نفسه، الحكمة٥٥٧٥.
(٣) سورة النساء، الآية١١٢.
(٤) سورة الأحزاب، الآية٥٨.
(٥) العلامة الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٥٨.

يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعنَّ فيه أقاويل الرجال، أما إنه قد يرمي الرامي وتخطئ السهام ويحيل الكلام وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد»(١)، ومع هذا كله فإن بعض النتائج صائرة لا محالة ولا أعني من ذلك الفرض من الله والجبر، وإنما لتخلي المسلمين عن القيم التي أرساها الإسلام، وهذا ما بينه الإمام الصادق عليه السلام في أحد أحاديثه، حيث قال: «والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم، وما من يوم إلا والحصى تلد إيلادًا كما يلد هذا الخلق، والله لتتباغضون بعدي حتى يأكل بعضكم بعضًا»(٢)، وبخصوص هذا الشأن ورد فيما يتعلق بأحوال المؤمنين في عصر الفتنة - قبيل الظهور المبارك للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف- عن عميرة بنت نفيل، قالت: سمعت الحسين بن علي عليهما السلام يقول: «لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضًا.

فقلت له: ما في ذلك الزمان من خير؟

فقال الحسين عليه السلام: الخير كله في ذلك الزمان، يقوم قائمنا ويدفع ذلك كله»(٣).

وللتسقيط -فضلًا عن الإثم والمفاسد الشخصية التي تحيط

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج٩، ص٧٢.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٦، ص٢٨.
(٣) النعماني محمد بن إبراهيم، الغيبة، ج١، ص٢١١.

صاحبه- آثار اجتماعية، خصوصًا إذا ما تحول إلى ظاهرة، فهو يهدد تماسك المجتمع والسلم الاجتماعي ويمزق أوصال النسيج الواحد، ويثير الصراعات، فأكثر النزاعات والحروب أصلها كلمة جارحة قُصد من ورائها هدر كرامة فرد أو أمة.

الولاية عبادة ومعتقد

إن العقيدة بصورة عامة تستتبع برنامجًا متكاملًا يخط للإنسان المعتقد بها منهجًا في الحياة يتلاءم وطبيعة ذلك المعتقد وما يترتب عليه من أثر على مستوى العبادة والعمل، فالعقيدة بحسب الأصل مأخوذة من العقد والشد، فهي مجموعة من الأفكار والقيم التي يرتبط بها القلب ارتباطًا وثيقًا على مستوى التصديق والتدين، وعليه يكون موقعها القلب، وقد صرحت الروايات الشريفة بأن الإيمان الحقيقي هو ما يستقر في القلب لا ما يتلفظ به اللسان فقط، وفي الوقت نفسه لا بدَّ من عمل ينشأ جراء هذا الإيمان، فهي من مدركات العقل العملي - أي من الأمور التي يستدعي ويستتبع إدراكها عملًا؛ ولهذا دائمًا ما تحرك هذه المعلومات العالم بها نحو الإتيان بعمل يتناسب معها-، وقد ورد عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان»[١]، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل لا يكون مؤمنًا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء، ويكون لسانه مع

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص٦٨.

قلبه سواء، ولا يخالف قوله عمله، ويأمن جاره بوائقه»[(١)]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان والعمل أخوان شريكان في قرن، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه»[(٢)]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان»[(٣)]، وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «لو كان الإيمان كلامًا لم ينزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام»[(٤)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ملعون ملعون مَنْ قال: الإيمان قول بلا عمل»[(٥)]، وعنه عليه السلام: «لو أن العباد وصفوا الحق وعملوا به ولم تعقد قلوبهم على أنه الحق ما انتفعوا»[(٦)]، فالإيمان مرتبط بالطاعة للأولياء وهذا ما أشار إليه أولياء الحق وأئمة الصدق صلوات الله عليهم أجمعين، فعن أبي سلمة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلا معرفتنا ولا يعذر الناس بجهالتنا، مَنْ عرفنا كان مؤمنًا، ومَنْ أنكرنا كان كافرًا، ومَنْ لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالًا حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة فإن يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء»[(٧)]، وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاث هن فخر المؤمن وزينة في الدنيا والآخرة، الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولايته الإمام من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[(٨)]، وورد عن موسى

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص٥٩.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٧) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٨٧.
(٨) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٣٨٣.

بن عقبة أنه قال: لقد قيل لمعاوية: إن الناس قد رموا أبصارهم إلى الحسين عليه السلام، فلو قد أمرته يصعد المنبر ويخطب فإن فيه حصرًا أو في لسانه كلالة.

فقال لهم معاوية: قد ظننا ذلك بالحسن، فلم يزل حتى عظم في أعين الناس وفضحنا، فلم يزالوا به حتى قال للحسين: يا أبا عبد الله لو صعدت المنبر فخطبت.

فصعد الحسين عليه السلام على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسمع رجلًا يقول:

من هذا الذي يخطب؟

فقال الحسين عليه السلام: نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأقربون، وأهل بيته الطيبون، واحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا يبطينا تأويله، بل نتبع حقايقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنه لكم عدو مبين فتكونوا كأوليائه الذين قال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس

وأني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم فتلقون للسيوف ضربًا وللرماح وردًا وللعمد حطمًا وللسهام غرضًا ثم لا يقبل من نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا قال معاوية: حسبك يا أبا عبد الله قد بلغت»(١).

لقد اتضح مما تقدم وما سيأتي إن شاء الله تعالى أن الولاية عبارة عن عقيدة تستلزم فروضًا عبادية منها الواجبات ومنها المستحبات، كموالاتهم وموالاة أوليائهم والبراءة من أعدائهم، والالتزام بتعاليمهم وتوصياتهم والسير على نهجهم وخطاهم، والدعوة إليهم والدفاع عن مذهبهم وزيارة مراقدهم صلوات الله عليهم، والمشاركة في مراسيم الطقوس المتعددة كالاحتفاء بالمناسبات المرتبطة بهم والاحتفال بذكرى ولاداتهم بإظهار مظاهر الفرح والسرور وإحياء المجالس التي تقام بذكرى وفياتهم واستذكار المصائب التي مرت عليهم والمشاركة فيها ولبس السواد وإظهار الحزن والأسى، وأمثال ذلك.

ومنها المحرمات والمكروهات، كموالاة أعدائهم والناصبين لهم الحرب ومخالفة نهجهم صلوات الله عليهم ومعاداة أوليائهم وبغض محبيهم ومحبة مبغضيهم وإظهار الفرح أيام حزنهم ومصائبهم، والتزويج من مخالفيهم، وأمثال ذلك.

ومن الجدير بالذكر الوقوف على معنى العبادة التي قالوا عنها أنها تعني الطاعة، ولا يتوهمن أحد أن ذلك منحصر فيما يرد عن الله

(١) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٢٣.

سبحانه فقط، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١]، وقال تعالى في وصفه للمشركين: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[٢]، وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام ما يدل على توسعة لهذا المعنى، فعن الإمام الجواد عليه السلام، أنه قال: «مَنْ أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عزَّ وجلَّ فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[٣]، إذن هناك عبادة مباشرة لله تتحقق من خلال الاستماع إليه مباشرة بالاستماع إلى آيات كتابه، وأخرى تتحقق بصورة غير مباشرة عن طريق الالتزام بكل قول ينقل عن أي ولي يوصل إليه سبحانه ويؤدي إلى طاعته، وهنا يظهر مكمن آخر من مكامن الخطورة في المسائل العبادية، فيتبين أن المقصود من الاتباع والتولي بحسب الوارد في الرواية أعلاه أنه عبادة للناطق إلا إذا كان وليًا لله يدعو إليه سبحانه فإنها حينئذٍ ستكون عبادة لله، وبالتالي سيكون الانسياق خلف أعداء الدين والجهات المشبوهة التي من شأنها النيل من الدين وتسفيه نهجه وأحكامه وإطاعتهم عبادة للشيطان، ومَنْ كان عبدًا للشيطان سيخرج من ربقة الدين وسيبارز الرحمن بالعداوة.

---

(١) سورة يس، الآية ٦٠.

(٢) سورة يوسف، الآية ٤٠.

(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٦، ص٤٣٤.

الولاية المتبادلة

خلق الله سبحانه الإنسان وجعل الفقر والحاجة من لوازمه التي لا تنفك عنه، فكل مخلوق مفتقر إلى غيره، والكل مفتقر إليه سبحانه فوحده جلَّ وعلا هو الغني الذي لا يحتاج إلى غيره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]، ومما ينبغي الالتفات إليه أن من النعم العظيمة التي رزقها الله أولياءه أن نسبهم إليه وكان سبحانه أمنهم وحصنهم، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، وهو المدبر لأمرهم، فتدبيره شؤونهم لا ذل فيها ولا إذلال، ولا إهانة فيها ولا هوان، فهو المعطي بلا منة، والرازق بلا سؤال، والسامع بلا ضجر، والوهاب بلا ملل، فمَنْ تولاه لم يرَ هضمًا ولا ظلمًا، ومن أهم آثار هذه الولاية وأطيب ثمارها أنه سبحانه أخرج أولياءه من الظلمات إلى النور، فأعطاهم أسماعًا وأبصارًا وعقولًا تدرك الحق من الباطل وتميز الهدى من الضلال، فهم يسمعون آيات الله تعالى وبراهينه ويتأثرون بها وينقادون إليها، ويرون عجيب خلقه وتدبيره سبحانه فلا يعبدون غيره ولا يتولون سواه، ويهبهم عزَّ وجلَّ توفيقًا يقودهم إلى الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾[3]، ويعصمهم من أن يكونوا مرتعًا للشيطان، ومن أن يتيهوا في غائلة ظلمات الفتن، وشبهات

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٢) سورة يونس، الآية ٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

المبلسين، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه المعروف بدعاء كميل: «هيهات أنت أكرم من أن تضيع مَنْ ربيته»[١]، ويحفظ لهم ماء وجوههم من اللجوء إلى غيره فيذلهم، وجعل ولايته لعباد كانوا وجهه ومظهر صفاته وصفوة خلقه، كما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «نحن وجه الله ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده»[٢]، وأمر بالركون إليهم واللوذ بحصنهم والهدي بهداياتهم والانصياع لأمرهم والخضوع لهم وفي ذلك تمام العزِّ والشرف، وهدى الناس إليهم، وعدَّ سبحانه مَنْ حاد عنهم ضالًا، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[٤].

ومع هذا كله يبقى الإنسان مختارًا في اختيار مَنْ يتولاهم، فقد يقدم الكافرين ويتخذهم أولياء على المؤمنين وقد يستأنس بالظالمين، وقد يختار مَنْ هم أهل للتولي، وعلى كلٍ تترتب أشياء، ولكلٍ أثره في الدارين، لكن على كل حال سيبقى هنالك ثمن يدفعه الإنسان حينما يختار أولياءه، فالأمر ليس مجرد انتماء، بل كماله - إيجابًا أو سلبًا - بالانقياد والاتباع، وتبادل بالتكاليف والواجبات وفرض الحقوق بين الطرفين (المتولي والمتولى)، وبين الأتباع أنفسهم (الموالين فيما بينهم)،

(١)الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، ص٨٩.
(٢)الشيخ الكليني، أصول الكافي، ص٨٣.
(٣)سورة الكهف، الآية١٧.
(٤)سورة الأنعام، الآية١٥٣.

عن عبد الأعلى قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إن شيعتك قد تباغضوا وشنئ بعضهم بعضًا فلو نظرت جعلت فداك في أمرهم فقال: لقد هممت أن أكتب كتابًا لا يختلف عليَّ منهم اثنان، قال: فقلت: ما كنا قط أحوج إلى ذلك منا اليوم، قال: ثم قال: أنّىٰ هذا ومروان وابن ذر؟![1] قال: فظننت أنه قد منعني ذلك، قال: فقمت من عنده فدخلت على إسماعيل فقلت: يا أبا محمد إني ذكرت لأبيك اختلاف شيعته وتباغضهم فقال: لقد هممت أن أكتب كتابًا لا يختلف علي منهم اثنان، قال: فقال: ما قال مروان وابن ذر!، قلت: بلى قال: يا عبد الأعلى إن لكم علينا لحقًا كحقنا عليكم والله ما أنتم إلينا بحقوقنا أسرع منا إليكم، ثم قال: سأنظر، ثم قال: يا عبد الأعلى ما على قوم إذا كان أمرهم أمرًا واحدًا متوجهين إلى رجل واحد يأخذون عنه ألا يختلفوا

---

(١) انظر: الكافي، ج٨، في حاشية ص٢٢٣، حيث قال في تفسيرها أي: لا ينفع هذا في رفع منازعة مروان والمراد به أحد أصحابه (عليه السلام) وابن ذر رجل آخر من أصحابه ولعله كان بينهما منازعة شديدة لتفاوت درجتهما واختلاف فهمهما فأفاد (عليه السلام) أن الكتاب لا يرفع النزاع الذي منشؤه سوء الفهم واختلاف مراتب الفضل. ويحتمل أن يكون المراد بابن ذر عمر بن ذر القاضي العامي، وقد روي أنه دخل على الصادق (عليه السلام) وناظره فالمراد أن هذا لا يرفع النزاع بين الأصحاب والمخالفين بل يصير النزاع بذلك أشد ويصير سببًا لتضرر الشيعة بذلك كما ورد في كثير من الأخبار ذلك لبيان سبب اختلاف الأخبار فظن عبد الأعلى عند سماع هذا الكلام أنه (عليه السلام) لا يجيبه إلى كتابة هذا الكتاب فآيس وقام ودخل على إسماعيل ابنه عليه السلام وذكر ما جرى بينه وبينه عليه السلام.

ولعل المراد هو ذكر ما جرى بين مروان وابن ذر من المخاصمة فصدقه الراوي على ذلك قال: بلى جرى ذلك بينهم وهذا يحتمل أن يكون في وقت آخر أتاه عليه السلام أو في هذا الوقت الذي كان يتكلم إسماعيل سمع كلامه (عليه السلام) فأجابه. ويحتمل أن يكون فاعل «فقال «إسماعيل أي قال عبد الأعلى: قال إسماعيل عندما ذكرت بعض كلام أبيه عليه السلام مبادرًا: ما قال أبي في جوابك قصة مروان وابن ذر قال عبد الأعلى: بلى قال أبوك ذلك فيكون إلى آخر الخبر كلام إسماعيل حيث كان سمع من أبيه (عليه السلام) علة ذلك فأفاده وهذا أظهر لفظًا والأول معنى.

عليه ويسندوا أمرهم إليه، يا عبد الأعلى إنه ليس ينبغي للمؤمن وقد سبقه أخوه إلى درجة من درجات الجنة أن يجذبه عن مكانه الذي هو به ولا ينبغي لهذا الآخر الذي لم يبلغ أن يدفع في صدر الذي لم يلحق به ولكن يستلحق إليه ويستغفر الله»[١]، فالأمر ليس جزافًا، والمسألة ليست مجرد ادعاء، فالحقوق متبادلة بين المولى ومواليه، ولولا ذاك لما كانت ولاية وموالاة، ولما فرق بينهم وبين غيرهم في شيء.

إن المعصومين عليهم السلام هم أهل الوفاء والشرف، والوفي لا يترك مَنْ وافاه حقه وإن لم يكن يستحقه فكل يعمل بأصله، والشريف عاهد نفسه وإن لم يناجها بأنه يعطي كل ذي حق حقه وإن كان عدوه، فضلًا عن وليه، وبهذا لا يتصور أن يتركوا صلوات الله عليهم أجمعين مواليهم على أي حال.

ولاية المؤمنين

لقد بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز أن الولاية متبادلة بين المؤمنين أنفسهم، قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، وعليه نفهم أن المراد بكون المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض: أن بعضهم محب لبعض وناصر ومؤازر له؛ ذلك لوحدة الغاية والسلوك

(١) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، ج٨، ص٢٢٣.
(٢) سورة التوبة، الآية ٧١.

لمن يتفق مسيرهم باتجاه طريق الخير والسلام، كما وأن وحدة الهدف مما تستوجب أن لا يكون لهم ولاء لكافر فيما يتناقض مع أصول معتقدهم الآخذ بهم نحو الصلاح والأنوار، ولقد اهتم الإسلام منذ أوائل أيامه على إيجاد مثل هذه الروح بين أتباعه، وقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في تطبيق هذه المفاهيم وتحقيق هذه المُثل الدينية الاجتماعية العليا، كما نقل التاريخ عنهم حيث قاسموا المهاجرين بيوتهم وأموالهم، فكانوا بحق مصاديق للمؤمن المؤازر لأخيه، وذلك بعد أن أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤاخاة بين المسلمين قائلًا: «تآخوا في الله أخوين أخوين» فأرسى -وعَبر هذه الأخوة- أساسًا لبناء الأمة المتراصة التي ظلت على متانتها ردحًا من الزمن، وأقام على تلك القاعدة أعظم بناء لأمة لم يعرف لها التاريخ مثيلًا في وحدتها وتلاحمها وتفانيها.

فقد زرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤاخاة عنصر البقاء في الأمة وأزال بهذه الأخوة ما تبقى في النفوس من أنانية وحب للذات، فأصبح المسلم لا يرى فرقًا بينه وبين أخيه المسلم وإن لأخيه المسلم سهمًا في ملكه وأمواله، وهذه هي أعلى ذروة يبلغها المجتمع في تلاحمه وتقارب أبنائه، حيث لم يعرف التاريخ مجتمعًا بلغت فيه الأواصر بتلك القوة التي بلغها المجتمع الإسلامي وهو في مرحلة التكوين.

فكان الأنصار يتسابقون على تقسيم أموالهم على المهاجرين وعندما يتكاثرون على مسلم مهاجر يريدون إبرام عقد الأخوة معه كانوا يضطرون لاستخدام القرعة، وكان يقدم الأنصاري له نصف أمواله، وقد بلغ التفاني بأحد الأنصار وهو سعد بن الربيع أنه قال

لأخيه المهاجر وهو عبد الرحمن بن عوف أني أكثر الأنصار مالًا فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها[١].

إن التاريخ البشري لم يعهد مثل هذا النمط من التفاني، وهذا اللون من الإخلاص في الأخوة وسط محيط جاهلي كمحيط القبائل العربية، هذا مع أن بعض الصفات الجيدة لهذه القبائل قد توارت عندما انتقلت من البداوة إلى الحضر، وعندما أخذت تشتغل بالأنشطة الاقتصادية المختلفة، حتى نمت عندها النزعة الفردية وطغت الأنانيات لتحل محل الصفات الخيرة؛ ولهذا لم يكن أمر إعادة الإنسان العربي إلى فطرته بالأمر الهين؛ إذ كانت تقتضي هذه العملية إزالة تراكمات ما كدسته النزعة القبلية التي تزاوجت مع المدنية المادية لعقود كثيرة أصبحت فيها هذه التراكمات عائقًا عن تحول الإنسان وبالتالي حالت دون بلوغه مستوى الفاعلية وألغت دوره النافع في المجتمع وتأثرت العلاقات الاجتماعية بهذه الحالة السلبية، وأخذت القيم المادية تغزو هذه العلاقات فكان لا بدَّ من إعادة صياغة المجتمع على أساس جديد حتى تغدو العلاقات على نمط آخر، غير النمط الذي تعارف عليه المجتمع آنذاك، فكان إعلان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للتآخي هو السبيل القويم إلى بلوغ الهدف المنشود؛ ولهذا حاول القرآن الكريم ترسيخ هذه العلاقات والحفاظ عليها من خلال آية الولاية التي أعطت هذا الدور المتبادل بين المؤمنين.

---

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣٧٩.

وأصبح لهذا الدور أبعادًا، غير الأبعاد التي سيتم التعرض إليها لاحقًا إن شاء الله تعالى، منها:

أولًا: البُعد السياسي: أن ولاية أولياء الله سبحانه تمثل بالإضافة إلى المهام والوظائف المتقدمة نظامًا سياسيًا متكاملًا، فمن ممارسات الولي توليه السلطة التنفيذية التي تطبق أحكام السماء، وبحسب الفرض الطولي لوجوب إطاعته المستمدة من وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ستتضاعف قوة هذا المصدر المكمل لهذا النظام، فمن جهة تعتبر الأحكام التي يطلقها الإمام عليه السلام واقعية لا تقبل الشك والخطأ، ومن جهة أخرى تعتبر تكاليف إلهية بوجوب إطاعة الأمة له، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(١)؛ وعليه ستكون الدولة التي يحكمها مَنْ تجب موالاته متينة قوية، لا تقهر بالهين، وسوف تصبح أنظمتها ضابطة لإيقاع سير شؤون العباد فيها بكل اتزان وثبات؛ لأن المواطن فيها يختلف عن غيره في كونه أعطى البيعة لأوليائه عن رضا وقناعة واعتقاد، وهذا ما يميزها عن غيرها، فالدول التي تمارس الشعوب فيها الديمقراطية بحذافيرها قد تنتخب الحاكم لمصالح دنيوية أو جهوية، ومع خلوها من ذلك كله سوف تظل مفتقدة للاعتقاد في الانتخاب بخلاف الدولة الولائية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

﴿أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]، فإيمان الأمة الموالية مرهون بالتحاكم إلى الولي الحاكم، وقبول ما يصدر عنه بطيب نفس وعدم الاعتراض على أحكامه وإن كانت على خلاف هوى الشخص، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢]، وكذلك هي مأمورة بالرجوع إليه، منهية عن التخلف عنه، وعن اللجوء إلى غيره، قال الله تبارك اسمه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٣]، ومن هنا نفهم سرًا من الأسرار التي أذاعها القرآن الكريم في الإفصاح عن سبب رئيس من أسباب قوة دولة الولاية.

وبذلك يتبين أن من تداعيات النظر إلى الولاية وأهميتها سياسيًا لا يقتصر على سبب معين، بل قد تكون له أسباب عديدة منها القرآنية وهي التي مرَّ ذكرها، ومنها ما هي وجدانية استقرائية لا يختلف عليها اثنان، فقد ثبت أن لا تقدم لأي دولة إلا على أساس وحدة فصائل شعبها، ولكي يحصل ذلك لا بدَّ من إذابة الفروقات، والوقوف على المشتركات والجوامع التي تلم شتات الأمة، الأمر الذي تحققه الولاية بكل شفافية من دون حاجة إلى تدخل الجهات الحكومية أو غيرها لإنجاح نظام هذه الدولة، فالجامع المشترك بين الأفراد عقائدي يصدر عن قناعة مطلقة، كفيل بإصابة هذا الهدف المنشود من دون جهد

(١) سورة الفتح، الآية ١٠.
(٢) سورة النساء، الآية ٦٥.
(٣) سورة النساء، الآية ٨٣.

وعناء؛ فإذا كان المجتمع نسيجًا متكاملًا وأمة واحدة سوف يسهل حينئذٍ على السلطات تنفيذ برامجها وتطبيق خططها لبناء حضارتها وسيرها نحو الأمام.

ثانيًا: البُعد الاجتماعي: لقد أكد الإسلام من خلال خطاباته على نحوين من الأحكام، فمنها ما هي أحكام شخصية غايتها بناء شخصية المسلم وتمتين علاقاته مع ربه جلَّ وعلا، أما النحو الثاني منها فهي أحكام اجتماعية ركَّز فيها على ما يقوي الأواصر بجميع أنواعها بين أفراد المجتمع بصورة عامة، والمسلم منه على وجه الخصوص، عبادية كانت هذه الأحكام، كتشريعه لصلاة الجماعة -اليومية وغيرها-، وحثَّ عليها وميزها عن صلاة الفرادى بكثير من الثنايا والعطايا، حيث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعثمان بن مظعون: «مَنْ صلى الفجر في جماعة، ثم جلس يذكر الله عزَّ وجلَّ حتى تطلع الشمس، كان في الفردوس سبعون درجة، ما بين درجتين كحضر الفرس الجواد المضمر سبعون سنة[١]، ومَنْ صلى الظهر في جماعة كان له في جنات عدن خمسون درجة، بعد ما بين درجتين كحضر الفرس خمسين سنة، ومَنْ صلى العصر في جماعة كان له كأجر ثمانية من ولد إسماعيل كل منهم رب بيت يعتقهم، ومَنْ صلى المغرب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة، ومَنْ صلى العشاء الآخرة في جماعة كان له كقيام ليلة القدر»[٢]، أو أحكام معاملية، كتشريعه فريضة الأمر بالمعروف والنهي

(١) الفرس النجيب الخفيف السريع الذي هيأ نفسه للصول على العدو.
(٢) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص١٢٤.

عن المنكر التي تعتبر من التشريعات المهمة في هذا الدين الحنيف؛ حيث تمثل إحدى موارد الاستعداد المجتمعي المؤدي إلى هداية المجتمع المسلم وصلاحه، وقد اهتم اهتمامًا بالغًا بحسن التعامل مع الآخرين، فأثنى على الحليم الوقور، وذم المتعسف العجول، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده، ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم»[(١)].

إن المجتمع الذي يتآكل بسبب الفرقة والحقد والكراهية يكون مجتمعًا ضعيفًا مؤهلًا للضياع، وعرضة للتفكك والانحلال، بينما المجتمع المتحد المبني على أساس المشتركات التي تجمعه، وخصوصًا الذي بنيت العلاقات بين أفراده نتيجة دعوات دينية وتوجيهات عقائدية سيكون مبنيًا على قاعدة الحب المتقابل، والود الذي يترجم هذه المحبة سلوكًا عمليًا ظاهريًا يطفو على الحياة بكل نقاوة وصفاء، وحينئذ ستتفطر الفضيلة من كل جوانحه وجوانبه، وستسوده المحبة وستأخذ علاقاته شكلًا آخر فيعمه الخير ويقومه التعاون، وسيبذل فيه كل فرد ما يسعه فعله من أجل الآخرين، وهذه الخاصية هي ما تحققها الولاية بشكل جلي في أتباعها.

ثالثًا: البُعد الاقتصادي: يعتبر الاقتصاد من أبرز دعائم القوة التي يتمتع بها الفرد والمجتمع والدولة، ويؤكد ذلك التجارب التي عاشها الإنسان على مدى الحياة، فالفقر بحد ذاته حاجة وضعف أينما حلَّ ونزل، والغنى عدم حاجة وقوة ومصدر من مصادر الثقة بالنفس.

---

(١) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج١، ص٦٨٩.

لقد امتاز الاقتصاد الإسلامي بعدة مميزات، منها أنه واقعي، سمح، مؤهل لبناء حياة اقتصادية متكاملة من خلال متبنياته النظرية ورؤيته العملية في معالجة المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع، وتجنب الأسباب التي يمكنها أن تعرض عليه في قريب عاجل، أو بعيد آجل، وقد قيد الإسلام الفكر الاقتصادي للمسلمين بشروط وأطره بحدود معينة، متوازنة تسمح للفرد بممارسة نشاطاته في العمل وبناء اقتصاد شخصي محترم، على أن تكون خالية من التعدي على حقوق الآخرين أو استغلالهم للظروف التي يعيشها الناس في ظل أي طارئ يواجه الأمة؛ ولهذا حرم الربا، قال تعالى: ﴿أَحَلَّ الله الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[١]، واعتبر الاحتكار أشد ظلماً وإثماً من السرقة، مبينًا خسة المحتكر كاشفًا عن أنانيته، ودناءة نفسه، وانعدام مروءته، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولأن يلقى الله العبد سارقًا أحب إلي من أن يلقاه قد احتكر طعامًا أربعين يومًا»[٢]، ولم يسمح بالغش بجميع أشكاله، والحق أن للإسلام الصدارة من بين الأديان والأنظمة الحاكمة في التحذير منه، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ۝الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ۝وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ۝أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ۝لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، فضلاً عن معالجته لمشكلة الفقر عن طريق فرض الزكاة على الأغنياء، وحث المسلم على التصدق، وترغيبه بالتوسعة على المقتر، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.
(٢) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٥٩.
(٣) سورة المطففين، الآيات ١-٥.

﴿الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، وقد حذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطوات تكشف عن حنكته وقدراته بهذا الجانب، فعالج مشكلة الفقر التي كان يعاني منها معظم المسلمين الأوائل، وخصوصًا بعد مصادرة أموالهم من قبل كفار قريش وتهجيرهم من مكة من خلال المؤاخاة وتوحيد الصف، فدمجه صلى الله عليه وآله وسلم المهاجرين والأنصار لا يقتصر على إخراج المهاجر من قاع الفقر المادي الذي كان يعاني منه فحسب، بل يعني صناعة قوة اقتصادية منتجة من خلال تبادل الخبرات، استطاع عن طريقها وضع حجر الأساس لثورة اقتصادية كبرى دلت على عظمة الفكر الرسالي وقدرته على بناء دولة فعالة مقتدرة اقتصاديًا، وبذلك أرسى القاعدة الأساسية للاقتصاد الإسلامي القائمة على التعاون، وتلاقح الأفكار في إدارة المشاريع، والتكافل والتفاعل بين العناصر المشتركة؛ ليتسامى الوضع الاقتصادي للبلد، وإنما يظهر ذلك ويتجلى أكثر كلما زادت العلقة بين الأفراد وكثرت روابط الاشتراك، ومما لا يخفى عدم وجود مبدأ عقائدي أكثر من الولاية تحقيقًا للألفة وبالتالي لهذا الهدف، لا يمكن تصوره في غيرها بالحالة التي هي عليها عند الموالين؛ ولهذا يضاف للولاية هذا البُعد نظرًا لتجليه فيها ومدى أهميته.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦٠.

رابعًا: البُعد الحركي: إن الحياة الأوسع والأعمق، بل الحياة الحقيقية لا يمكن لعالم الدنيا احتواءها، فهي حياة تتنزه عن الخوض في سفاسف الأشياء، والأمور المادية، غليظة الطبع؛ إذ ترفعت عن ترهات عالم المادة والماديات وتعلقت بالمعاني الروحية والأشياء المعنوية.

إن الجهاد بكل أشكاله، أصغر كان أم أكبر يمثل دواءً لا بديل له لاستعادة المسلم عافيته الإيمانية وصحّته النفسية والعقلية، وإنقاذه من السقوط في أحضان تفاهات الحياة والعبثية، والذل والهوان، وهو من الثقافات التي ركز عليها الإسلام؛ لأنه يعني الانتصار على الذات وعلى كل مؤثر لا يريد للإنسان النجاة والحياة الكريمة، وهو السبيل الذي يحافظ به المؤمن على لباس العزّ الذي ألبسه الله تعالى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فلا يمكن للنفس الإنسانية أن تكون مؤهلة ومستعدة لتلقّي الإمدادات الإلهية والقدرات الربانية إلا من خلاله، فيمتلك من هذه القوى ما يرشحه لكي يكون عقل العالم إذا جُنَّ، وميزانه إذا اختلَّ، واعتداله إذا اشتطَّ، وإيمانه إذا كفر، وحلمه إذا جهل، وعدله إذا ظلم، ودواءه إذا مرض... وإن كل قطرة دم تهرق ظلمًا وعدوانًا في أي مكان من العالم تستصرخه وتشكو إليه، لأنه هو خليفة الله في أرضه، ورحمته على عباده.. وبذلك يغدو الجهاد مركز نواة العالم في إحقاق الحقّ وإقامة العدل ونشر الخير وكل ما ينفع العباد في الأرض، هذا على مستوى الفرد، أما على مستوى الجماعة فإن الحراك العسكري يحظى بأهمية بالغة عند مُقيمي

---

(١) سورة المنافقون، الآية ٨.

أداء الشعوب، والمتابعين لنشاطاتهم وطلبهم للحرية من جهة مدى شجاعتهم واستعدادهم في الذب عن حرمهم والدفاع عن هويتهم الدينية والعقائدية والوطنية.

إن روح المؤمن الجهادية قد يصيبها تعب وضعف وتخاذل ونصب، ومن هنا جاء الحث على شد المؤمنين بعضهم لبعض، وهو أحد معاني ولاية المؤمن لأخيه المؤمن، التي تعني تشييد جسور تنظيمية على أسس قويمة، واندماج أرواحهم والذي منه اندماج وانصهار روح المقاومة التي يحملها المؤمن مع روح أخيه التي يمكن أن تكون متخاذلة بطبيعتها؛ لتصنع منه مؤمنًا شجاعًا مجاهدًا وهذا أحد حِكم فرض التولي، فإن هذا الاندماج سيرسي أرضية جديدة تجعل من المجتمع الإيماني مجتمعًا قويًا قادرًا على الصمود أمام العقبات، لا تهزه الرياح، ولا يعصف به العدو بسهولة مهما كانت قوته المادية، وهذا معنى البنيان المرصوص الذي يميز علاقة المؤمنين بعضهم ببعض عن غيرهم.

ولاية الكافرين

بعد أن عرفنا معنى التولي والموالاة لا ينبغي لمؤمن أن يتخذ غير المؤمنين أولياء فضلًا عن الكافرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا

(١) سورة النساء، الآية ١٤٤.

عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٣)]، ثم عمم في آية أخرى ووسع سبحانه الدائرة لتصل إلى التحذير من الكافرين وإن كانوا من الأرحام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٤)]، قال في المجمع: الاتخاذ هو الاعتماد على الشيء لإعداده لأمر، والأخذ يكون على وجوه تقول: أخذ الكتاب إذا تناوله، وأخذ القربان إذا تقبله، وأخذه الله من مأمنه إذا أهلكه، وأصله جواز الشيء من جهة إلى جهة من الجهات.

إن الله سبحانه في الآية المباركة لم يقيد في قوله: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء﴾ الولاية بشيء من الخصوصيات والقيود، بل هي مطلقة من هذه الجهة، غير أن قوله تعالى في الآية التالية: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية ١.
(٢) سورة المائدة، الآية ٥١.
(٣) سورة المائدة، الآية ٥٧.
(٤) سورة التوبة، الآية ٢٣.

﴿فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[١]، يدل على أن المراد بالولاية نوع من القرب والاتصال يناسب هذا الذي اعتذروا به بقولهم: ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أي كمثل هذا الذي يتحجج به البعض هذه الأيام لإرادة التطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب، أو التحالف مع قوات محتلة لأراض مقدسة، أو يضع يده بيد جهات معروفة بعدائها للإسلام وللمؤمنين، وعلى كل حال تبقى هذه الولاية ممنوعة ومحرمة لما لها من تبعات ونتائج منها:

١- أن المكائد للموالي لإخراجه من الإيمان وإدخاله في الكفر؛ ولهذا حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من أن يسلكوا مثل هذا السلوك، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[٣]، فإنهم لا يتركون مؤمنًا إلا ويحيطونه بالكفر وإن لم يقصد الكفر؛ لأن مَنْ لم يدن بدين الله ولم يتخذ الله وليًا يكن الشيطان وليه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٤]؛ ولهذا لا تجد في حياتهم شعاع نور قط، ولا تراهم مهتدين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة، الآية٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية٨٩.

(٣) سورة البقرة، الآية١٠٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية٢٧.

كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]، وقد أشار تبارك اسمه في موضع آخر بأن مسلك الظلمات يوالي أتباعه بعضهم مع بعض، قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٢]، فالاختلاف في المبادئ بين المؤمنين والكافرين لا يدع مجالًا فيما بين الطائفتين لوحدة في أي من أبعاد الفكر والعمل، وكأنه ليس هناك أي من الجوامع المشتركة بينهما إلا في أصول الإنسانية، لكن ليس معنى ذلك هو الدعوة ليصبح المؤمن حاقدًا على الآخرين؛ لأن الإيمان عطف ورحمة وسلام وحب للخير، لكن الكلام هاهنا عن اختلاف المسلكين ودواعيهما في بلوغ الغايات، وقد أكدَّ الإمام السجاد عليه السلام في رسالته المسماة برسالة الحقوق منهج الدين الحنيف في التعامل مع الآخرين، حيث جعل حقوقًا خاصة وعامة لخص من خلالها قيم رسالات السماء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٢- أن من شرور موالاة أعداء الله أن الموالي لهم لا تجمع موالاته مع موالاته لأولياء الحق وإن ادعى ذلك، ورد عن ابن فضال، عن الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ والى أعداء الله فقد عادى أولياء الله، ومَنْ عادى أولياء الله فقد عادى الله وحق على الله أن يدخله في نار جهنم»[٣]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أشبع عدوًا لنا فقد قتل وليًا

(١)سورة البقرة، الآية٢٥٧.
(٢)سورة الأنفال، الآية٧٣.
(٣)الشيخ الصدوق، صفات الشيعة، الحديث رقم١١.

لنا»[١]، وبذلك تكون المسألة أخطر مما يبدو، فقد يذهب البعض إلى الاستخفاف بهذا الموضوع، إلا أنه وكما ترى ليس بالأمر الهين، فآخر حدوده دخول جهنم والعياذ بالله، وقد لا يفهم من هذا الحديث وغيره أن آثار ذلك تشمل المخالف حصرًا وإن كان من أوضح مصاديق ذلك، بل الخطاب موجه أيضًا إلى الموالين الذين اختلط عليهم الأمر فصاروا يعلنون العداء لبعض أخوتهم في الولاية ويركنون إلى أعدائهم بحجج أُلقموها من أعداء الدين والمذهب، وهؤلاء أشد خطرًا على المذهب من معلن العداء، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «إن ممَنْ يتخذ مودتنا أهل البيت لَمَنْ هو أشد فتنة على شيعتنا من الدجال، فقلت: يا بن رسول الله بماذا؟

قال: بموالاة أعدائنا ومعاداة أوليائنا، إنه إذا كان كذلك اختلط الحق بالباطل واشتبه الأمر، فلم يعرف مؤمن من منافق»[٢]، والأمر الجدير بالذكر أيضًا أن أمثال هؤلاء يكون الوبال عليهم مضاعفًا لأنهم يخالفون وصايا أئمتهم عليهم السلام التي لم يتركوا سلام الله عليهم شاردة ولا واردة إلا وأشاروا إليها بقول أو فعل؛ لتحصين أتباعهم وتوجيههم ووضع أقدامهم على الطريق القويم، إلا أن الجهل أخذ منهم مأخذه، وفتن الأهواء أحاطت بهم، والأحقاد أعمت أبصارهم وبصائرهم، فركنوا إلى أعدائهم ووهبوا لهم أسماعهم، فسمموا أفكارهم وتخرجوا من ميادينهم بهذه النتيجة الشنيعة، وخالفوا بذلك ما ورد عن أوليائهم

(١) المصدر نفسه، الحديث رقم ١٧.
(٢) المصدر نفسه، الحديث رقم ١٤.

عليهم السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كن من عدوك على أشد الحذر»[١]، ولقد حصن الله تعالى المؤمنين المتبعين لنهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن يكون للكافرين عليهم سبيلًا، وحاول جلَّ وعلا أن يطمئنهم، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٢]، من حيث العقيدة والبرهان، فقد أرشدهم إلى كل ما يعينهم لإقامة الحق.

٣- أن موالاتهم تعني موالاة أهل النار؛ باعتبار أن نصيبهم في الآخرة جهنم خالدين فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣]؛ لأنهم حادوا الله وأولياءه في الدنيا، ولم يكن لهم هم في الدنيا إلا الاستمتاع بملذات هذه الحياة ولا هدف لهم سوى ذلك؛ لأن قلوبهم تعلقت بالمادة والماديات، همهم بطونهم وفروجهم فهم بذلك لا يقودون مَنْ تولاهم إلا لسوء السبيل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[٤].

٤- إن موالاة الكافرين وأمثالهم تكشف عن تقصير المكلف بأداء أحد الواجبات المهمة التي فرضها الله على عباده، وهو وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن أقل مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي أن لا تجامل أهل المعاصي وأن لا تلاقيهم بوجه بشر طلق، فضلًا عن الكافرين حيث ثبوت ذلك لهم من باب الأولى حسب

(١) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٧٢.
(٢) سورة النساء، الآية١٤١.
(٣) سورة آل عمران، الآية١١٦.
(٤) سورة محمد، الآية١٢.

ما يقتضيه قياس الأولوية، ولقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[١]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تقربوا إلى الله تعالى ببغض أهل المعاصي، والقوهم بوجوه مكفهرة، والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير قوله تعالى: «﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾، أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم، ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم»[٣].

وغير ذلك من التبعات واللوازم والآثار السلبية التي تترتب على موالاة أهل الكفر.

ولاية الظالمين

إن الإسلام يرى أن المحيط السالم الذي يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلك المحيط الذي يوفر للإنسان الحرية والعيش الآمن، ويضمن له العمل بما يعتقد دون مانع؛ ولهذا أكدت المنظومة الحقوقية السياسية الإسلامية على أن يكون راعي الأمة رجل نصبته السماء أو مَنْ أذن له كنوابه أو مَنْ يجيزون له عمله، ولقد دأبت على رفض قيادة الظالمين وإعانتهم وتوليهم؛ لأن في الأخيرين إقرارًا لهم وتثبيتًا لطغيانهم

(١) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، ج٥، ص٥٩.
(٢) المتقي الهندي علي بن سلطان، كنز العمال، ٥٥٨٥.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١١، ص٤١٣.

ومعونة على تسليطهم على رقاب المسلمين، وفي ذلك إبعاد لإقامة الحق وحكومة دين الله سبحانه ونسخ لشرعه وطمس لقوانينه وأحكامه، وبذاك سيباد العدل ويسود الظلم؛ ولهذا حذرَّ الله عزَّ وجلَّ عباده من الركون إلى الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾(١).

ثم لا يتبادر إلى الأذهان أن الظلم هو ما يشمل الاعتداء على الآخرين خاصة، بل يتعدى معناه ذلك بكثير، فقد ذكر السيد دستغيب في كتابه الذنوب الكبيرة: أن من الظلم ما هو: «تجاوز حدود الله مع الآخرين، وذلك بإيذاء الغير وإيلامه في نفسه كضربه وقتله وحبسه، أو في كرامته كشتمه وغيبته واتهامه وهتكه، أو في ماله كأخذ المال من صاحبه بغير حق أو عدم دفع الحق له وسائر أنواع الغصب وأشد مراتبه إشغال منصب الخلافة وهو الحق الصريح لأهل البيت عليهم السلام الذي غصبه خلفاء الجور وبنو أمية وبنو العباس ومثله جلوس غير المجتهد العادل في كرسي القضاء»(٢).

وبناءًا عليه يكون معونة كل من هؤلاء وتوليهم داخل تحت العنوان الذي حرمه الله مع تفاوت في انطباقه، وإن هناك طائفة من النصوص تدل على حرمة صيرورة الشخص عونًا للظالم وإن كان عمله غير مرتبط بظلمه، وقد يشاركه في ظلمه ويتلبس بإثمه بمجرد إقراره لعمله ورضاه به، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «العامل بالظلم

(١) سورة هود، الآية ١١٣.
(٢) السيد عبد الحسين دستغيب، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٤٧.

والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم»[١]، ومن تعريف الموالاة الذي تقدم ذكره يتبين أن المعين للظالم والراضي بظلمه موالين له وإذا ثبت ذلك سيكونون مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢]، فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها في الخبث، وكذا القول في الأرواح الطاهرة، فكل أحد يهتم بشأن مَنْ يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية، فالطيور على أشكالها تقع، وهنا سيتم المحذور الأكبر وهو الخروج من ولاية الله والدخول في ولاية الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، وقد أكد الإمام الصادق عليه السلام هذه الحقيقة حيث قال: «ما اقترب عبد من سلطان جائر إلا تباعد من الله ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه ولا كثر تبعه إلا كثرت شياطينه»[٤]، ومَنْ ابتعد من الله تعالى كان مصيره الارتماء بحضن إبليس والعياذ بالله، ولعل القضية بحسب ذاتها ترمي إلى الابتعاد عن الظالمين قدر المستطاع؛ كونهم مصدرًا من مصادر الشرور التي نهى الشارع عن أن يكون العبد أحد أركانها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾[٥]؛ ولهذا كره المعصومون عليهم السلام لأوليائهم الاحتكاك بالظالمين بأي لون من ألوان الاحتكاك كما ورد في رواية صفوان بن مهران الجمال قال: «دخلت على أبي الحسن الأول – يقصد الإمام الكاظم – عليه السلام، فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٣٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية١٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية٢٧.
(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٨١.
(٥) سورة الأعراف، الآية٥٨.

جميل ما خلا شيئًا واحدًا، فقلت: جعلت فداك أي شيء، قال عليه السلام: إكرائك جمالك من هذا الرجل يعني هارون الرشيد، قلت: والله ما أكريته أشرًا ولا بطرًا ولا لصيد، ولا للهو، ولكن أكريته لهذا الطريق يعني طريق مكة، ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني، فقال لي: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم، قلت: نعم، قال: من أحب بقاءهم فهو منهم ومن كان منهم كان وروده إلى النار، قال صفوان: فذهبت وبعت جمالي عن آخرها فبلغ ذلك إلى هارون فدعاني، فقال لي: يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك، قلت: نعم، قال: ولم؟. قلت: أنا شيخ كبير وأن الغلمان [لا يقومون] بالأعمال، فقال: هيهات هيهات إني لأعلم من أشار عليك بهذا إنما أشار عليك بهذا موسى بن جعفر عليه السلام قلت: مالي و لموسى بن جعفر عليه السلام قال: دع، هذا عنك والله لولا حسن صحبتك لقتلتك»[١].

ولقد ورد في تفسير الركون إلى الظالم من أن الرجل يأتي السلطان فيحب بقاءه إلى أن يدخل يده في كيسه فيعطيه وغير ذلك مما ظاهره وجوب التجنب عنهم، ومن هنا لما قيل لبعض: إني رجل أخيط للسلطان ثيابه فهل تراني بذلك داخلًا في أعوان الظلمة، قال له: المعين من يبيعك الإبر والخيوط، وأما أنت فمن الظلمة أنفسهم[٢].

وفي رواية سليمان الجعفري المروية عن تفسير العياشي: «أن الدخول في أعمالهم والعون لهم والسعي في حوائجهم عديل الكفر

---

(١)الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ج٢، ص٧٤٠.
(٢)الشيخ الأنصاري مرتضى، المكاسب، ج٢، ص٥٨.

والنظر إليهم على العمد من الكبائر التي يستحق بها النار»(١)، وعن كتاب الشيخ ورام بن أبي فراس، قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ مشى إلى ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام، قال: وقال: عليه السلام إذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين الظلمة؟ أين أعوان الظلمة؟ أين أشباه الظلمة حتى من برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة؟ فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم»(٢)، بل النهي الإلهي واضح في مجرد الاستماع إلى حديثهم لما فيه من تقوية لهم حيث تكثير السواد من حولهم والإقرار الظاهري لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٣)، فضلًا عن موالاتهم التي توجب العذاب، يروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: لأعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام جائر ليس من الله، وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية، ولأعفونَّ عن كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام عادل من الله وإن كانت الرعية في أنفسها ظالمة مسيئة»(٤).

إذن الأمر ليس بالهين، بل يحتاج إلى كثرة تأمل، وتوخي الدقة والحذر في التعامل مع الآخرين أو في اتخاذ الموقف اتجاههم واتجاه أعمالهم وما يصدر عنهم من تصريحات وقرارات، فقد يناله ما ينال

---

(١) محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص٢٣٨.
(٢) السيد محمد صادق الروحاني، منهاج الفقاهة، ج٢، ص١٦٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية٦٨.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٣٧٦.

الظالم لمجرد كلمة ينطق بها، أو لما هو أقل من ذلك، كما لو كان لمجرد رضًا بعمله وإقرارًا بالقلب لصنعه.

فلسفة التولي

إن مسألة التولي بالنظر إلى كونها تمثل الامتداد الحقيقي للنبوة؛ حيث تحافظ على جهد النبي وما أورثه للأمة من أحكام وعقائد حقة وأخلاقيات؛ باعتبار أن الإمام يمثل دور الهادي للأمة كما وصفه بهذه السمة الباري جلَّ وعلا في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[(١)]، وأنه «الممثل الشرعي لرسول الله صلى الله وآله في جميع الشؤون التي تقبل النيابة والتمثيل»[(٢)]، ومن الجدير بالذكر أن هذه المسألة تعتبر من الأمور المجعولة الاعتبارية غير الحقيقية؛ ولهذا كان البحث فيها من مختصات علم الكلام ولم يكن بالأصل للفلسفة وبحوثها منها نصيب يذكر؛ كون الفلسفة تنال ما له وجود خارجي وحقائق عينية، لكن مع هذا يبقى من الممكن للبحث الفلسفي أن يطالها؛ ذلك أنها من المواد الدينية التي تعتبر من المعارف الأصيلة والأحكام الخلقية والعملية التي تؤثر بالنفس الإنسانية من جهة أنها تثبت في النفس علومًا ومعارف راسخة، أو أحوالًا تصيّرها ملكات نفسانية راسخة؛ لأن الروح الإنسانية غذاؤها العمل وعليه ستكوّن هذه العلوم والملكات صورًا للنفس الإنسانية تعيّن طريقها إلى السعادة

(١) الرعد، الآية ٧.
(٢) مغنية محمد جواد، فلسفة التوحيد والولاية، ص ١٧٣.

والشقاوة والقرب والبعد من الله سبحانه، فإن الإنسان بواسطة الأعمال والاعتقادات الحقة الصادقة يكتسب لنفسه كمالات لا تتعلق إلا بما هُيِّئ له عند الله سبحانه من القرب والزلفى والرضوان والجنان، وبواسطة الأعمال الطالحة والعقائد الباطلة يكتسب لنفسه صورًا لا تتعلق إلا بالدنيا الدائرة وزخارفها الفانية يؤدي بها ذلك أن ترد بعد مفارقة الدنيا وانقطاع الاختيار إلى دار البوار ومهاد النار، وهذا كله سير حقيقي، وكذلك على أساس أن الولاية وبقية المعتقدات وإن كانت عبارة عن حقائق إيمانية جوانحية مقرها القلب، إلا إنها لا بدّ أن تفضي بظلالها على الجوارح، وعليه يمكن أن نعتبر هذه المسألة حقيقية تستطيع الفلسفة أن تقيم لأجل إثباتها حججًا برهانية، وتظهر لها حكمًا ومؤيدات وشواهد عقلية تثبت ضرورة وجودها واستحالة انعدامها ونفيها.

لقد عكف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طيلة حياته المباركة على أن يقدم للبشرية نموذجًا عمليًا فريدًا في الأحكام والتشريعات التي كان يعرضها من خلال كلماته وأفعاله وتقريراته، حيث تضمنت جميع جوانب الحياة سواء التي تربط الإنسان بربه جلَّ وعلا، أو التي توضح كيفية تعاملات الناس بعضهم ببعض على صعيد الضرورات الدينية أو الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وقد ركز صلى الله عليه وآله وسلم وارثًا ذلك من الكتاب الكريم على جملة من الأمور ومن أهمها موضوع الولاية الذي ينص على أن التولي منحصر لأولياء الله، مبينًا أن انعكاس الرؤية وتولي مَنْ هو ليس أهلًا للولاية يعني تعرض مصير الأمة إلى الخطر

وتعرض مفاهيم الحياة السامية إلى الانقلاب؛ لأن جميع هذه المفاهيم ستكون عرضًا زائلًا لا قرار له ولا استقرار ولا قيمة له، ومن هنا طفحت كلمات القرآن الكريم والمعصومين عليهم السلام بذلك؛ لتحذر الناس من تضييع الولي الحق، ومن مجانبة إصابة الواقع في تولي مَنْ لا ينبغي أن يكون وليًا، وليتبين للناس كافة أهمية ما تصبو إليه هذه البيانات السماوية؛ ليكون الناس من خلالها منظومة أمنية عقائدية متينة، وحصنًا حصينًا يلتجئ إليه العباد في كل شؤونهم الحياتية والعبادية؛ وليخلقوا لهم مركزًا تنجذب إليه القلوب؛ وليشكلوا بذلك دعائم قوة ممتزجة العناصر لا تقهر بحال تمنعهم من الزيغ والضلال، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه المعروف بحديث الثقلين، حيث قال: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[(١)].

إن الله بحكم العقل والنقل تجلى عن أن يظهر لخلقه بصورة مباشرة؛ نظرًا إلى بساطته وعدم جسميته من جهة، ولضعف القابل في استيعاب هذه الحقيقة الوجودية العالية من جهة أخرى، لكن ذلك لم يثنه عن خلق عالم التكوين، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يُعرف بين مخلوقاته، وهو أحد أسباب الإيجاد وبدء الخليقة، حيث ورد في الحديث القدسي: «... وكنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[(٢)]، وأمسى الوقوف على التجسيد الحقيقي للمعنى

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٣٤.
(٢) السيد المرعشي، شرح إحقاق الحق، ج١، ص٤٣٠.

العملي لتجلي صفات الله سبحانه مرهونًا بإيجاد الخليفة وهو الولي، أو ما يعبر عنه بالإنسان الكامل، حيث لا يمكن لغيره أن يكون مؤهلًا لتحمل هذه المسؤولية وشغل مثل هذا المنصب الحساس، فلا يمكن أن نتصور جماله سبحانه، إلا إذا أظهره على يد أحد من خلقه وأولاهم بذلك هو الولي وهذه إحدى ضرورات وجوده.

وكذلك يمكن أن يقال: إن من مكامن وحِكَم ضرورة ثبوت الولاية هي الفطرة التي تدعو الإنسان إلى التعرف على ربه، وكشف الضبابية عن وجهه تبارك وتعالى، فمما لا يروق له عبادة ربٍّ لم يره، أو لا يكون له سفير حامل لصفاته، كاشف عن مراداته، مبين لتعاليم دينه، وسننه التي يلزم العباد بها؛ تحقيقًا للمصالح العليا المرهونة بذلك؛ ولهذا أوجب سبحانه وتعالى على نفسه لطفًا بعباده أن يبعث لهم رسلًا وينصب لهم سفراء، ومن أشرفهم حامل الديانة الخاتمة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبما أن مدة بعثته لم تستمر سوى ثلاثة وعشرين عامًا، تخللها حصار وهجرتان وخوض الكثير من المعارك والحروب دفاعًا عن الإسلام، وبناء دولة محصنة، ورسم دعائمها السياسية والاقتصادية والأمنية ومعالجة المشاكل العرضية التي كانت تواجهها، كل هذه الأسباب وغيرها حالت دون تفصيل الأحكام والوقوف على جميع الجزئيات التي تحتاجها الأمة، فحياته صلى الله عليه وآله وسلم لم تستوعب غير تأصيل أصول وتأسيس قواعد عامة في الكثير من التشريعات، ومن هنا أوكل صلى الله عليه وآله وسلم أمر ذلك إلى خلفائه الذين نصبهم بأمر الله تعالى للمؤهلات التي كانوا يتمتعون ويتميزون بها عن خلق الله، فقد سمت أرواحهم صلوات الله عليهم أجمعين حتى أدركت

جميع ملاكات الأحكام، فتحسسوا الإرادة الإلهية، وتوجسوا المشيئة الربانية، فأعطوا الولاية التشريعية، حيث بلغوا أعلى مراتب الكمال ووصلوا إلى غاية ما يمكن أن يصل إليه أحد من المخلوقات، ولهذا تمت بهم الحجة واكتمل الدين بتنصيبهم، وهذا ما صرح به القرآن الكريم بعد خطبة الغدير التي أعلن فيها النبي بشكل رسمي وعام أمام جمع من المسلمين قارب المائة ألف قدموا لحج بيت الله الحرام من كل حدب وصوب تنصيب علي عليه السلام وليًا وخليفة من بعده فنزل قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

إن الواقع ليفرض أن يكون هناك دليل عقلي فلسفي لإثبات ضرورة ثبوت الولاية التي تشمل بمعناها الأعم النبوة والإمامة وما يشابهها، حيث تنطوي جميعها تحت عنوان الولاية، فهي ليست منحصرة بالأئمة عليهم السلام كما يبدو للكثير من العوام، وهذا الدليل ينص على أن الله سبحانه وتعالى: «لم يرضَ بترك الناس بدون نموذج وقدوة ومرشد وقائد، يكون هو الأعلم والأعدل والأخبر وبالتالي الأصلح في هداية الناس وإدارة شؤون الأمة، فأرسل الأنبياء والرسل، وأخلفهم بالأوصياء والأولياء، فبعثة الأنبياء حاجة بشرية، ورحمة ونعمة إلهية، إذ إن من البديهي أن القائد المعصوم من أعظم النعم الإلهية التي يمكن أن تتوفر للمجتمع، حيث تعالج بواسطته الكثير من المعضلات والاضطرابات الاجتماعية، ويتم إنقاذ الأمة من الاختلاف والتنازع والفوضى والانحراف؛

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

ليقودها باتجاه كمالها المنشود»[١]، فضلاً عن أن مبدأ وقانون العلية حدوده منحصرة بقابلية ما يمكن اكتشافه من خلاله، فيد المعرفة والاكتشاف عن طريقه مقيدة بالتجارب العلمية؛ كون هذا القانون محددًا بالأمور الطبيعية ولا يمكنه أن يطال غيرها، أما تفسير كل وجود ما ورائي -ما وراء الطبيعة- وإثباته أو نفيه وما شاكل ذلك، فهو غير يمكن من خلال هذه الأدوات، بل ينحصر بلوغ ذلك بوجود واسطة في الفيض تكون مطلعة على هذه العوالم وما فيها من خلال إنبائها وإخبارها من لدن عالم الغيب والشهادة تبارك اسمه، وهو منحصر بصفوة يختارها على أن تكون مؤهلة روحيًا وعلميًا للاطلاع والتفسير وتحمّل هذه المسؤولية وهي لا تكون إلا بهم روحي فدى تراب مقدم قائمهم سلام الله عليهم أجمعين.

إن الاختيار الواعي والشعوري ووجود الميل والدافع الداخلي لدى الإنسان، وحاجته للقدرة على ممارسة العمل، وتوفر الظروف والأجواء الخارجية لممارسة الوظائف المختلفة، أمور وإن كانت مطلوبة، إلا أنها غير كافية لتحقيق مطلوبه وبلوغ غايته، فالإنسان يحتاج بالإضافة إلى ذلك إلى معرفة حقيقية صحيحة لتحديد صالح الأعمال وقبيحها، والطرق والأساليب والوسائل التي يتقرب بها إلى باريه؛ ليطيعه فيشكره، وليشق طريقًا صحيحًا يبلغه ما يرجوه وتدعوه إليه فطرته، ويحمي نفسه من الانحرافات التي تخرجه من

(١) الدكتور الشيخ علي ناصر، مجلة الوحدة الإسلامية، فلسفة الولاية- نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم نموذجًا، العدد ١٣٣، الصادر في كانون الأول، ٢٠١٢م.

مساره وتبعده عن هدفه، وتجنبه العقبات التي تعترضه، هذه الأمور كلها تحتاج إلى مرشد هادٍ عالم عارف بكل ذلك، مسدد من السماء، وهو الولي الحق، ومن هنا جاء القول بضرورة الولاية، فمعارف الإنسان ومداركه قاصرة عن بلوغه ذلك كله لوحده؛ لأنها غالبًا ما يحصل عليها نتيجة التعاون بين الحسِّ الذي يشكل وسيلة لتحقيق الإدراك الأولي للمحسوسات الموجودة في الطبيعة، والعقل الذي يُدرك المفاهيم الكلية للأمور، ويدرك أضدادها كالكرم والبخل، والشجاعة والجبن، والسعادة والشقاوة، وهذه المصادر للمعرفة وإن كان لها دور فاعل في توفير ما يحتاج إليه في حياته التكوينية، إلا أنها لا تكفي في التعرف على طريق الكمال والسعادة الحقيقية، فهي ناقصة ومحدودة في جميع المجالات الفردية والاجتماعية، والمادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية، وبالتالي يحتاج الإنسان إلى طريق آخر من أجل التعرف على طريق الكمال في كل المجالات، وهو طريق الوحي، أو النكت في القلب وما شابه من وسائل يستلهم منها ذلك؛ ليبلغ تحقيق الهدف والغاية من خلقه، وبعبارة أخرى هو بحاجة إلى ولي حق اصطفاه الله من الخلق، ليستلهم منه النهج وليأخذ منه المدد ويواصل طريقه دون خوض اللجج في إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ ولئلا يقع بيد لفيف من المتطفلين المتقمصين غير المأمونين على الإسلام والمسلمين، الذين غمرتهم أحقاد الجاهلية وشهوة الإمرة وحب التسلط على رقاب الناس، ليعثوا في الأرض الفساد، ويسعوا فيها ليهلكوا الحرث والنسل، مهددين بذلك مسيرة الاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي

﴿الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[١].

هذا وقد يضاف إليه مؤيد، وهو ما وصل إليه علماء النفس من أن وجود القدوة في الحياة بصورة عامة يعتبر من أهم العوامل التي لها تأثيرها الفاعل في تربية الفرد والمجتمع، على مستوى التزكية النفسية والتوجيه الصحيح والإرشاد العلمي والعملي الذي يُؤَمِن لكل مجتمع ازدهاره وتكامله وبناء حضارته بشكل يميزه عن غيره ويوفر له سبل الحفاظ عليها، ويشهد التاريخ البشري بأن أفضل مَنْ قام بذلك وأدى هذا الدور هم الأولياء، أنبياء كانوا أو أئمة صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

فروض اجتماعية

من الواضح أن الإيمان قائم على الجد والحزم في مواطن العقيدة والعمل الصالح وأنه لا تسامح على حساب الدين وأن المؤمن صلب ثابت القدم لا يعيش ميعان المبادئ والتلاعب بالقيم، لكن صلابة الإيمان لم تصنع منه جافًا قاسيًا حاقدًا، بل المؤمن لين وعطوف ومتسامح في مواطن الخُلق والمُثل العليا، فالحقوق والواجبات حقيقتان اجتماعيتان لهما جذورهما الراسخة في حياة كل إنسان؛ ولهذا جُعلت

(١)سورة البقرة، الآية٢٠٥.
(٢)سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

حقوق الإنسان شعارًا يعتبر الطريق الأمثل لتقدم البشرية، ورمز تطلعاتها لتحقيق المستقبل الزاهر في كل آن ومكان، ولو توغلنا في الحق وتعاريفه، لوجدنا أنفسنا أمام نظريات وآراء متنوعة، فمنها ما تعده مجرد اصطلاح ظهر نتيجة العادات والممارسات، ومنها ما تعتبره شعورًا داخليًا نفسيًا ينبع من واقع الحياة التي تستكمل به شروط استمرارها، ومنها ما تعتبره هبة من عالم ما وراء الطبيعة، وألطفها ما جاء به الجرجاني وهو: الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل(١)،وكيفما كان يبقى الحق ذا أهمية لا يستغنى عنه في خط حياة هانئة يعم العدل الجميع فيها؛ ولهذا ركّزت الشرائع السماوية على مراعاته وضرورة نشره، ولم تشع يومًا ثقافة غبن الطرف المقابل وجواز ظلمه أيًا مَنْ كان – وإن كان مخالفًا لأتباع الديانة بالدين والمعتقد –، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢)، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته لمالك الأشتر رضي الله عنه بعدما ولاه مصر: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والحب لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، وولّي الأمر عليك

(١) الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ج١، ص١٤٩.
(٢) سورة الممتحنة، الآية٨.

فوقك، والله فوق من ولّاك، وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم»[(١)]، وهناك حقوق لم يتهاون الإسلام بشأنها قط، بل ألزم المسلم بها بغض النظر عن معتقد صاحب الحق، كحقوق الوالدين، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَ تَعْبُدُواْ إِلاَ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لهما أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لهما قَوْلًا كَرِيمًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)]، وقد ورد في الحديث عن معمر بن خلاد، قال: «قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[(٤)]، وعن جابر قال: «سمعت رجلاً يقول: لأبي عبد الله عليه السلام: إن لي أبوين مخالفين، فقال: برهما كما تبر المسلمين ممَنْ يتولانا»[(٥)]، وغير ذلك من الحقوق التي لم يجعل الإسلام فيهن رخصة، كما ورد في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ثلاث لم يجعل الله عزَّ وجلَّ لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر والوفاء بالعهد للبر والفاجر وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»[(٦)].

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، رسالة ٢٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٣.
(٣) سورة لقمان، الآية ١٥.
(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٩٠.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٦) الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.

لقد ترك الإمام السجاد عليه السلام إرثًا مهمًا لكل الأجيال وهي "رسالة الحقوق"، هذه الرسالة العظيمة التي بيّن فيها الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام للناس حقوق الإنسان بعد واقعة الطف التي انتهكت فيها أبسط الحقوق الإنسانية فضلًا عن تعاليم الإسلام وأحكامه، والتي تحدث فيها عليه السلام عن الحقوق المهمة للناس، وعن ثقافة الحقوق قبل أن يتحدث العالم عن وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م بمئات السنين، الأمر الذي يوضح لنا الرؤية العميقة للأئمة عليهم السلام عن حقوق الإنسان.

تعتبر رسالة الحقوق من أهم الآثار التي جمعت هذه الحقوق، ووصلت إلينا من التراث الإسلامي، حيث يبين فيها عليه السلام وظائف الإنسان وواجباته تجاه الله سبحانه وتعالى، وتجاه نفسه والآخرين، وهي عبارة عن خمسين حقًا على قول أو أكثر على قول آخر[(١)].

وقد عُد عليه السلام بذلك المؤسس لثقافة حقوق الإنسان، فهو أول من وضع رسالة لذلك قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان؛ وذلك لإدراكه أهمية احترام الإنسان بما هو إنسان، وأنها تشكل المنطلق لبناء نظام اجتماعي متماسك، وتحقق العدالة الاجتماعية، وتضمن سلامة العلاقات الفردية والعامة في إطار من الاحترام المتبادل، والتسامح تجاه الآخر، والقبول بالرأي المخالف، وهي بذلك تعتبر أقدم وثيقة دولية تحدثت حول هذا الأمر.

(١) البحراني ابن شعبة، تحف العقول، ص٢٥٥.

فقد أدرك عليه السلام أن غياب مثل هذه الثقافة تؤدي إلى شيوع التعصب والتشدد والتطرف، في حين أن معرفة حقوق الذات، فضلًا عن حقوق الآخر يؤدي إلى سيادة القانون، ونمو ثقافة الاحترام والتكريم للإنسان، تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١]، فالآية الشريفة تشير إلى تكريم الإنسان بغض النظر عن دينه أو مذهبه أو قوميته أو لونه أو عرقه.

وقد امتازت وثيقة "رسالة الحقوق" للإمام السجاد عليه السلام بأنها تطرقت إلى حقوق أكثر مما هو مدون في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ إذ اشتملت على خمسين حقًا، أو أكثر، في حين أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لم يتجاوز ٢٩ مادة، كما أشارت رسالة الإمام الحقوقية إلى حقوق تجاهلتها الوثائق الدولية لحقوق الإنسان، كحق الله سبحانه وتعالى بالنسبة لعبده، وهو أكبر الحقوق، بل أصلها، ثم أشار عليه السلام إلى حقوق الإنسان المفروضة من الله تعالى تجاه أخيه الإنسان، وأنواع علاقة الإنسان بنفسه من خلال رؤية الإسلام لذلك.

إن الإمام السجاد عليه السلام ذكر في رسالته الحقوقية حقوق أهل الإسلام، وإن اختلفوا في مذاهبهم وآرائهم ومرجعياتهم الفكرية، فلكل مسلم أن يمارس عباداته وشعائره ومعتقداته بحسب مذهبه، فقال عليه السلام فيما يخص ذلك: «وأما حق أهل ملتك عامة فإضمار السلامة، ونشر جناح الرحمة، والرفق بمسيئهم وتألفهم، واستصلاحهم، وشكر

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

محسنهم إلى نفسه، وإليك، فإن إحسانه إلى نفسه إحسانه إليك، إذ كف عنك أذاه، وكفاك مؤونته، وحبس عنك نفسه، فعمهم جميعًا بدعوتك، وانصرهم جميعًا بنصرتك، وأنزلهم جميعًا منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمَنْ أتاك تعاهدته بلطف ورحمة، وصل أخاك بما يجب للأخ على أخيه»، ومن المؤكد أن المسلمين لو طبقوا هذه الحقوق على واقع حياتهم لكانوا يدًا واحدة، ولما اختلفت كلمتهم، ولم يتشتت شملهم، ولكانوا قوة ضاربة، لا تستضعفهم الدول ولا تطمع فيهم الأمم.

ثم ختمها عليه السلام بذكر حقوق أهل الذمة، ممَنْ يشترك مع الإنسان في الأرض الواحدة والنظام السياسي الواحد، وإن اختلف مع غيره في الدين، فإن لهم حقوق المواطنة، وحق الشراكة بالإنسانية، فقد بيَّن عليه السلام بأن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، دون أن يدعوا المسلمين إليها، كما أن لهم أن يعملوا حسب شريعتهم في عقودهم وطلاقهم... وغيرها من الأحوال الشخصية، حيث قال عليه السلام: «وأما حق أهل الذمة فالحكم فيهم: أن تقبل منهم ما قبل الله، وتفي بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم إليه في ما طلبوا من أنفسهم، وأجبروا عليه، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك في ما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله، والوفاء بعهده، وعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حائل فإنه بلغنا أنه قال: "مَنْ ظلم معاهدًا كنت خصمه" فاتق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ومن هنا نفهم أن الإسلام لم يترك لكل ذي حق إلا بيَّنه وفرضه

على المسلمين بمنتهى اللياقة واللطف مبينًا لهم الحكمة من ذلك، اجتماعية كانت أوغير ذلك، وإن كان تركيزه على أهمية التعايش التي أكد عليها؛ ليوضح للحاضر والغائب أنه دين مهذب يحترم الجميع، وأنه لا يفرق في بعض الفروض والحقوق والواجبات بين الخلق.

مَنْ نحب؟ ومَنْ نبغض؟

إن ما يميز المؤمن عن غيره أنه يرى مشروعية أي عمل قلبي كان أو جوارحي قبل الشروع به؛ لأنه قد اختط لحياته منهجًا مستلًا ممَنْ آمن به وعاهد نفسه على أن يكون متبعًا له وحتم عليها أن لا يعصي له أمرًا وإن شرَّقت به الغفلة وغرَّبت من دون تحدٍ أو عناد، كما أشار إليه الإمام السجاد عليه السلام في أحد أدعيته، حيث قال: «وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي...»[1]، وباعتبار أن الحب والبغض هما هوية عنوان تمييز المؤمن عن غيره، بل قد يكونان في بعض الأحيان سبيل دخول المرء في الدين أو خروجه منه، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن الحب والبغض أ من الإيمان هو؟، فأجاب: «وهل الإيمان إلا الحب والبغض»[2]، وعن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «الدين هو الحب، والحب هو الدين»[3]؛ لذا يجب على

(١)الشيخ الأبطحي، الصحيفة السجادية، ص١٧٦.
(٢)الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٢٥.
(٣)نور الثقلين، ج٥، ص٢٨٥.

كل مسلم من هذا المنطلق أن يدقق في تشخيص هوية مَنْ يحبه ومَنْ يبغضه، وبافتراض ما تقدم من مراعاته المشروعية في كل عمل عليه أن يرجع إلى دستور الشريعة الإسلامية ويرى رأي القرآن وعِدله في ذلك وحينئذٍ سيجد الكثير من الآيات والروايات التي تعرضت لهذا الأمر، فآيات الدعاء حافلة بإشراك المؤمنين به؛ وما ذاك، إلا لغاية أراد الله عزَّ وجلَّ تحقيقها وهي إيجاد الرابطة القوية بينهم، ولتزيد من أواصر المحبة بينهم، ولتبرز جانب المودة الذي يجمعهم، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وقد نصت الروايات على تأكيد استحباب دعاء المؤمن لأخيه المؤمن ولعل من حِكَم ذلك تقوية أواصر المحبة بينهم، فقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من مؤمن دعا للمؤمنين والمؤمنات، إلا ردَّ الله عزَّ وجلَّ عليه مثل الذي دعا لهم به، من كل مؤمن ومؤمنة مضى من أول الدهر أو هو آت إلى يوم القيامة، إن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب فيقول المؤمنون والمؤمنات: يا رب هذا الذي كان يدعو لنا فشفعنا فيه، فيشفعهم الله عزَّ وجلَّ فيه، فينجو»[٢]، وهكذا الحال في فقرات الكثير من الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وبذلك سيكون الالتزام بهذه الأمور ممهدًا لنزول بركات السماء ولتدخلات رب العزة في إلقاء المحبة في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة الحشر، الآية ١٠.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٥٠٩.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[١]، وفي الوقت نفسه نهى عن مودة أعداء الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[٢].

من هنا يتبين أن مَنْ يجب أن يعطى نصيبًا من المحبة في القلب هم أولياء الله الذين ما يزالون مورد العصمة لمن تمسك بهم، وهم علي وبنوه صلوات الله عليهم أجمعين والمؤمنون، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عمار إن رأيت عليًا قد سلك واديًا وسلك الناس كلهم واديًا فاسلك مع علي فإنه لن يدليك في ردى ولن يخرجك من هدى»[٣]، وأتباعهم كما أكدت عليه الآية الآنفة والمنقولات عن أهل البيت عليهم السلام، «... محب لمن أحبكم»[٤]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «معاشر الناس أحبوا موالينا مع حبكم لآلنا، هذا زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد من خواص موالينا فأحبوهما فوالذي بعث محمدًا بالحق نبيًا لينفعكم حبهما، قالوا: وكيف ينفعنا حبهما؟ قال: إنهما يأتيان يوم القيامة عليًا عليه السلام بخلق عظيم أكثر من ربيعة ومضر بعدد كل واحد منهما فيقولان: يا أخا رسول الله هؤلاء أحبونا بحب محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبحبك، فيكتب لهم علي عليه السلام جوازًا على الصراط، فيعبرون عليه ويردون الجنة سالمين، وذلك أن أحدًا لا يدخل الجنة من سائر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا بجواز من علي

---

(١) سورة مريم، الآية ٩٦.
(٢) سورة الممتحنة، الآية ١.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٨، ص٣٩.
(٤) المصدر نفسه، ج٢٢، ص٢٨٦.

عليه السلام»[١]، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن أطيب شيء في الجنة وألذه حب الله، والحب [في ا] لله والحمد لله قال الله عز وجل: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنهم إذا عاينوا ما في الجنة من النعيم هاجت المحبة في قلوبهم، فينادون عند ذلك: أن الحمد لله رب العالمين»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المحب في الله محب الله، والمحبوب في الله حبيب الله لأنهما لا يتحابان إلا في الله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المرء مع مَنْ أحب فمَنْ أحب عبدًا في الله فإنما أحب الله، ولا يحب الله تعالى إلا مَنْ أحبه الله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل الناس بعد النبيين في الدنيا والآخرة المحبون لله المتحابون فيه، وكل حب معلول يورث بعدا فيه عداوة إلا هذين، وهما من عين واحدة يزيدان أبدًا ولا ينقصان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، لأن أصل الحب التبرؤ عن سوى المحبوب»[٣]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كذب من زعم أنه من شيعتنا وهو متمسك بعروة غيرنا»[٤]، وعن ابن أبي نجران، قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عادانا ومَنْ والاهم فقد والانا لأنهم منا، خلقوا من طينتنا، مَنْ أحبهم فهو منا»[٥]، وغير ذلك من الروايات التي تشير إلى بيان المعيار الذي لا بدَّ أن يكون هو الفيصل في تحديد مَنْ تجب محبتهم ومودتهم، ولا معيار غيره.

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٥١.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٢١.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أما بالنسبة إلى مَنْ يكون البغض استحقاقهم فهم أعداء الله الذين أمرنا بالتبري منهم ومن أتباعهم وقد ورد الكثير من الروايات فيما يخص هذا الأمر، منها ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرًا فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع مَنْ أحب»[١]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كل مَنْ لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له»[٢]، ومن هنا يتضح أن معيار البغض هو الدين أيضًا، ومن الضرورة بمكان إدراكه، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ثلاث من علامات المؤمن: علمه بالله ومَنْ يحب ومَنْ يبغض»[٣] وعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الرجل ليحبكم وما يعرف ما أنتم عليه فيدخله الله الجنة بحبكم وإن الرجل ليبغضكم وما يعرف ما أنتم عليه فيدخله الله ببغضكم النار»[٤].

إنارة ونكتة

مما لا شك فيه وجوب محبة محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وهي من الأمور التي أجمعت عليها الأمة لصراحة القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل

---

(١)الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٢٦.
(٢)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤)المصدر نفسه، ص١٢٧.

﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(١)، فالآية المباركة واضحة وصريحة بضرورة عدم الاكتفاء بالمحبة أصلًا، بل لا بدَّ من ترجمة هذا الشعور النفسي والمشاعر الداخلية للإنسان تجاه مَنْ يحب إلى ممارسة وسلوك تجاه محبوبه، أي الخروج من فضاء التصورات المحضة إلى أفعال خارجية لتصح هذه المودة ولكي تتحقق بحسب ما يراد منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، وأوضح مصاديق الاتباع إنما يعكسه السلوك الخارجي للفرد، الذي به تكتمل حقيقة الإيمان ويكتسب المرء درجة الإيمان الحقة الحقيقية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٣)، هذا باختصار من ناحية ضرورة محبة ومودة أهل البيت عليهم السلام، أما فيما يتعلق بضرورة ووجوب محبة مواليهم الذي صرحت به الكثير من المأثورات عنهم عليهم السلام بالإضافة إلى ما مرَّ ذكره، منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «معاشر الناس أحبوا موالينا»(٤)، وعن يعقوب بن ميثم مولى علي بن الحسين عليهما السلام، قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام، فقلت له: جعلت فداك يا بن رسول الله، إني وجدت في كتب أبي أن عليًا عليه السلام قال

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢ و٣ و٤.
(٤) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٥١.

لأبي ميثم: أحبب حبيب آل محمد وإن كان فاسقًا زانيًا، وأبغض مبغض آل محمد وإن كان صوامًا قوامًا، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية"(١)، ثم التفت إليَّ وقال: هم والله أنت وشيعتك يا علي وميعادك وميعادهم الحوض غدًا، غرًا محجلين، مكتحلين متوجين»(٢)، وغيرها الكثير كما سيأتي لاحقًا إن شاء الله تعالى، ولعل من مبررات وجوب محبة الموالين هو كونهم خُلِقوا من فاضل طينة محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين كما نصت عليه الروايات، وحيث كوننا مأمورين بحبهم ومودتهم عليهم السلام، لا يمكن تفادي محبة جزئهم، فبغض الجزء يسري إلى الكل، فمَنْ بغض جزءًا بغض كله؛ لأن أحكام الجزء تشمل الكل، فبغض الموالي تعني بحسب ما مرَّ بغض جزءهم عليهم السلام؛ لأنهم أصل هذا الجزء والكل الذي يؤوب إليه؛ ولهذا لم يفرقوا عليهم السلام بين معاداة شيعتهم ومعاداتهم أنفسهم بحسب ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله في كتاب صفات الشيعة بسنده عن أبن أبي نجران قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عادانا،...إلى أن قال: شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان ويوالون أهل البيت ويبرؤون من أعدائنا أولئك أهل الإيمان والتقى والأمانة، مَنْ ردَّ عليهم فقد ردّ على الله ومَنْ طعن عليهم فقد طعن على الله»(٣)، وعن ابن أبي نجران قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عادانا ومَنْ والاهم فقد والانا لأنهم

(١) سورة البينة، الآية٧.
(٢) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص٤٠٦.
(٣) البرجوردي السيد حسين، جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٤٦٧.

منا خلقوا من طينتنا من أحبهم فهو منا ومَنْ أبغضهم فليس منا، شيعتنا ينظرون بنور الله ويتقلبون في رحمة الله ويفوزون بكرامة الله ما من أحد من شيعتنا يمرض إلا مرضنا لمرضه ولا اغتم إلا اغتممنا لغمه، ولا يفرح إلا فرحنا لفرحه ولا يغيب عنا أحد من شيعتنا أين كان في شرق الأرض أو غربها ومَنْ ترك من شيعتنا دينًا فهو علينا، ومَنْ ترك منهم مالًا فهو لورثته، شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام، ويصومون شهر رمضان ويوالون أهل البيت ويتبرؤون من أعدائهم، (من أعدائنا - خ ل) أولئك أهل الإيمان والتقى، وأهل الورع والتقوى، ومَنْ ردَّ عليهم فقد ردَّ على الله، ومَنْ طعن عليهم فقد طعن على الله لأنهم عباد الله حقًا وأولياؤه صدقًا، والله إن أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر فيشفعه الله تعالى فيهم لكرامته...»[(١)]، وعن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله عزَّ وجلَّ خلق المؤمنين من نور عظمته وجلال كرامته فمَنْ طعن عليهم أو ردَّ عليهم قولهم فقد ردَّ الله في عرشه وليس من الله في شيء إنما هو شرك الشيطان»[(٢)].

الولاية في روايات أهل البيت عليهم السلام

لم يغفل أهل البيت عليهم السلام عن ذكر سفاسف الأمور الفردية منها والاجتماعية التي تتعلق بها حياة المسلم، فضلًا عن القضايا الخطيرة التي تبتني عليها العقيدة الإسلامية الحقة، والتي أصبح لمصير الإنسان

---

(١) المصدر السابق، ص٤.
(٢) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص٢٣٩.

ارتباطًا لا ينفك عنها؛ ولهذا أوليت من قبلهم عليهم السلام بالغ الاهتمام، وسأذكر فيما يلي بعضًا منها، وإن كان من الأجدر تخصيص باب بعنوان الولاية في القرآن أيضًا، إلا أني أعرضت عنه باعتبار ذكر الآيات التي تعرضت لذلك ضمنًا فيما سبق وفيما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ ولذا سأكتفي بذكر الولاية في الروايات:

روى الشيخ الطوسي أعلى الله مقامه بسنده عن المجاشعي قال: حدّثنا محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه أبي عبد الله عليه السلام، قال المجاشعي: وحدّثنا الرضا علي بن موسى عن أبيه موسى عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام، وقالا جميعًا عن آبائهم عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: بُني الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين والقرينتين، قيل له: أما الشهادتان فقد عرفناهما، فما القرينتان؟ قال: الصلاة والزكاة فإنه لا يقبل أحدهما إلا بالأخرى، والصيام وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلًا، وختم ذلك بالولاية فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾»[(١)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: (فما فَرَضَه الله عزّ وجلّ من الفرائض في كتابه فدعائم الإسلام وهي خمس دعائم وعلى هذه الفرائض بُنِيَ الإسلام فجعل سبحانه لكلّ فريضة من هذه الفرائض أربعة حدود لا يسع أحد جهلها أوّلها الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٤٦٣.

الحج ثم الولاية وهي خاتمتها والحافظة لجميع الفرائض والسنن)[١]، وروي عن حسين بن زيد عن جعفر، عن أبيه، عن علي بن الحسين بن علي عليهما السلام، قال: «إن الله افترض خمسًا ولم يفترض إلا حسنًا جميلًا: الصلاة والزكاة والحج والصيام وولايتنا أهل البيت، فعمل الناس بأربع واستخفوا بالخامسة، والله لا يستكملوا الأربع حتى يستكملوها بالخامسة»[٢].

وروى الثقة الكليني رحمه الله بسنده عن عيسى بن السرّي قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام حَدِّثني عمّا بُنيت عليه دعائم الإسلام إذا أنا أخذت بها زكى عملي ولم يضرني جهل ما جهلت بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإقرار بما جاء به من عند الله وحقّ في الأموال من الزكاة والولاية التي أمر الله عزّ وجلّ بها ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مَنْ مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فكان علي عليه السلام، ثم صار من بعده حسن، ثم من بعده حسين، ثم من بعده علي بن الحسين، ثم من بعده محمد بن علي، ثم هكذا يكون الأمر أن الأرض لا تصلح إلا بإمام ومَنْ مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهلية وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هاهنا، قال: وأهوى بيده إلى صدره، يقول حينئذ: لقد كنت على أمر حسن»[٣].

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٣.
(٢) الطبري محمد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، ص١٣١.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٢.

وروى علي بن إبراهيم بسنده عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «يا بن رسول الله هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إياكم؟ قال: فقال: نعم، قال: فقلت: فإني أسألك مسألة تجيبني فيها فإني مكفوف البصر قليل المشي ولا استطيع زيارتكم كل حين، قال: هات حاجتك قالت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عزّ وجلّ به أنت وأهل بيتك لأدين الله عزّ وجلّ به. قال: إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عزّ وجلّ به: شهادة أن لا إله الله وان محمدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإقرار بما جاء به من عند الله والولاية لولينا والبراءة من عدونا والتسليم لأمرنا والانتظار لقائمنا والاجتهاد والورع»[١].

وروى الشيخ أبو جعفر الطوسي بسنده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابوري عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «حدثنا الحسن بن علي صلوات الله عليهم إن الله عزّ وجلّ بمنّه ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليه بل رحمة منه عليكم لا إله إلا هو ليميز الخبيث من الطيب وليبتلي ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم، ولتتسابقوا إلى رحمته، ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية وجعل لكم بابًا لتفتحوا به أبواب الفرائض مفتاحًا إلى سبيله، ولولا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء من ولده (صلبه) عليهم السلام كنتم حيارى كالبهائم لا تعرفون فرضًا من الفرائض، وهل تدخل قرية

(١)المصدر السابق، ص٢١.

إلا من بابها، فلما مَنّ عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عزّ وجلّ: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا »وفرض عليكم لأوليائه حقوقًا وأمركم بأدائها إليهم ليحلّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم ومأكلكم ومشاربكم ويعرفكم بذلك البركة والنماء والثروة، وليعلم من يطيعه منكم بالغيب. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فاعلموا أن من يبخل فإنما يبخل عن نفسه إن الله هو الغني وأنتم الفقراء إليه، فاعملوا من بعد ما شئتم "فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبِّئكم بما كنتم تعملون" والعاقبة للمتقين والحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين، سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: خُلِقتُ من نور الله عزّ وجلّ وخُلِقَ أهل بيتي من نوري وخُلق محبوهم من نورهم، وسائر الخلق في النار»(١).

وروى علي بن إبراهيم بسنده عن صفوان عن عمرو بن حريث قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو في منزل أخيه عبد الله بن محمد فقلت له: جعلت فداك ما حوّلك إلى هذا المنزل؟ قال: طلب النزهة، فقلت: جُعلت فداك ألا أقص عليك ديني؟ فقال: بلى، قلت: أدين الله بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمدًا عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَنْ في القبور وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت والولاية لعلي أمير المؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والولاية للحسن والحسين والولاية لعلي

(١) الشيخ الكشي، رجال الكشي، ص٣٥٤.

ابن الحسين والولاية لمحمد بن علي ولك من بعده صلوات الله عليهم أجمعين وأنكم أئمتي عليه أحيى وعليه أموت وأدين الله به، فقال: يا عمرو هذا والله دين الله ودين آبائي الذي أدين الله به في السرّ والعلانية فاتق الله وكف لسانك إلا من خير ولا تقل إني هديت نفسي، بل الله هداك فَادِّ شكر ما أنعم الله عزّ وجلّ به عليك ولا تكن ممن إذا أقبل طعن في عينه وإذا أدبر طعن في قفاه، ولا تحمل الناس على كاهلك فإنه يوشك أن حملت الناس على كاهلك أن يصدعوا شعب كاهلك»(١).

وروى البرقي بسنده عن معاذ بن مسلم قال: «أدخلت عمر أخي على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: هذا عمر أخي وهو يريد أن يسمع منك شيئًا، فقال له: سَل ما شئت، فقال: أسألك عن الدين الذي لا يقبل الله من العباد غيره ولا يعذرهم على جهله، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصلوات الخمس وصيام شهر رمضان والغُسل من الجنابة وحج البيت والإقرار بما جاء من عند الله جملة والائتمام بأئمة الحق من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عمر: سمّهم لي أصلحك الله، فقال: علي أمير المؤمنين والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي والخير يعطيه الله من يشاء، فقال: فأنت جُعِلتُ فداك؟ قال: هذا الأمر يجري لآخرنا كما يجري لأولنا ولمحمد وعلي فضلهما، قال: فأنت جُعلت فداك؟ فقال: هذا الأمر يجري كما يجري الليل والنهار، قال: فأنت جعلت فداك؟ قال: هذا الأمر يجري كما يجري حدّ الزاني والسارق، قال: فأنت جُعلت فداك؟ قال: القرآن نزل

(١) حسين البرجوردي، جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٤٧٧.

في أقوام وهي تجري في الناس إلى يوم القيامة، قال: قلت: جُعلت فداك أنت لتزيدني على أمر»[١].

وروى الثقة الصدوق أعلى الله مقامه بسنده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: «دخلت على سيدي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فلما أبصرني قال: مرحبًا بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقًا، قال: فقلت له: يا بن رسول الله إني أريد أن أعرض عليك ديني فإن كان مرضيًا أثبت عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ، فقال: هات يا أبا القاسم، فقلت: إني أقول: إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء، خارج عن الحدين: حد الإبطال وحد التشبيه، وإنه ليس بجسم ولا صورة ولا عَرَض ولا جوهر، بل هو مُجسِّم الأجسام ومصوِّر الصور وخالق الأعراض والجواهر ورب كل شيء ومالكه وجاعله ومحدثه، وإن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله خاتم النبيين ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، وإن شريعته خاتمة الشرايع فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة، وأقول: إن الإمام والخليفة ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم أنت يا مولاي، فقال عليه السلام: ومن بعدي الحسن ابني، فكيف للناس بالخلف من بعده، قال: فقلت: وكيف ذلك يا مولاي؟ قال: لأنه لا يُرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه حتى يخرج فيملأ الأرض

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٨.

قسطًا وعدلًا كما مُلئت جورًا وظلمًا، قال: فقلت: أقررت، وأقول: إن وليهم ولي الله وعدوهم عدو الله وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله، وأقول: إن المعراج حق والمساءلة في القبر حق وإن الجنة حق والنار حق والصراط حق والميزان حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث مَنْ في القبور، وأقول: إن الفرائض الواجبة بعد الولاية الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال علي بن محمد عليهما السلام يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فأثبت عليه ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[١].

وروى السيد الجليل ابن طاووس أعلى الله مقامه بسنده عن عيسى ابن المستفاد قال: حدثني موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألتُ أبا جعفر بن محمد عليهما السلام عن بدء الإسلام كيف أسلم علي عليه السلام وكيف أسلمت خديجة رضي الله عنها، فقال لي: موسى بن جعفر عليه السلام: «تأبى إلا أن تطلب أصول العلم ومبتدئه، أم والله إنك لتسأل تفقهًا، قال موسى عليه السلام: فقال لي أبي: إنهما لَمَّا أسلما دعاهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا علي ويا خديجة أسلمتما لله وسلمتما له، وقال: إن جبرئيل عندي يدعوكما إلى بيعة الإسلام فأسلما تسلما وأطيعا تهديا، فقالا: فعلنا وأطعنا يا رسول الله، فقال: إن جبرئيل عندي يقول لكما: إن للإسلام شروطًا ومواثيق، فابتداه بما شرطه الله عليكما لنفسه ولرسوله أن تقولا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه ولم يلده والد ولم يتخذ صاحبة إلهًا

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٩.

واحدًا مخلصًا وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله إلى الناس كافة بين يدي الساعة، ونشهد أن الله يُحيي ويميت ويرفع ويضع ويُغني ويفقر ويفعل ما يشاء ويبعث مَنْ في القبور، قالا: شهدنا، قال: وإسباغ الوضوء على المكاره واليدين والوجه والذراعين ومسح الرأس ومسح الرجلين إلى الكعبين، وغسل الجنابة في الحر والبرد وإقام الصلاة وأخذ الزكاة من حلّها ووضعها في أهلها وحج البيت وصوم شهر رمضان والجهاد في سبيل الله وبر الوالدين وصلة الرحم والعدل في الرعية والقسم في السوية والوقوف عند الشبهة إلى الإمام فإنه لا شبهة عنده وطاعة ولي الأمر بعدي ومعرفته في حياتي وبعد موتي والأئمة من بعده واحدًا فواحدًا، وموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله والبراءة من الشيطان الرجيم وحزبه وأشياعه والبراءة من الأحزاب تيم وعدي وأمية وأشياعهم وأتباعهم والحياة على ديني وسنتي ودين وصيي وسنته إلى يوم القيامة والموت على مثل ذلك غير شاقة لأمانته ولا متعدية ولا متأخرة عنه وترك شرب الخمر وملاحاة الرجال، يا خديجة فهمت ما شرط عليك ربُك؟ قالت: نعم وآمنت وصدّقت رضيتُ وسلّمت، قال علي عليه السلام: وأنا على ذلك.

فقال: يا علي تبايع على ما شرطت عليك؟ قال: نعم، قال: فبسط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفه فوضع كف علي عليه السلام في كفه، فقال: بايعني على ما شرطت عليك، وان تمنعني مما تمنع منه نفسك، فبكى علي عليه السلام وقال: بأبي وأمي لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اهتديت ورب الكعبة ورشدت ووفقت وأرشدك الله يا خديجة ضعي يدك فوق

يد علي عليه السلام[١] فبايعي له، فبايعت على مثل ما بايع عليه علي بن أبي طالب عليه السلام على أنه لا جهاد عليك، ثم قال: يا خديجة هذا علي مولاك ومولى المؤمنين وإمامهم بعدي، قالت: صدقت يا رسول الله قد بايعته على ما قلت، أشهد الله وأُشهدك بذلك وكفى بالله شهيدًا وعليمًا»[٢].

وروى السيد ابن طاووس عن موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذرّ وسلمان والمقداد فقال لهم: تعرفون شرايع الإسلام وشروطه؟ قالوا: نعرف ما عَرَّفنا الله ورسوله، قال: هي والله أكثر من أن تحصى اشهدوا على أنفسكم وكفى بالله شهيدًا وملائكته عليكم بشهادة أن لا إله إلا الله مخلصًا لا شريك له في سلطانه ولا نظير له في ملكه، وإني رسول الله بعثني بالحق وإن القرآن إمام من الله وحكم عدل، وإن قبلتي شرط المسجد الحرام لكم قبلة، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد وأمير المؤمنين ولي المؤمنين ومولاهم وأن حقه من الله مفروض واجب وطاعته طاعة الله ورسوله والأئمة من ولده، وأن مودة أهل بيته مفروضة واجبة على كل مؤمن مع إقامة الصلاة لوقتها وإخراج الزكاة من حلها ووضعها في أهلها، وإخراج الخمس من كل ما يملكه أحد من الناس حتى يدفعه إلى ولي المؤمنين وأميرهم ومن بعده من الأئمة من ولده، ومنْ لم يقدم إلا على اليسير من المال فليدفع ذلك إلى الضعفاء من أهل بيتي من ولد الأئمة فإن لم يقدر على

---

(١) لعل مجوز هذا الفعل ومشروعيته ناشئ عن تكاليف خاصة بهم صلوات الله عليهم، أو أنه حصل مع وجود حاجب كقطعة قماش أو ما شاكل ذلك، أو باعتبارها سلام الله عليها أم المؤمنين والله العالم.

(٢) حسين البرجوردي، جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٤٨٢.

ذلك فلشيعتهم ممنْ لا يأكل بهم الناس ولا يريد بهم إلا الله وما وجب عليهم من حقي والعدل في الرعية والقسم بالسوية والقول بالحق وأن الحكم بالكتاب على ما عمل عليه أمير المؤمنين، والفرائض على كتاب الله وأحكامه، وإطعام الطعام على حُبه، وحج البيت والجهاد في سبيل الله وصوم شهر رمضان وغسل الجنابة والوضوء الكامل على اليدين والوجه والذراعين إلى المرافق والمسح على الرأس والقدمين إلى الكعبين لا على خف ولا على خمار ولا على عمامة، والحبّ لأهل بيتي في الله وحبّ شيعتهم لهم والبغض لأعدائهم وحب مَنْ والاهم والعداوة في الله وله والإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومرّه، على أن تحللوا حلال القرآن وتحرموا حرامه وتعملوا بالأحكام وتردوا المتشابه إلى أهله فمن عمي عليه من عمله شيء لم يكن علمه مني ولا سمعه فعليه بعلي ابن أبي طالب عليه السلام فإنه قد علمته ظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه وهو يقاتل على تأويله كما قاتل على تنزيله، وموالاة أولياء الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذريته والأئمة خاصة، ويتولى مَنْ والاهم وشايعهم والبراءة والعداوة لمن عاداهم وشاقهم كعداوة الشيطان الرجيم والبراءة ممَنْ شايعهم وتابعهم، والاستقامة على طريق الإمام، اعلموا أني لا أقدّم على علي عليه السلام أحدًا... إلى أن قال: فهذه شروط الإسلام وقد بقي أكثر، قالوا: سمعنا وأطعنا وقبلنا وصدَّقنا ونقول مثل ذلك، ونشهد لك وعليك ونشهدك على أنفسنا بالرضا به أبدًا حتى نقدم عليك آمنا بسرهم وعلانيتهم ورضينا بهم أئمة وهداة وموالي، قال: وأنا معكم شهيد، ثم قال لهم: وتشهدون أن الجنة حق وهي محرمة على الخلائق حتى

أدخلها، قالوا: نعم، قال: وتشهدون أن النار حق وهي محرمة على الكافرين حتى يدخلها أعداء أهل بيتي والناصبون لهم حربًا وعداوة، وأن لاعنيهم ومبغضيهم وقاتليهم كمن لعنني وأبغضني وقاتلني هم في النار، قالوا: شهدنا على ذلك وأقررنا، قال: وتشهدون أن عليًا عليه السلام صاحب حوضي والذائد عنه وهو قسيم النار يقول ذلك لك فاقبضيه ذميمًا وهذا لي فلا تقربيه فينجو سليمًا، قالوا: شهدنا على ذلك ونؤمن به، قال: وإنا على ذلك شهيد»(١).

وروى السيد ابن طاووس رحمه الله عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «لما كانت الليلة التي أصيب حمزة في يومها دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا حمزة يا عم رسول الله يوشك أن تغيب غيبة بعيدة، فما تقول لو وردت على الله تبارك وتعالى وسألك عن شرايع الإسلام وشروط الإيمان، فبكى حمزة وقال: بأبي أنت وأمي أرشدني وفهمني، فقال: يا حمزة تشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا وأني رسول الله بعثني بالحق، فقال حمزة شهدت، قال: وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها والصراط حق والميزان حق ومَنْ يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومَنْ يعمل مثقال ذرة شرًا يره وفريق في الجنة وفريق في السعير، وأن عليًا عليه السلام أمير المؤمنين، قال حمزة: شهدت وأقررت وآمنت وصدّقت، قال: الأئمة من ذرية ولده الحسن والحسين وفي ذرّيته، قال حمزة: آمنت وصدّقت، وقال: فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، قال: نعم صدقت، قال: وحمزة

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٨٤.

سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله وعمّ نبية، فبكى حمزة وقال: نعم صدقت وبررت يا رسول الله، وبكى حمزة حتى سقط على وجهه وجعل يقبّل عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: جعفر ابن أخيك طيار في الجنة مع الملائكة، وأن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم خير البرية، وتؤمن يا حمزة بسرِّهم وعلانيتهم وظاهرهم وباطنهم، وتحيى على ذلك وتموت توالي مَنْ والاهم وتعادي مَنْ عاداهم، قال: نعم يا رسول الله اشهد الله وأُشهدك وكفى بالله شهيدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سدّدك الله ووفقك»[١].

وعن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «يا علي أنت صاحب حوضي، وصاحب لوائي، ومنجز عداتي، وحبيب قلبي، ووارث علمي، وأنت مستودع مواريث الأنبياء، وأنت أمين الله في أرضه، وأنت حجة الله على بريته، وأنت ركن الإيمان، وأنت مصباح الدجى، وأنت منار الهدى، وأنت العلم المرفوع لأهل الدنيا، من تبعك نجا، ومن تخلف عنك هلك، وأنت الطريق الواضح، وأنت الصراط المستقيم، وأنت قائد الغر المحجلين، وأنت يعسوب المؤمنين وأنت مولى من أنا مولاه، وأنا مولى كل مؤمن ومؤمنة، لا يحبك إلا طاهر الولادة ولا يبغضك إلا خبيث الولادة، وما عرج بي ربي عز وجل إلى السماء قط وكلمني ربي إلا قال: يا محمد اقرأ عليًا مني السلام، وعرفه أنه إمام أوليائي، ونور أهل طاعتي. فهنيئًا لك هذه الكرامة يا علي»[٢]، وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال الله عزَّ

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٨٥.
(٢) البحراني السيد هاشم، غاية المرام، ج١، ص١٧٣.

وجلَّ: لأعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام جائر ليس من الله وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية، ولأعفونَّ عن كل رعية دانت بولاية كل إمام عادل من الله وإن كانت الرعية في أعمالها ظالمة مسيئة»[(١)].

العربي هو المحب

إن لروايات أهل البيت عليهم السلام رأيًا آخر في تفسير معنى العربي والعجمي غير المتعارف بين سائر الناس، فالمتسالم عليه بينهم أن العربي هو مَنْ يتكلم بلغة الضاد وينتمي لأحد القبائل العربية، وغيره العجمي الذي يتكلم غيرها من اللغات وينتسب لغير هذه القبائل، أما الروايات الواردة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام فإن الضابط عندهم في إطلاق لفظ العربي هو محبتهم عليهم السلام، فالمحب هو العربي وإن لم ينطق العربية ولم يره الناس كذلك، فقد روى الشيخ الصدوق أعلى الله مقامه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ضرب كتف علي بن أبي طالب عليه السلام بيده وقال: «يا علي مَنْ أَحَبّنا فهو العربي ومَنْ أبغَضنا فهو العلج، فشيعتنا أهل البيوتات والمعادن والشرف ومَنْ كان مولده صحيحًا، وما على ملة إبراهيم عليه السلام إلا نحن وشيعتنا وسائر الناس منها براء، إن الله وملائكته يهدمون سيئات شيعتنا كما يهدم القدوم البنيان»[(٢)].

---

(١) النعماني الشيخ محمد رضا، الغيبة، ج١، ص١٢٩.
(٢) أحمد المستنبط، القطرة، ج٢، ص٣٢.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العرب وسائر الناس الأعراب»(١)، وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «نحن قريش وشيعتنا العرب وسائر الناس علوج الروم»(٢).

وقد روى ثقة الإسلام الكليني رحمه الله بإسناده عن بعض موالي أبي الحسن عليه السلام قال: «كان عند أبي الحسن موسى عليه السلام رجلٌ من قريش فجعل يذكر قريشًا والعرب، فقال له أبو الحسن عليه السلام عند ذلك: دع هذا، الناس ثلاثة: عربي ومولى وعلج، فنحن العرب وشيعتنا الموالي، ومَنْ لم يكن على مثال ما نحن عليه فهو علج.

فقال القرشي: تقول هذا يا أبا الحسن؟! فأين أفخاذ قريش والعرب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: هو ما قلتُ لك»(٣).

أثر تولي الحق عند الاحتضار وساعة مواراة الإنسان في قبره

لقد أكدت الروايات أن لهم صلوات الله عليهم حضورًا عند المؤمن حين قبض روحه، فليس من المعقول تخليهم عن مَنْ آمن بهم وتولاهم وتحمل الأذى والأسى من أجل ذلك ولم يتخلَ عنهم، فهم أهل المجازاة وأعظم مظاهر الوفاء والتشكر.

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٣١٧.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢٩٩.

إن من أصعب المحن التي يمر بها الإنسان هي حالة النزع، وحينها يكون بأمس الحاجة إلى مَنْ يكون عضدًا له وحاميًا وظهيرًا وليس أحد كأهل البيت عليهم السلام أهل لذلك، وهذا ما أكدته الروايات الواردة عنهم صلوات الله عليهم، منها ما ورد عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك يستكره المؤمن على خروج نفسه؟ قال: فقال: لا والله، قال: قلت: وكيف ذاك، قال: إن المؤمن إذا حضرته الوفاة حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين وجميع الأئمة عليهم الصلاة والسلام، - ولكن أكنوا عن اسم فاطمة - ويحضره جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، قال: فيقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا رسول الله إنه كان ممَنْ يحبنا ويتولانا فأحبه، قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل إنه ممَنْ كان يحب عليًا وذريته فأحبه، وقال جبرئيل لميكائيل وإسرافيل عليهم السلام مثل ذلك، ثم يقولون جميعا لملك الموت: انه ممَنْ كان يحب محمدًا وآله ويتولى عليًا وذريته فأرفق به قال فيقول ملك الموت: والذي اختاركم وكرمكم واصطفى محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة، وخصه بالرسالة لأنا أرفق به من والد رفيق، وأشفق عليه من أخ شفيق، ثم قام إليه ملك الموت فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك رقبتك؟ أخذت رهان أمانك؟ فيقول: نعم، فيقول الملك: فبماذا؟ فيقول: بحبي محمدًا وآله، وبولايتي علي بن أبي طالب وذريته، فيقول: أما ما كنت تحذر فقد آمنك الله منه، وأما ما كنت ترجو فقد أتاك الله به، افتح عينيك فانظر إلى ما عندك، قال: فيفتح عينيه فينظر إليهم واحدًا واحدًا، ويفتح

له باب إلى الجنة فينظر إليها، فيقول له: هذا ما أعد الله لك، وهؤلاء رفقاؤك، أفتحب اللحاق بهم أو الرجوع إلى الدنيا؟ قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما رأيت شخوصه ورفع حاجبيه إلى فوق من قوله: لا حاجة لي إلى الدنيا ولا الرجوع إليها؟ ويناديه مناد من بطنان العرش يسمعه ويسمع مَنْ بحضرته: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد ووصيه والأئمة من بعده ارجعي إلى ربك راضية بالولاية، مرضية بالثواب، فادخلي في عبادي مع محمد وأهل بيته وادخلي جنتي غير مشوبة»[(١)]، وفي مقام التطرق إلى أحوال أرواح المؤمنين في البرزخ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «أرواح المؤمنين في حجرات في الجنة، يأكلون من طعامها، ويشربون من شرابها، ويتزاورون فيها، ويقولون: ربنا أقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا»[(٢)].

وعن أبي رزين، عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: «مَنْ أحبنا لله نفعه حبنا، ولو كان في جبل الديلم، ومَنْ أحبنا لغير ذلك فان الله يفعل ما يشاء، إن حبنا أهل البيت يساقط عن العباد الذنوب كما تساقط الريح الورق من الشجر»[(٣)]، وأنت ترى وضوح الإطلاق في الرواية الذي يدل على عموم الخطاب وشمول الحكم لجميع الموارد ومنها ما يُراد إثباته.

إن المراتب والدرجات التي ينالها الموالي والمحب لأهل البيت عليهم السلام

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٦٣.
(٢) البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٨٥.
(٣) بشارة المصطفى، ص٣.

ليست منحصرة في عالم دون عالم، بل هي شاملة لكل مراحل حياة الإنسان وفي جميعها، ولا يتصور انقطاع ألطافهم عليهم السلام عنه في أي مرحلة من مراحله، فهم باب رحمة الله الواسعة وهم أهل المروءة والإحسان وهم سر الله الأعظم الذي مكنه من الولاية التشريعية والتكوينية ولا يتصور بحق مَنْ له هذا كله التخلي عمَنْ وفى لله بعهده وميثاقه وآتى نبيه أجر ما عاناه من أجل رسالته، فهم صلوات الله عليهم لا يتخلون عن أوليائهم في الشدة والرخاء على حد سواء، ومن أعتى حالات الشدائد التي تمر على الإنسان هي لحظات الانتقال من عالم الدنيا والساعات التي تليها ولهذا وردت روايات كثيرة مؤمنة للموالين ومبينة أنهم عليهم السلام سيكونون موجودين آنذاك وتوصياتهم للموكلين بشؤون العباد حاضرة، وسوف اختصر على ذكر شواهد من تينك الروايات، منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أول مَنْ اتخذ علي بن أبي طالب أخا من أهل السماء إسرافيل ثم ميكائيل ثم جبرائيل، وأول مَنْ أحبه من أهل السماء حملة العرش، ثم رضوان خازن الجنان ثم ملك الموت وأن ملك الموت ليترحم على محبي علي بن أبي طالب كما يترحم على الأنبياء»[1]، وقد يبرر ترحم ملك الموت عليهم؛ لأنهم عليهم السلام يحضرون محبهم ساعة احتضاره ويوصون ملك الموت به، أو أنه يترحم عليه محبة به، وقد ذكر هذا المعنى جليًا بقول الإمام الصادق عليه السلام لمسمع بن عبد الملك البصري وكان من شيعته: «يا مسمع أما أنك سترى -عند موتك- حضور آبائي لك ووصيتهم ملك الموت بك وما

---

(١) سليمان الحلفي، ينابيع المودة، ص٣١.

يلقونك به من البشارة ما تقر بها عينك قبل الموت، فملك الموت أرق عليك وأشد رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها»[(١)]، وحضورهم عليهم السلام في تلك الساعة لم يقتصر على المحبين فقط، بل يحضرون عند كل محتضر مؤمن كان أو كافر ليبشروا المؤمن بحسن العاقبة والجنة والكافر المبغض بسوء العاقبة والنار، وقد تواتر هذا المعنى في أحاديث أهل البيت التي أوردها الفريقان، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لجماعة من المؤمنين: «منكم والله يقبل ولكم والله يغفر، إنه ليس بين أحدكم وبين أن يغتبط ويرى السرور وقرة العين إلا أن تبلغ نفسه ههنا -وأشار بيده إلى حلقه- ثم قال: إنه إذا كان ذلك واحتضر حضره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وجبرائيل وملك الموت عليهم السلام، فيدنو منه علي عليه السلام فيقول: يا رسول الله إن هذا كان يحبنا أهل البيت فأحبه، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرائيل إن هذا كان يحب الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأحبه، ويقول جبرائيل لملك الموت: إن هذا كان يحب الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأحبه وأرفق به، فيدنو منه ملك الموت فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك رقبتك؟ أخذت أمان براءتك؟ تمسكت بالعصمة الكبرى في الحياة الدنيا؟ قال: فيوفقه الله عزَّ وجلَّ، فيقول: نعم، فيقول: وما ذاك؟ فيقول: ولاية علي بن أبي طالب، فيقول صدقت: أما الذي كنت ترجوه فقد أدركته، أبشر بالسلف الصالح مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة عليهما السلام، ثم يسل نفسه سلًا رفيقًا.

وفي بعض طرف الحديث قال الإمام الصادق عليه السلام: وينادي مناد

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات، ص١٣٤.

من بطنان العرش يسمعه ويسمع من بحضرته – أي الذين حضروا قبض روحه من النبي وأهل بيته والملائكة عليهم السلام –، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١]، وقال الإمام علي عليه السلام: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى محمد ووصيه والأئمة من بعده، ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ بالولاية ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ بالثواب، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ محمد وأهل بيته، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ غير مشوبة –أي غير مخلوطة– بكدر وهرم وما شاكل ذلك[٢].

ثم قال الإمام الصادق عليه السلام: ثم ينزل بكفنه من الجنة وحنوطه من الجنة بمسك أذفر فيكفن بذلك الكفن ويحنط بذلك الحنوط، ثم يكسى حلة صفراء من حلل الجنة، فإذا وضع في قبره فتح الله له بابًا من أبواب الجنة يدخل عليه من روحها وريحها، ثم يفتح له عن أمامه مسيرة شهر وعن يمينه وعن يساره، ثم يقال له: نم نومة العروس في فراشها، أبشر بروح وريحان وجنة نعيم ورب غير غضبان، ثم يزوره محمد في جنان رضوى فيأكل من طعامهم ويشرب من شرابهم ويتحدث معهم في مجلسهم حتى يقوم قائمنا أهل البيت، فإذا قام قائمنا بعثهم الله فأقبلوا معه يلبون زمرًا زمرًا، فعند ذلك يرتاب المبطلون ويضمحل المحلون – أي الذين لا يرون حرمة الأئمة ولا يتابعونهم – وقيل ما يكونون، هلكت المحاضير ونجا المقربون، من أجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: أنت أخي وميعاد بيني وبينك وادي السلام، ثم قال علي في بقية حديثه سلام الله عليه: وإذا احتضر الكافر حضره رسول

---

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٨-٣١.

(٢) العلامة الطبرسي، الشيعة والرجعة، ج٢، ص٨١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وجبرئيل وملك الموت فيدنو منه علي عليه السلام فيقول: يا رسول الله إن هذا كان يبغضنا أهل البيت فأبغضه، ويقول: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرائيل إن هذا كان يبغض الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأبغضه وأعنف به، ويقول جبرائيل: يا ملك الموت إن هذا كان يبغض الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأبغضه وأعنف به، فيدنو منه ملك الموت، فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك رقبتك؟ أخذت أمان براءتك من النار؟ تمسكت بالعصمة الكبرى في الحياة الدنيا؟ فيقول: لا، فيقول: أبشر يا عدو الله بسخط الله عز وجل وعذابه والنار، أما الذي كنت تحذره فقد نزل بك، ثم يسل نفسه سلًا عنيفًا، ثم يوكل الله بروحه ثلثمائة شيطان كلهم يبزق في وجهه، ويتأذى بروحه، فإذا وضع في قبره فتح له باب من أبواب النار فيدخل عليه من قيحها ولهبها»[(١)]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ومروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا التفصيل الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام وارد عن أمير المؤمنين عليه السلام مختصرًا حيث قال: «والله لا يحبني عبد أبدًا فيموت على حبي إلا رآني عند موته حيث يحب، ولا يبغضني عبد أبدًا فيموت على بغضي إلا رآني عند موته حيث يكره»[(٢)]، وقد وردت روايات مشابهة عن طرق العامة منها ما رواه أخطب خوارزم الحنفي في "مقتل الحسين"بسنده عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى يأكل من ثمر الجنة، أو من شجر زقوم وحتى يرى ملك الموت ويراني ويرى عليًا وفاطمة والحسن والحسين فإن كان يحبنا قلت: يا ملك الموت ارفق به فإنه كان يحبني وأهل

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٩٧-١٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٩.

بيتي، وإن كان يبغضني ويبغض أهل بيتي، قلت: يا ملك الموت شدد عليه فإنه كان يبغضني ويبغض أهل بيتي، ثم قال ﷺ: لا يحبنا إلا مؤمن ولا يبغضنا إلا منافق شقي»[١].

وقال عليه السلام للحارث الهمداني وكان من خلص شيعته وأصحابه: «يا حارث أبشر ليعرفني والذي فلق الحبة وبرأ النسمة وليي وعدوي في مواطن شتى عند المات وعند الصراط وعند الحوض وعند المقاسمة، فقال الحارث: يا أمير المؤمنين وما المقاسمة؟ فقال عليه السلام: مقاسمة النار قسمة صحاحًا، أقول هذا وليي وهذا عدوي»[٢].

وإلى هذا يشير السيد الحميري حيث يقول:

قول علي لحارث عجب	كم ثم أجوبة له حملا
يا حار همدان من يمت يرني	من مؤمن أو منافق قبلا
يعرفني طرفه وأعرفه	بنعته واسمه وما عملا
وأنت عند الصراط تعرفني	فلا تخف عثرة ولا زللا
أسقيك من بارد على ظمأ	تخاله في الحلاوة العسلا
أقول للنار حين توقد للعرض	دعيه لا تقربي الرجلا
دعيه لا تقربيه إن له	حبلًا بحبل الوصي متصلا
هذا لنا شيعة وشيعتنا	أعطاني الله فيهم الأملا[٣]

وهذا مما لا ريب فيه، ونحن نقسم على الله بحق فاطمة وأبيها

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين، ص١٠٩
(٢) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج٢، ص٢٦٨.
(٣) العلامة الطبرسي، مجمع البيان، ج٢، ص١٣٨.

وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يرزقنا الثبات على موالاتهم ومودتهم ومحبتهم وموالاة ومحبة أوليائهم، فلا يأمننَّ أحد ما دامت روحه لم تفارق بدنه فمزالق الشيطان ومغريات الدنيا لا يستثنى منها أحد والتاريخ زاخر بأسماء أناس كانوا سويين ردحًا من الزمن وآخره وقعوا في شراك إبليس والعياذ بالله فكانوا من الغاوين أمثال السامري الشلمغاني وغيرهم نستجير بالله وإياكم، فعلى المؤمن أن لا يفارقه الرجاء بحسن العاقبة والخوف من سوئها وكما ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «لا يزال المؤمن خائفًا من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزوع روحه وظهور ملك الموت له»[(١)]، نعم لا يحصل اليقين بعد الرجاء للمؤمن إلا وقت حضور أجله إذا حضره نبيه وأهل بيته مع جبرئيل وملك الموت يبشرونه بما سيقدم عليه من نعيم الأبد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[(٢)]، أي تتأكد لهم البشرى فيها عند الاحتضار وفي يوم القيامة عند خروجه من قبره ويوم حشره، ثم ختمت الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[(٣)] حيث أشار بها جلَّ وعلا بأن هذه البشارة من المحتوم الذي لا يتغير ولا يتبدل، وقد ورد في تفسيرها ما جاء عن عقبة بن خالد قال: دخلت أنا والمعلى بن خنيس على

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٧٩.
(٢) سورة يونس، الآية ٦٣-٦٤.
(٣) سورة يونس، الآية ٦٤.

أبي عبد الله عليه السلام فقال: «يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلا هذا الدين الذي أنتم عليه وما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقر به عينه إلا أن تبلغ نفسه إلى هذه وأومأ بيده إلى رقبته ووريده ثم اتكأ -أي الإمام- وغمزني المعلى أن سله، فقلت: يا بن رسول الله إذا بلغت نفسه إلى هذه فأي شيء يرى؟ فقال عليه السلام: يرى، فقلت بضع عشر مرة: أي شيء يرى؟ فقال في آخرها: يا عقبة، فقلت لبيك وسعديك، فقال: أبيت إلا أن تعلم؟ فقلت: نعم يا بن رسول الله إنما ديني مع دمي - أي ديني مقرون بحياتي - ومع عدم الدين فكأني لست بحي، فقال الإمام عليه السلام: عند ذلك يراهما والله، فقلت بأبي أنت وأمي مَنْ هما؟ فقال: هما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام، يا عقبة لن تموت نفس مؤمنة أبدًا حتى تراهما، فقلت: إذا نظر إليهما المؤمن أيرجع إلى الدنيا؟ قال: بل يمضي أمامه، فقلت له: يقولان له شيئًا جعلت فداك؟ فقال: نعم، يدخلان جميعا على المؤمن فيجلس رسول الله عند رأسه وعلي عند رجليه، فيكبو عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: يا ولي الله أبشر أنا رسول الله، إني خير لك مما تترك من الدنيا ثم يكبو عليه علي فيقول: يا ولي الله أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبني أما لأنفعنَّك، ثم قال الصادق عليه السلام: أما إن هذا في كتاب الله، قلت: جعلت فداك أين هذا من كتاب الله؟ قال: في سورة يونس ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾»[١]، وكما يبشر المؤمن عند موته بما تقر به عينه كذلك يبشر

(١) العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص١٢٥.

الفاجر الشقي بما أعد له من الخزي والعذاب كما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «كل نفس ذائقة الموت ومبشورة كذا أنزل بها على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه ليس أحد من هذه الأمة إلا ويبشرون، فأما المؤمنون فيبشرون إلى قرة عين وأما الفجار فيبشرون إلى خزي الله إياهم»[(١)].

وقد يظهر لكل من الطرفين - المؤمن والكافر - ما يبشران به عند حضور المنية وحضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عندهما، بحيث روى الفضيل بن يسار عن الإمامين أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليه السلام أنهما قالا: «حرام على روح أن تفارق جسدها حتى ترى الخمسة محمدًا وعليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا بحيث تقر عينها أو تسخن عينها»[(٢)].

إشكال وجوابه

كيف يحضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عند كل محتضر؟ وكيف نؤمن بذلك وهو مخالف للحس والوجدان من جهة والعقل من جهة أخرى؟

أما مخالفة الحس والوجدان؛ فلأننا نحضر الموتى عند حضور آجالهم إلى قبض أرواحهم ولا نرى عندهم أحدًا، وأما مخالفة العقل؛ فلأنه يمكن قبض أرواح الآلاف من الناس في آن واحد في أمكنة متعددة

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٨٨.
(٢) علي بن عيسى، كشف الغمة، ج٢، ص٤٠.

من شرق الأرض وغربها فكيف يحضرون عند كل من يموت في الشرق والغرب؟

الجواب عن الأول وهو مخالفة الحس:

إن الله قادر على أن يحجبهم عن أبصارنا دون أبصار المحتضرين لضرب من المصلحة وهو على كل شيء قدير والدليل على ذلك ما ورد في أخبار الفريقين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1]، فقد ورد أن الله تعالى طالما أخفى شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أعين أعدائه مع أن أولياءه كانوا يرونه وينظرون إليه.

قال الطبرسي: «﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وهم المشركون ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال الكلبي: وهم أبو سفيان والنضر بن الحرث وأبو جهل وأم جميل امرأة أبي لهب، حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن وكانوا يأتونه ويمرون به ولا يرونه[2]، وقال السيوطي ما نصه: أخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ﴾ الآية قال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا صوته ولم يروه، وهذا مفهوم واضح من نفس الآية الكريمة فتدبر برهانه[3]،

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٦.
(٢) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج٣، ص٤١٨.
(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج٤، ص٤١٨.

وهذا المعنى الذي ذكره المفسرون معنى ظاهرًا من نفس الآية الكريمة فتأملها.

وقد وقع حجب أبصار المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أبصار المؤمنين حفظًا لنبيه من أذاهم مرارًا عديدة ومن ذلك ما أجمع عليه المفسرون والمؤرخون من حجب أبصار المشركين عن رؤيتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة هجرته من مكة إلى المدينة حيث كانت قريش قد بيتته في داره واجتمعت على باب الدار وهم حوالي أربعون نفرًا أو أقل يريدون قتله، وقد أوحى الله تعالى إليه أن يخرج من الدار عند اجتماعهم على بابها وأن يهاجر، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم امتثالًا لأمر ربه وقد تناول قبضة من التراب ووضع منه على رأس كل واحد منهم وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[(١)]، وسار من بينهم ولم يره أحد منهم[(٢)]، والشاهد من ذلك كله أن الله قادر على أن يحجب أبصار الحاضرين دون أبصار المحتضرين عن رؤية النبي وأهل بيته في حالة الاحتضار كما حجب أبصار المشركين عن رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم دون المؤمنين هذا من جهة ومن جهة أخرى هي أن الله جل وعلا يزيد أبصار المحتضرين قوة عند حضور آجالهم ويكشف لهم الحجب ويزيل عنهم الأغطية وبذلك يختصون بهذا الأمر دون غيرهم فيرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام ورؤية أعمالهم مع جزائها من النعيم أو الجحيم.

(١) سورة يس، الآية ٩.
(٢) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج٢، ص٨١.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١].

الجواب عن الثاني:

كيف يحضرون عند كل من يموت في الشرق والغرب....؟ ويرد عليه: أن الإشكال يكون صحيحًا فيما إذا كان الحضور ماديًا والحال أن حضورهم صلوات الله عليهم حضورًا روحيًا، وبذلك يندفع الإشكال؛ لأن الأرواح لها قابلية التنقل في الشرق والغرب، في الدنيا والآخرة من دون قيود هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون المراد -والله أعلم- أن صورهم المثالية لهياكلهم المقدسة تتجلى طبق الأصل تمامًا لكل محتضر مؤمن وكافر محب ومبغض كما تتجلى صورة الشيء في المرآة ولكن مع أرواحهم الشريفة وما أكثر الدلائل الفعلية والوجدانية التي يستدل بها على ذلك ووقوعها بالفعل ومنها ما اخترعه المخترعون من الأقمار الصناعية وآلات التلفاز والفيديو وغيرها التي بواسطة الكهرباء وما أودع الله في هذا الفضاء من قابلية تصور لمتلقيها والحاضرين عندها صور الأشياء وصورة المذيع وتسمع أصواتهم وتريهم حركاته وسكناته طبق الأصل في سائر أنحاء العالم في آن واحد، بل بواسطة الأقمار وآلاتها يصورون لأهل الأرض ما في السماء وما في السماء لأهل الأرض، هذا

(١) سورة ق، الآيات ١٩-٢٢.

ما اخترعه الإنسان، وأين مزاياهم من مزايا المبدع العظيم، أفترى أن الله الذي خلق كل شيء وهو على كل شيء قدير يعجزه أن يجعل كل محتضر يرى مثالًا كاملًا لرسوله وأهل بيته مع أرواحهم الشريفة في نفس اللحظة وإن تكثرت أعدادهم واختلفت أمصارهم!! ليرى محبهم جزاء محبته لله ولرسوله وأهل بيته!!! ويرى مبغضهم أيضًا جزاء بغضه لهم!...

كما ويمكن أن يكون ذلك عن طريق الإزالة وكشف الحجب عن أغطية المحتضرين فيسمعهم الله سبحانه كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ويريهم إياهم صلوات الله عليهم بأجسادهم الطاهرة وأرواحهم المقدسة، وحركاتهم ومحل مساكنهم في جناتهم ومقامهم السامي عند ربهم...

وهناك نصوص تبين أن بعض المحتضرين يحضر عندهم بالإضافة إلى مَنْ مرّ ذكرهم صلوات الله عليهم أصحابهم في الله، منها ما رواه الكليني في الكافي بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انظروا من تحادثون فإنه ليس من أحد ينزل به الموت إلا مُثل له أصحابه إلى الله»[(١)] وفي نص آخر: «مثلت له أصحابه في الله إن كانوا أخيارًا فخيارًا، وان كانوا أشرارًا فشرارًا وليس أحد يموت إلا تمثلتُ له عند موته»[(٢)].

(١)عبد الحسين المظفر، الشافي في شرح أصول الكافي، ج٧، ص٢٣٣.
(٢)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

سلامة البرزخ في الولاية

ورد في روايات عديدة أن السلامة من أهوال البرزخ مرهونة بإقرار العبد بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وإن كان في بعضها ما يشير بأنها عاصمة لأصحابها من عذاب الله يوم القيامة خاصة، فبعض العقوبات البرزخية تعترض بعض الموالين ويناهم منها بقدر ما بقي فيهم من أدران الذنوب التي لم تستوفها الابتلاءات في الدنيا، وشدة النزع حين خروج الروح، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ»[1]، وعنه عليه السلام: «والله أتخوف عليكم في البرزخ، قلت: وما البرزخ؟، فقال: القبر، منذ حين موته إلى يوم القيامة»[2]، ومن الروايات التي أشارت إلى فاعلية التولي في القبر ما ورد عن أبي هريرة، في قوله «يُثَبِّتُ الله الذين آمَنوا بالقول الثابت» يعني بقوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله في الحياة الدنيا.

ثم قال: «وفي الآخرة»؟ قال: هذا في القبر يدخلان عليه ملكان فظّان غليظان يحفران القبر بأنيابهما وأصواتهما كالرعد العاصف وأعينهما كالبَرق الخاطف، ومع كل واحد منهما مرزبة فيها ثلثمائة وستون عقدة، في كل عقدة ثلثمائة وستون حلقة، وزن كل حلقة كوزن حديد الدنيا، لو اجتمع عليها أهل السماء والأرض أن يقلوها ما أقلوها، هي في أيديهم أخفُّ من جناح بعوضة فيدخلان القبر على الميت ويجلسانه في قبره ويَسألانه: من ربك؟ فيقول المؤمن: الله ربيّ، ثم يقولان: فمن نبيّك؟

(١) الحويزي عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥٥٣.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فيقول المؤمن محمد نبيّي، فيقولان ما قبلتك؟ فيقول المؤمن: الكَعبة قبلتي، فيقولان له: مَنْ إمامك؟ فيقول المؤمن: إمامي علي بن أبي طالب، فيقولان له: صدقت، ثم قال: «ويضلّ الله الظالمين» يعني عن ولاية علي في القبر، والله ليُسألنّ عن ولايته على الصراط، والله ليسألن عن ولايته يوم الحساب.

ثم قال سفيان بن عيينة ومَن روى عن ابن عباس: إن المؤمن يقول: القرآن إمامي فقد أصاب أيضًا، وذلك أن الله تعالى بيّن إمامة علي عليه السلام في القرآن)[١]، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أراد التوكل على الله فليحب أهل بيتي، ومَنْ أراد أن ينجو من عذاب القبر فليحب أهل بيتي، ومَنْ أراد الحكمة فليحب أهل بيتي، ومَنْ أراد دخول الجنة بغير حساب فليحب أهل بيتي، فو الله ما أحبهم أحد إلا ربح في الدنيا والآخرة»[٢]، وعن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا سلمان مَنْ أحب فاطمة ابنتي فهو في الجنة معي، ومَنْ أبغضها فهو في النار، يا سلمان حب فاطمة ينفع في مائة موطن أيسر تلك المواطن الموت والقبر والميزان والمحشر والصراط والمحاسبة فمَنْ رضيت عنه ابنتي فاطمة رضيت عنه، ومَنْ رضيت عنه رضي الله عنه، ومَنْ غضبت عليه فاطمة غضبت عليه، ومَنْ غضبت عليه غضب الله عليه، يا سلمان ويل لمن يظلمها ويظلم ذريتها وشيعتها»[٣].

(١) ابن شهرآشوب، المناقب، ج٣، ص٢٢٤.
(٢) ابن شاذان محمد بن أحمد، إيضاح دفائن النواصب، ص٣٤.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٧، ص١١٩.

الولاية مفتاح دخول الجنة

روي عن جابر: قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «حدّثني أبي محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنتُ عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنا من جانب وعلي أمير المؤمنين عليه السلام من جانب، إذ أقبل عمر بن الخطاب ومعه رجلٌ قد تَلَبّب به، فقال: ما باله؟ قال: حكى عنك يا رسول الله أنك قلت: مَنْ قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة، وهذا إذا سمعه الناس فَرّطوا في الأعمال! أفأنت قُلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، إذا تَمَسَّكَ بمحبة هذا وولايته أي بمحبة علي عليه السلام»[١].

وورد عن الإمام موسى بن جعفر عن جدّه عليهم أفضل الصلاة والسلام عن جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني لأرجو لأمتي في حبّ علي كما أرجو في قول لا إله إلا الله»[٢].

وروي عن زيد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام، عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام، عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «مَنْ مات يوم الخميس بعد زوال الشمس إلى يوم الجمعة وقت الزوال وكان مؤمنًا أعاذه الله عزّ وجلّ من ضغطة القبر، وقبل شفاعته في ربيعة ومضر.

ومَنْ مات يوم السبت من المؤمنين لم يجمع الله بينه وبين اليهود في النار أبدًا.

---

(١) الطوسي الشيخ محمد، الأمالي، ص١٧٦.
(٢) الطبري، بشارة المصطفى، ج١، ص١٧٧.

ومَنْ مات يوم الاثنين من المؤمنين لم يجمع الله بينه وبين النصارى في النار أبدًا.

ومَنْ مات يوم الثلاثاء من المؤمنين حشره الله عزّ وجلّ معنا في الرفيق الأعلى.

ومَنْ مات يوم الأربعاء من المؤمنين وَقاه الله تعالى يوم القيامة وأسعده بمجاورته، وأحله دار المقامة من فضله، لا يمسُّه فيها نصبٌ ولا يَمسُّه فيها لغوب.

ثم قال عليه السلام: المؤمن على أي الحالات مات وفي أي يوم وساعة قُبض فهو صدِّيق شهيد، ولقد سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لو أن المؤمن خرَجَ من الدنيا وعليه مثل ذنوب أهل الأرض لكان الموت كفّارة لتلك الذنوب.

ثم قال عليه السلام: مَنْ قال لا إله إلا الله بإخلاص فهو بريءٌ من الشرك، ومَنْ خرَج من الدنيا لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من شيعتك ومحبيك يا علي، قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت: يا رسول الله هذا لشيعتي؟

قال: أي وربي إنه لشيعتك، وإنهم ليخرجُون يوم القيامة وهم يقولون: «لا إله إلا الله محمد رسول الله علي بن أبي طالب حجة الله» فيؤتون بحُلل خُضر من الجنة وأكاليل من الجنة ونجائب من الجنة فيلبس كل واحد منهم حلة خضراء، ويوضع على رأسه تاج الملك

في إكليل الكرامة، ثم يركبون النجائب فتَطيرُ بهم إلى الجنة لا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون»[١].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أكُلُّ من قال: «لا إله إلا الله» مؤمن؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: إن عداوتنا تلحق باليهودي والنصراني إنكم لا تدخلون الجنة حتى تُحبوني وكذب من زعم أنه يُحبّني ويبغض هذا- يعني علي بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جالسًا وعنده نفر من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال رجلان من أصحابه فنحن نقول أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما تقبل شهادة أنْ لا إله إلا الله من هذا ومن شيعته الذين أخذ ربنا ميثاقهم وأشار إلى علي عليه السلام- فقال الرجال: فنحن نقول أن لا إله إلا الله! فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على رأس علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قال: علامة ذلك ألا تُحِلا عقده ولا تجلسا مجلسه ولا تُكذبا حديثه»[٣].

وروي عن المفضل بن عمر الجعفي قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «إن الله تعالى ضمن للمؤمن ضمانًا.

قال: قلت: ما هو؟

(١) المصدر السابق، ج٣، ص١٢٠.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ج١، ص٢٢.

قال عليه السلام: ضمن له إن أقرّ لله تعالى بالربوبية ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة ولعلي عليه السلام بالإمامة وأدى ما افترض عليه أن يسكنه في جواره.

قال: فقلت هذه والله الكرامة التي لا تشبهها كرامة الآدميّين.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: اعملوا قليلًا تنعموا كثيرًا»(١).

وعن أبان بن تغلب قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا قدمت الكوفة إنْ شاء الله فاروِ عني هذا الحديث: مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وجَبت له الجنة، فقلت: جُعِلتُ فداك يجيئني كل صنف من الأصناف فأروي لهم هذا الحديث؟ قال: نعم يا أبان بن تغلب، إنه إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في روضة واحدة فيُسلب «لا إله إلا الله» إلا من كان على هذا الأمر»(٢).

وروي عن إسحاق بن راهويه قال: لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور فأراد أن يرحل منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا: يا ابن رسول الله ترحل عنا ولا تُحدّثنا بحديث نستفيده منك، وكان قد قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: «سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت

(١) الطبري، بشارة المصطفى، ج٢، ص٩٢.
(٢) البرقي، المحاسن، ج١، ص١٨١.

الله عزّ وجلّ يقول: لا إله إلا الله حِصني فمنْ دخل حصني أمِنَ من عذابي، فلما مرّت الراحلة نادى: بشروطها وأنا من شروطها»[(١)].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: دخلت على محمد بن علي عليهما السلام وقلت: يا بن رسول الله حدثني بحديث ينفعني، فقال: «يا أبا حمزة، كُلٌّ يدخل الجنة إلا من أبى، قال: قلت: يا بن رسول الله أحدٌ يَأبى أن يدخل الجنة؟! قال: نعم، قال: قلت: مَنْ؟

قال: مَنْ لم يَقُل لا إله إلا الله محمد رسول الله

فقال: قلت: يا بن رسول الله لا أروي هذا الحديث عنك! قال: ولم؟

قلتُ: إني تركت المرجئة والقَدَرية والحَرورية وبني أمية كلٌّ يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله قال: أيهات أيهات، إذا كان يوم القيامة سَلَبهُم الله تعالى إياها، لا يقولها إلا نحن وشيعتنا، والباقون براء، أما سمعت الله يقول: "يوم يقوم الروُح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صوابًا"[(٢)]، قال: مَنْ قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله»[(٣)].

وروي عن الإمام الرضا، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبرئيل، عن ميكائيل، عن إسرافيل، عن الله عز وجل: «أن عليًا

---

(١) الصدوق، ثواب الأعمال، ج١، ص٢١.
(٢) سورة النبأ، الآية٣٧.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٠٦

حُجّتي في السماوات والأرضين على جميع مَنْ فيهنّ من خلقي، لا أقبل عمل عامل منهم إلا بالإقرار بولايته مع نبوّة أحمد رسولي، وهو يدي المبسوطة على عبادي، وهو النعمة التي أنعمت بها على مَنْ أحببتُه من عبادي، فمَنْ أحببته من عبادي وتوليته عرَّفته ولايته ومعرفته، ومَنْ أبغضتُه من عبادي أبغَضتُه لانصرافه عن معرفته وولايته، فبعزتي حَلفت، وبجلالي أقسمت، إنه لا يتولى عليًّا عبد من عبادي إلا زحزحته عن النار وأدخلته الجنة، ولا يُبغضه عبدٌ من عبادي ويعدل عن ولايته إلا أبغضته وأدخلته النار وبئس المصير»[١].

وعن موسى بن عبد ربه، قال: سمعت الحسين بن علي عليهما السلام يقول في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك في حياة أبيه علي عليه السلام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

أول ما خلق الله عزّ وجلّ حجبه فكتب على أركانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وصيه، ثم خلق العرش فكتب على أركانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وصيه، ثم خلق الأرضين فكتب على أطوادها: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وصيه، ثم خلق اللوح فكتب على حدوده: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وصيه، فمَنْ زعم أنه يحب النبي ولا يحب الوصي فقد كذب، ومَنْ زعم انه يعرف النبي ولا يعرف الوصي فقد كفر، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: ألا إن أهل بيتي أمان لكم، فأحبّوهم لحبي وتمسّكوا بهم لن تضلوا.

(١) المصدر السابق، ج٦٨، ص٨.

قيل: فمَنْ أهل بيتك يا نبي الله؟

قال: علي وسبطاي وتسعة من ولد الحسين أئمة أبرار وأمناء معصومون، ألا إنهم أهل بيتي وعترتي من لحمي ودَمي»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قال لا إله إلا الله تَفتحتْ له أبواب السماء، ومَنْ تلاها بمحمد رسول الله تهلّلَ وجه الحق سبحانه واستبشر بذلك، ومَنْ تلاها بعَلي ولي الله غفر الله ذنوبه ولو كانت بعدد قطر المطر ومنْ غفرت ذنوبه دخل الجنة»[٢].

وحدة الطينة

لقد تقدمت الإشارة إلى أن الشيعة خلقوا من فاضل طينة آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ويعد هذا الأمر سرًا من أسرار الخليقة والأسباب التي من أجلها يكتب للشيعة النجاة يوم القيامة وكذلك السبب الذي يحرك قلوب الشيعة تجاه أهل البيت عليهم السلام، وبه تبقى عامرة بالإيمان، فهو الأمان لهم من المنزلق، وقد ورد في الروايات ما يثبت ويؤكد هذه الحقيقة، منها ما روي عن علي بن الحسين، عن أبيه عليهما السلام أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ خلَقَ عليّين، وخلق طينتنا منها، وخَلقَ طينة محبّينا منها، وخلقَ سجين وخلقَ طينة مُبغضينا منها، فأرواح محبّينا تتوقف إلى ما خلقت منه»[٣].

(١)البرقي، كفاية الأثر، ص١٧١.
(٢)ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج٥، ص١٤٧.
(٣)الإحسائي ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، ص٦٦.

وعن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن في الفردوس لعينًا أحلى من الشهد، وألينَ من الزّبد، وأبرد من الثلج، وأطيبَ من المسك، فيها طينة خلقنا الله تعالى منها، وخلق منها شيعتنا، فمن لم يكن من تلك الطينة فليسَ منا، ولا من شيعتنا، وهي الميثاق الذي أخذ الله عزّ وجلّ عليه ولاية علي بن أبي طالب»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن الله خلقنا من نور عظمته، ثم صوّر من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكنَ ذلك النور فيه، فكنا نحن خلقًا وبَشرًا نورانيِّين لم يجعل لأحد في مثل الذي خَلَقنا من نصيبًا، وخلَقَ أرواح شيعتنا من طينتنا، وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفَل من تلك الطينة، ولم يجعل الله لأحَد في مثل الذي خَلَقَهُم منه نصيبا إلا للأنبياء، ولذلك صِرْنا نحن وهُم: الناس، وصار سائر الناس همج للنار وإلى النار»[(٢)].

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي: «ألا أُبَشرك يا علي؟

قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: أنا وأنت وفاطمة والحسَن والحسين خُلقنا من طينة واحدة، وفضلت منها فضلة فجعل منها شيعتنا ومُحبّونا، فإذا كان يوم القيامة دُعي الناس بأسمائهم وأسماء أمّهاتهم ما خلا نحن وشيعتنا ومُحبّينا

(١) الحافظ الكنجي، كفاية الطالب، ص١٧٩.
(٢) العسقلاني، لسان الميزان، ج٤، ص١٢٤.

فإنهم يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم»[(١)].

روى الصفار بإسناده عن رجل من بني حنيفة قال: كنت مع عمي، فدخل على علي بن الحسين عليه السلام فرأى بين يديه صحائف ينظرُ فيها، فقال له: أيُّ شيء هذه الصحيفة جُعِلتُ فداك؟ فقال: (هذه ديوان شيعتنا، قال: أفتأذَنُ لي أطلب اسمي فيه؟ قال: نعم قال: فإني لست أقرأ وابن أخي على الباب فتأذن له يدخل حتى يقرأ قال: نعم، فأدخلني عمي فنَظرتُ في الكتاب، فأوّل شيء هجمتُ عليه اسمي. فقلت: اسمي ورب الكعبة، فقال: ويحك فأين أنا؟ فجزت بخمسة أسماء أو ستّة ثم وجدت اسم عمّي، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: أخذَ الله ميثاقهم على ولايتنا لا يزيدون ولا ينقصون، أن الله خلَقَنا من علّيّين وخلق شيعتنا من طينة أسفل من ذلك، وخلق عدوّنا من سجّيل، وخلق أولياءهم من أسفل من ذلك (النار)[(٢)].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن الله خلقنا من عليّين، وخلَقَ أرواحنا من فوق ذلك، وخلق أرواح شيعتنا من علِّيين وخلق أجسادهم من دون ذلك، فمن أجل ذلك القرابة بيننا وبينهم، وقلوبنا تحنّ إليهم»[(٣)].

وروى الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي الحسن عليه السلام: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عادانا ومَنْ والاهم فقد والانا، لأنهم منا خُلِقُوا من

(١) الطبري محمد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، ص٢٠.
(٢) الصفار محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص١٧٢.
(٣) الأصفهاني محمد تقي، مكيال المكارم، ج١، ص٣٧.

طينتنا، مَنْ أحبّهم فهو منا ومَنْ أبغَضهُم فليسَ منّا... إلى أن قال: ومَنْ رد عليهم فقد ردّ على الله، ومَنْ طعن عليهم فقد طعَنَ على الله، لأنهم عباد الله حقًا وأولياؤه صدقًا»[(١)].

وروى العلامة الطبري بإسناده عن أبي عاصم عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: «شيعتنا جزءٌ منا خُلِقُوا من فضل طينتنا، يسوؤهم ما يسوؤنا، ويسرّهم ما يَسرُّنا، فإذا أرادنا أحد فليقصدهم فإنهم الذي يوصل منا إلينا»[(٢)].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «مَنْ عادى شيعتنا فقد عاداني، ومَنْ والاهم فقد والاني، لأنهم منا، خلِقوا من طينتنا، مَنْ أحبهم فهو منا، ومَنْ أبغضَهُم فليس منا»[(٣)].

وعن أبي بصير قال: «دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام ومعي رجلٌ من أصحابنا، فقلت له: جُعِلتُ فداك يا بن رسول الله إني لأغتَمُّ وأحزَنُ من غير أن أعِرفُ لذلك سَببًا، فقال: إن ذلك الحُزن والفَرح يصل إليكم منا، لأنا إذا دخَلَ علينا حُزن أو سرور كان ذلك داخلًا عليكم، لأنا وإيّاكم من نور الله تعالى، فجعلنا طينتنا وطينتكم واحدة، ولو تركت طينتكم كما أخذت لكنا وإيّاكم سواء، لكن مُزِجَت طينتكم بطينة أعدائكم فلولا ذلك ما أذنبتُم ذنبًا واحدًا.

قال: قلت جُعِلتُ فداك فتعود طينتنا ونورنا كما بدأ؟

---

(١) الشيخ الصدوق، صفات الشيعة، ص٣.
(٢) الطبري محمد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، ص١٩٦.
(٣) الأصفهاني محمد تقي، مكيال المكارم، ج١، ص٤٥٥.

فقال عليه السلام: إي والله يا عبد الله، أخبرني عن هذا الشعاع الزاخر من القُرص إذا طلع أهو مُتصل به أم بائِن منه؟

فقال: أفليسَ إذا غابت الشمس وسقط القرص عاد إليه فاتّصلَ به كما بدأ؟

فقلت له: نعم.

فقال عليه السلام: كذلك والله شيعتنا من نور الله خُلقوا وإليه يعودون، والله إنكم لَمُلحَقُون بنا يوم القيامة، وإنا لنشفع ونشفع، والله إنكم لتشفعون فتشفعون، وما من رجل منكم إلا وتُرفَع له نارٌ عن شماله وجنّةٌ عن يمينه فيدخُل أحباؤه الجنة وأعداؤه النار»[١].

عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن محمد بن علي زين العابدين عليهما السلام، انه أتاه رجل فقال: أخبرني بحديث فيكم خاصة.

قال: «نعم، نحن خُزّان علم الله، وورثة وحي الله، وحَمَلَة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبّنا إيمان وبُغضنا نفاق، مُحبّونا في الجنة ومُبغضونا في النار، خُلِقنا وربّ الكعبة من طينة عذب لم يخلق منها سوانا، وخُلقَ محبّونا من أسفل، فإذا كان يوم القيامة ألحقت السفلى بالعليا، فأين ترى الله يفعل بنبيّه؟ وأين ترى يفعل نبيّه بولده؟ وأين ترى ولده يفعلون بمحبيّهم وشيعتهم؟ كل إلى جنان رب العالمين»[٢]

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليلة

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٨١.
(٢) الطبري، بشارة المصطفى، ص١٥٨.

أسري بي إلى السماء أوحى الله إليَّ يا محمد على من تخلي أُمتك؟ قلت: اللهم عليك، قال: صدقت أنا خليفتك على الناس أجمعين، يا محمد قلت:

لبيك وسعديك يا رب، قال: إني اصطفيتك برسالاتي وأنت أميني على وحيي، ثم خَلَقتُ من طينتك الصدِّيق الأكبر خير الأوصياء جعلت له الحسن والحسين، أنت يا محمد وعلي غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمرها، خلقتكم من طين في علِّيين، وجعلت شيعتكم من بقية طينتكم، فلأجل ذلك قلوبهم وأجسادهم تهوي إليكم»(١).

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: «إن الله خلق محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم من طينة من جوهرة تحت العرش، وإنه كان لطينته نضج فجبل طينة أمير المؤمنين عليه السلام من نضج طينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لطينة أمير المؤمنين عليه السلام نضج فجبل طينتنا من فضل طينة أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت لطينتنا نضج فجبل طينة شيعتنا من نضج طينتنا، فقلوبهم تحنُّ إلينا، وقلوبنا تعطف عليهم تعطف الوالد على الولد، ونحن خيرٌ لهم وهم خيرٌ لنا، ورسول الله لنا خير ونحن له خير»(٢).

وروى الصفار بإسناده عن الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:(إن الله خَلَقنا من أعلى علِّيين، وخلَقَ قلوب شيعتنا مما خُلِقْنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خُلقت مما خلِقنا منه، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَا

(١) التستري نور الله، إحقاق الحق، ج٤، ص٣٤١.
(٢) الصفار، البصائر، ج١، ص٣٤.

أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

وخلق عدوّنا من سجّين، وخلق قلوب شيعتهم مما خلَقَهُم منه وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إليهم، لأنها خُلِقَت مما خلِقوا منه، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله عجَنَ طينتنا وطينة شيعتنا فخلطنا بهم وخَلَطهم بنا، فَمَن كان في خلقه شيءٌ من طينتنا حنّ إلينا، فأنتم والله منا»[٢].

وروى عن الفضل بن عيسى الهاشمي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام أنا وأبي عيسى، فقال له: أَمِنْ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلمان رجل منا أهل البيت؟ فقال: «نعم، فقال: أي من وُلد عبد المطلب؟! فقال: منا أهل البيت، فقال له: أي من ولد أبي طالب؟! فقال: منا أهل البيت، فقال له: إني لا أعرفه!

فقال: فاعرفه يا عيسى فإنه منّا أهل البيت.

ثم أومَأ بيده إلى صدره ثم قال: ليس حيث تذهب، إن الله خلق طينتنا من علّيين وخلق طينة شيعتنا من دون ذلك، فهم منّا، وخلق طينة عدوّنا من سجّين، وخلَقَ طينة شيعتهم من دون ذلك وهم

(١) المصدر السابق، ج١، ص٧.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٦.

منهم، وسلمان خيرٌ من لُقمان»[١].

وروى عن السيد ابن طاووس قدس سره أنه دخل السرداب المقدّس في سامراء وقد سمع هذه الكلمات من صاحب الأمر صلوات الله عليه ولم يَرَ شخصَه: «اللهم إن شيعتنا خُلِقُوا من فاضل طينتنا وعُجِنُوا بماء ولايتنا، اللهُم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوا اتكالًا على حُبِّنا، ووَلِّنا يوم القيامة أمورهم، ولا تؤاخذهم بما اقترفوا من السّيئات إكرامًا لنا، ولا تعاقبهم يوم القيامة مقابل أعدائنا، وان خفّت موازينهم فثقّلها بفاضل حسناتنا»[٢].

تتمة البحث

قال العلامة المحدّث الجزائري طاب ثراه: إني ذكرت تحقيقًا في أحاديث الطينة في شرحي لكتاب توحيد ابن بابويه رحمه الله يليق به أن يُكتب بالنور على صفحات خدود الحور وهو أنه ورد في صحيح الأخبار المتواترة من طريق العامة والخاصّة: إن الله تعالى خلق طينة المؤمن من طينة علّيين أعلى مكان في الجنة طينة حلوة طيّبة مباركة، وخلق طينة الكافر من سجّين أسفل مكان في النار طينة مالحة خبيثة منتنة، ثم جاء التكليف بعد خلق الطينتين في هذا العالم.

ويتفرّع على هذا أن بعضهم دخل في السعادة الأبدية أعني الإيمان،

(١) المستنبط أحمد، القطرة، ج١، ص٢٩٦
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وبعضهم في الشقاوة السرمدية أعني الكفر، وقد تعلّق بهذا الأشاعرة والجبرية وقالوا: هذا هو الجبر الصريح، وأما الكفار فجعلوا هذا عذرًا لهم في ترك التكاليف.

وقد اضطرب علماء الإسلام في الجواب عن هذه الشبهة سيّما أصحابنا قدّس الله أرواحهم وأجابوا عنه بوجوه:

الأول: ما قاله المرتضى طيّب الله ثراه من أن الأخبار الواردة في باب الطينة من أخبار الآحاد وهو لا يعمل بها، فردّها من هذا الباب.

الثاني: ما حكي من ابن إدريس وغيره من أنها أخبار متشابهة مثل متشابه القرآن، فكما يجب تسليمه والوقوف عليه من غير خوض في معناه فكذا متشابه الحديث.

الثالث: أن تلك الأخبار من باب المجاز لا الحقيقة، كما يقال فلان ما أحسن طينته وما أخبث طينة فلان، تريد أخلاق الأول وقبح أعمال الثاني وسوء أخلاقه.

الرابع: وربّما وقع في بعض الأخبار إيماءٌ، إليه هو إن الله سبحانه لما علم أن المؤمن يختار الإيمان في عالم التكليف خلق طينته من علّيين، ولما علم من حال الكافر أنه يختار الكفر بإرادته من غير جبر خلق طينته من سجّين.

الخامس: وهو الأصوب في الجواب عن هذه الشبهة وهو الذي خطر لنا من الجمع بين أخبار هذا الباب والتوفيق بينها وهو أنه ورد

في الأخبار المستفيضة، بل المتواترة الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ الآية، أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجسام بألفي عام أو أربعة عشر ألفًا أو أربعين ألفًا أو غير ذلك، وأمرها ونهاها: أمرها بالتوحيد والرسالة والإمامة في قوله: «ألست بربّكم ومحمد نبيّكم وعلي إمامكم» وهكذا كان في تأويل الآية...فقبلها بعض وأبى آخرون ثم أجج نارًا فقال لأهل اليمين وهم أنتم يعني الشيعة: ادخلوها فدخلوها فجعلها عليهم بردًا وسلامًا، وقال لأهل الشمال: ادخلوها، فقالوا: ربّنا لا طاقة لنا بحرّها، فقال: إلى ناري ولا أبالي، فلما وقع هذا التكليف في العقائد والأعمال، وتميّز احد الفريقين من الآخر وضع لتلك الأرواح وبنى لها المساكن المناسبة لها فخلق طينة من قبل الأوامر من علّيين، وخلق طينة من أبى عن الامتثال من سجّين، فارجع كل عامل إلى عمله، فتلك الأعمال السابقة سبب للطينة، لا أن الطينة سبب للأعمال كما توهّمه جماعة من علماء الإسلام.

ونظيره في عالم الشهود: «أن المولى إذا كان له عبد مطيع وآخر عاص فأسكن الأوّل في بيت حسن البنيان والآخر في دار قبيحة، عُدّ عند العقلاء من الحكماء المحسنين؛ لأنه وضع كلّ شيء في موضعه اللائق به، ولو عكس تناولته الألسن وعدّه العقلاء من الظالمين.

وبعد ما كتبنا هذا الوجه الوجيه رأيناه في شرح أصول الكافي للمولى المحقق المولى صالح المازندراني فحمدنا الله على الوفاق»(١).

(١) الجزائري نعمة الله، زهر الربيع، ص٣٠٠.

وفيما يؤيده ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يا علي إن الله يُحبك ويُحب مَنْ يُحبك، وإن الملائكة تستغفر لك ولشيعتك ولمحبي شيعتك، وإذا كان يوم القيامة نادى مناد، أين مُحبّو علي؟ فيقوم قومٌ من الصالحين، فيقال لهم: خذُوا بيد مَنْ شئتم وادخلوا الجنة، وإن الرجل الواحد ينجي من النار ألف رجل.

ثم ينادي المنادي: أين البقية من محبي علي؟

فيقوم قومٌ مقتصدون، فيقال لهم: تمنّوا على الله ما شئتم، فيعطي كل واحد منهم ما طلب.

ثم ينادي: أين البقية من محبي علي؟ فيقوم قومٌ قد ظَلَموا أنفسهم.

فيقال: أين مبغضو علي؟ فيقوم خَلقٌ كثير، فيقال: اجعَلوا كل ألف من هؤلاء لواحد من محبي علي، فيجعل أعمال أعدائك لمحبيك فينجون من النار، وأنت الأجل الأكرم، وأنت العلي العظيم، مُحبك محب الله ورسوله، ومبغضك مبغض الله ورسوله)[(١)].

ومما يتمم هذا الدليل والتأويل ما رواه جرير عن ابن عمر، عن أبي هريرة، عن ابن عباس قال:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد سَجدَ خمس سَجدات بغير ركوع، فقلت: يا رسول الله ما هذا؟

فقال: جاءَني جبرئيل فقال لي: يا محمد، الله يُحبْ عليًا فسجَدتُ،

(١) البرسي، مشارق أنوار اليقين، ص١٥٢.

ثـم رفعـت رأسي فقـال لي: إن الله يحـب الطاهـرة الزكيـة فاطمـة فسَـجدت، ثـم رفعـت رأسي فقـال لي: إن الله يحـب الحسـن فسَـجدتُ، ثـم رفعـتُ رأسي فقـال لي: إن الله يحـب الحسـين فسـجَدتُ، ثـم رفعـت رأسي فقـال لي: إن الله يُحِـبْ مـن أحبّهـم فسَـجدتُ[١].

قولـه عليه السلام لرميلـة: وكان قـد مـرض وأبـلّ، وكان مـن خـواص شـيعته، فقـال لـه: «وعكـت يـا رميلـة، ثـم رأيـت خفًا فأتيـت إلى الصـلاة؟ قـال: نعـم يـا سـيدي ومـا أدراك؟ فقـال: يـا رميلـة مـا مـن مؤمـن ولا مؤمنـة مـرض إلا مرضنـا لمرضـه، ولا حَـزِن إلا حزنّـا لحُزنـه، ولا دَعـا إلا أمّنـا عـلى دعائـه ولا سَـكت إلا دعونَـا لـه، ومـا مـن مؤمـن ولا مؤمنـة في المشـارق والمغـارب إلا ونحـن معـه»[٢].

وروى العلامـة الطريحـي مُرسـلًا عـن جعفـر بـن محمـد عليه السلام قـال: «نفـس المهمـوم لظلمنـا تسـبيح وهمّـهُ لنـا عبـادة وكتـمان سرِّه جهـاد في سـبيل الله، ثـم قـال أبـو عبـد الله عليه السلام: يجـب أن يكتـب هـذا الحديـث بـماء الذهـب»[٣].

وقـال عليه السلام: «رحـم الله شـيعتنا إنهـم أوذوا فينـا ولم نـوذ فيهـم، شـيعتنا منـا قـد خُلِقـوا مـن فاضـل طينتنـا وعُجِنُـوا بنـور ولايتنـا، رضُـوا بنـا أئمـة ورضينـا بهـم شـيعة يصيبهـم مصابنـا وتبكيهـم أوصابنـا ويحزنهـم حزننـا ويسرّهـم سرورنـا، ونحـن أيضًـا نتـألم لتألمهـم ونطلـع عـلى أحوالهـم فهـم

(١) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٧
(٣) الطريحي، المنتخب، ص٢٦٨.

معنا لا يفارقونا ولا نفارقهم لأن مرجع العبد إلى سيِّده ومعوّله على مولاه، فهم يهجُرون مَنْ عادانا، ويجهَرون بمدح مَنْ والانا، ويُباعدون مَنْ آذانا.

اللهم أحي شيعتنا في دولتنا وأبقهم في مُلكنا، اللهم ملكتنا، اللهُم إن شيعتنا منا ومضافين إلينا فمَنْ ذكر مصابنا وبكى لأجلنا أو تباكى استحى الله إن يُعَذّبه بالنار»(١).

وروى العلامة الشيخ المفيد قدس سره بسنده عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام إذ دخل المفضل بن عمر، فلما بصر به ضحك إليه، ثم قال: «إليَّ يا مفضل، فوَ ربي إني لأحبّك وأحبّ مَنْ يحبك، يا مفضل لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلفَ اثنان.

فقال له المفضل: يا بن رسول الله لقد حسبت أن أكون قد أنزلتُ فوق منزلتي.

فقال عليه السلام: بل أنزلت المنزلة التي أنزلك الله بها.

فقال: يا بن رسول الله فما منزلة جابر بن يزيد منكم؟

قال: منزلة سلمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال: فما منزلة داود بن كثير الرقي منكم؟ قال: منزلة المقداد من رسول الله صلى الله عليه وآله: ثم أقبل عَليَّ فقال: يا عبد الله بن الفضل إن الله

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

تبارك وتعالى خَلَقنا من نور عظمته وصنعنا برحمته وخلق أرواحكم منا، فنَحنُ نحنُّ إليكم وأنتم تحنّون إلينا، والله لو جهد أهل المشرق والمغرب أن يزيدوا في شيعتنا رجلًا أو ينقصوا منهم رجلًا ما قدروا على ذلك، وإنهم لمكتوبون عندنا بأسمائهم وأسماء أبائهم وعشائرهم وأنسابهم.

يا عَبد الله بن الفَضل ولو شئت لأريتُك اسمك في صحيفتنا، قال: ثم دعا بصيحفة فنشرها فوجَدتها بيضاء ليسَ فيها أثر الكتابة.

فقلت: يا ابن رسول الله ما أرى فيها أثر الكتابة.

قال: فمَسحَ يده عليها فَوجَدتُها مكتوبة ووجدت في أسفلها اسمي فسجدت لله شكرًا»[١].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا يقاس آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم مَنْ جرت نعمتهم عليه أبدًا، هم أساس الدين وعماد اليقين إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة»[٢].

---

(١) الشيخ المفيد، الاختصاص، ٢١٦.
(٢) الطبري محمد بن جرير، دلائل الإمامة، ص٧٦.

أبعاد وآثار الولاية

قد يكون تعلق الإنسان ناتجًا عن نسب كالرحم أو سبب كالزوج أو الصداقة أو المعتقد فنجده يميل إليه، وله في نفسه تجاهه شعور وجداني بنوع ما فيشعر حياله بالمحبة والانجذاب والتفاعل العاطفي فيشاركه أفراحه وأحزانه، ويفتقده عند الغياب ويفزع إليه عند الحاجة، وفقد هذه التأثيرات الداخلية والسلوكية حيال مَنْ يواليه يعني وجود خلل في منظومته الولائية، فالمفروض أن يكون هناك تفاعل حقيقي في ذلك كله بين الطرفين فهذه الحقوق يجب أن تكون متبادلة، وهذا ما أكد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه حيث قال: «أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقًا بولاية أمركم ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف لا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصًا لله سبحانه دون خلقه؛ لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه حروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلًا منه وتوسعًا بما هو من المزيد أهله، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقًا افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضًا ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»[1]، ويا له من أثر عظيم يكفي صاحبه نوائب العصر ومكدرات الدهر ناتج من هذه العقيدة العظيمة.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٢، الخطبة٢١٦، ص١٩٨.

لقد تحدثت بعض الروايات التي تناولت الحديث حول الولاية وعن أبعادها وامتدادها والتي لم تقف إلى حد وجوب تولي المعصوم فحسب، بل جاءت لتؤكد أن للولاية أفرعًا ممتدة تصل إلى اتباع الأئمة عليهم السلام وأشياعهم ومواليهم، بل قد تجعلها الكاشف الخارجي للمتمسكين بالولاية والمدعين لها، والعلاقة التي من خلالها تقاس مدى ولاية الموالي وقد تكون الطريق الذي يوصل إلى تمحض هذه العقيدة لدى الفرد، والمكيال الذي يكال فيه حجم العبادة وقيمتها في الموالي نفسه حيث يقاس ذلك من خلال مقدار هذا المد والبعد فيه، ومن هنا جاءت تأكيداتهم عليهم السلام بحسب ما ورد في رواياتهم وعبارات الزيارات الواردة عنهم عليهم السلام، حتى بلغ الحال في بعضها أنها تبين سبيل تقرب المؤمن إنما يتم من خلال اجتماع توليهم عليهم السلام وموالاة أوليائهم وكأنها تشير إلى التدرج بمراتب القرب التي يعلن عنها بكلماتهم حينما يجدد الموالي عهده بالمعصوم عند زيارته من خلالها، كما ورد في زيارة عاشوراء: «... وأتقرب إلى الله ثم إليكم بموالاتكم وموالاة وليكم»[(١)]، ولعل من ألطف ما بهذا المبدأ هو شموله للآباء والأزواج والعلماء، بل للمؤمنين بعضهم على بعض وإن كانت تختلف سعة وضيقًا ومعنىً في بعض الأحيان من فئة إلى أخرى، فولاية الأب على بنيه غير ولاية الزوج على زوجته وولاية المؤمن على أخيه المؤمن غيرهما وهكذا، فقد ورد أن للأب الولاية على ابنه بوجوب الإنفاق عليه والتصرف بأمواله حسب ما يرى فيه من مصلحة والأمر عينه بالنسبة إلى ولايته في

---

(١) القمي الشيخ عباس، مفاتيح الجنان، ص٦٦٦.

تزويج البكر، أما ولاية الزوج على زوجته فمن حيث وجوب النفقة وعدم الخروج من دون إذنه ووجوب إطاعته وتمكينه، أما ولاية المؤمن على أخيه المؤمن فمن حيث محبته وحفظ غيبته وحمايته والدفاع عنه والسعي بقضاء حوائجه وأمثال ذلك.

وحينئذ يتبين أن من أهم أبعاد وجوب وضرورة التولي والذي لأجله انعقد البحث - كما تمت الإشارة إليه في المقدمة - هو المدى الذي تبلغه هذه الضرورة فهي تتعدى حدود وجوب الولاية لله عزّ وجلّ ولرسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين إلى أن تشمل كل مؤمن وإن بَعُد نسبه ولؤُم حسبه واختلف لونه وعرقه، فهي لا تبلغ مناها ولا تؤتي أكلها حتى تتشابك أوراقها لتكمل كل واحدة منها الأخرى ويرص بعضها البعض لتشكل زهرة ملؤها الحب لمحمد وآل محمد ونتاجها عطر يبلغ مداه شرق الأرض وغربها لتميز الموالي عن غيره ولتشعرهم جميعا إنكم من طينة واحدة ولتكلمهم بلسان حالها: نحن المقصودون في خطابات الكتاب العزيز بـ «يا أيها الذين آمنوا»، وفي أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال لعلي: «يا علي شيعتك هم الفائزون يوم القيامة فمَنْ أهان واحدًا منهم فقد أهانك، ومَنْ أهانك فقد أهانني، ومَنْ أهانني أدخله الله نار جهنم وبئس المصير، يا علي أنت مني وأنا منك روحك من روحي، وطينتك من طينتي، وشيعتك خلقوا من فاضل طينتنا، فمَنْ أحبهم فقد أحبنا، ومَنْ أبغضهم فقد أبغضنا، ومَنْ عاداهم فقد عادانا، ومَنْ ودهم فقد ودنا»[(١)].

(١) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص٢٩٦.

يتضح بحسب ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أن خطورة الحال في هذا الأمر تظهر في أن الإيمان مرهون بحسن تولية الأولياء، عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنما شيعة علي عليه السلام المتباذلون في ولايتنا المتحابون في مودتنا المتزاورون لإحياء أمرنا الذين إذا غضبوا لم يظلموا وإذا رضوا لم يسرفوا بركة على مَنْ جاوروا سلم لَمَنْ خالطوا»(١)، بل قد تخلع ربقة الإيمان من المؤمن عند إخلاله وتقصيره بهذا الأمر المهم، ولا يتخيلنَّ البعض أن هذا الأمر مرتبط بعقيدة الفرد فحسب، بل هو ممارسة بعيدة المدى واسعة الصدى، فهي تطال أواصر قوة المجتمع والأمة وتضبط سلوكيات المؤمن في تعاملاته مع الآخرين، وتنم عن أساسات معرفية قيمية دينية وعرفية تذيب كل موانع اللحمة الدينية والإنسانية، وتركز على إيجاد مصدر اتحاد لا تصمد أمامه جميع مخططات أعداء الدين والمذهب وتفشل كل ما كانوا يرومون إليه من خلال صنع فجوات التفرقة والتمزيق كالعصبية القبلية والوطنية والقومية، ومن هذه الأبعاد والآثار:

الأول: العناية والرعاية من قبل الأئمة عليهم السلام

قد يدرك العقل بعض الحقائق ويوافقه الشرع في ذلك، وما ذلك في أغلب الأحيان، إلا لكون الأمر الذي توافقا عليه فطريًا ومنها شكر المنعم وحماية الموالي والناصر، ولهذا دأب المعصومون عليهم السلام على حماية شيعتهم ومواليهم من الأخطار التي تحيط بهم سواء كانت من

(١) الشيخ الصدوق، الخصال، ص٣٩٧.

أعدائهم أو من أي آفة أو سوء يتعرضون إليه، وهذا الأمر سيال سارٍ في الدارين وإن كان الكلام حاليًا يختص برعايتهم صلوات الله عليهم في عالم الدنيا وسيأتي الحديث إن شاء الله تعالى عن عنايتهم بالموالين سلام الله عليهم في العالم الآخر، وإذا أردنا الاستدلال على ذلك فعالم الحديث والرواية زاخر بالأخبار التي تعرضت لذلك، منها ما ورد عن صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف -كما مر ذكره- في رسالة للشيخ المفيد: «إنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء...»[(١)]، ويحدثنا بشار المكاري يقول: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة وقد قدم له رطب طبرزد[(٢)] وهو يأكل فقال: يا بشار ادن فكل، فقلت: هناك الله وجعلني فداك، قد أخذتني الغيرة من شيء رأيته في طريقي أوجع قلبي وبلغ مني، فقال لي: بحقي لما دنوت فأكلت، قال: فدنوت فأكلت فقال لي: حديثك؟ قلت: رأيت جلوازًا[(٣)] يضرب رأس امرأة ويسوقها إلى الحبس وهي تنادي بأعلى صوتها: المستغاث بالله وبرسوله، ولا يغيثها أحد، قال: ولِمَ فعل بها ذلك؟ قلت: سمعت الناس يقولون إنها عثرت فقالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة، فارتكب منها ما ارتكب. فقطع الإمام الأكل ولم يزل يبكي حتى ابتل منديله ولحيته وصدره بالدموع، ثم قال: يا بشار قم بنا إلى مسجد السهلة فندعو الله عز وجل ونسأله خلاص هذه المرأة، ووجه بعض الشيعة إلى باب السلطان، وتقدم إليه أن لا يبرح إلى

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٥.
(٢) نوع من التمر سمي به لشدة حلاوته تشبيهًا بالسكر الطبرزد.
(٣) الشرطي الذي يخف في الذهاب والمجيء بين يدي الأمير.

أن يأتيه رسوله فإن حدث بالمرأة حدث صار إلينا حيث كنا.

فصرنا إلى مسجد السهلة وصلى كل واحد منا ركعتين، ثم رفع الصادق عليه السلام يده إلى السماء وقال: أنت الله لا إله إلا أنت مبدئ الخلق ومعيدهم - الدعاء مذكور في كتب الأدعية والمزار- قال: ثم خر ساجدًا، لا أسمع منه إلا النفس، ثم رفع رأسه فقال: قم، قد أطلقت المرأة.

قال: فخرجنا جميعًا، فبينما نحن في بعض الطريق، إذ لحق بنا الرجل الذي وجهنا إلى باب السلطان، فقال له: ما الخبر؟ قال: لقد أطلق عنها، قال كيف كان إخراجها؟، قال: لا أدري، ولكنني كنت واقفًا على باب السلطان، إذ خرج حاجب فدعاها، فقال لها: ما الذي تكلمت به؟ قالت: عثرت فقلت لعن الله ظالميك يا فاطمة، ففعل بي ما فعل، قال: فأخرج مائتي درهم وقال: خذي هذه، واجعلي الأمير في حل، فأبت أن تأخذها، فلما رأى ذلك منها، دخل وأعلم صاحبه بذلك ثم خرج، فقال: انصرفي إلى بيتك، فذهبت إلى منزلها.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أبت أن تأخذ المائتي درهم؟ قال: نعم وهي والله محتاجة إليها، فأخرج من جيبه صرة فيها سبعة دنانير، وقال اذهب أنت بهذه إلى منزلها فأقرئها مني السلام وادفع إليها هذه الدنانير، قال: فذهبنا جميعًا فأقرأناها منه السلام، فقالت: بالله أقرأني جعفر بن محمد السلام؟ فقلت لها: رحمك الله، والله إن جعفر بن محمد أقرأك السلام، فشقت جيبها ووقعت مغشية عليها، فصبرنا حتى

أفاقت، وقالت أعدها علي، فأعدناها عليها حتى فعلت ذلك ثلاثًا، ثم قلنا لها: خذي هذا ما أرسل به إليك، وأبشري بذلك، فأخذته منا، وقالت: سلوه أن يستوهب أمته من الله فما أعرف أحدًا أتوسل به إلى الله أكثر منه ومن آبائه وأجداده عليهم السلام، فرجعنا إلى أبي عبد الله عليه السلام فجعلنا نحدثه بما كان فيها، فجعل يبكي ويدعو لها، ثم قلت: ليت شعري متى أرى فرج آل محمد عليهم السلام؟ قال: يا بشار إذا توفي ولي الله وهو الرابع من ولدي في أشد البقاع بين شرار العباد، فعند ذلك يصل إلى ولد فلان مصيبة سواء، فإذا رأيت ذلك التقت حلق البطان ولا مرد لأمر الله»[(١)].

الثاني: توحيد الأمة

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٢)]، في الآية توجيه واضح من الله تعالى للمسلمين حيث يظهر من الخطاب الوارد فيها أنه سبحانه يريد أن يوقفهم على ركيزة القوة التي يفترض عليهم الحفاظ عليها وهي الوحدة ويذكرهم بعواقب التفرقة وهي الحال التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد ورد بهذا الصدد أيضًا ما جاء في خطبة الزهراء عليها السلام المعروفة بالخطبة

---

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

الفدكية التي بينت فيها علل الكثير من المضامين العالية التي جاء بها الإسلام الحنيف والمسؤوليات الملقاة على كاهل المسلمين التي تلخصت في بيان لائحة من العناوين المتعددة التي تصب في مصب الوقوف على روح الإسلام وأنفاسه حيث تجسدت في عبادة الله الواحد، واجتناب أي شكل من أشكال الشرك وأوضحت أن من أسباب ووسائل الوصول إلى هذه الغاية هو الإيمان الذي يتمخض عنه ضرورة وجوده الذي يظهر بزرع نفس الأخوة الدينية والوحدة بين المسلمين ونبذ الخلاف، حيث قالت سلام الله عليها من ضمن ما قالت: «فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك والصلاة تنزيهًا لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق والصيام تثبيتًا للإخلاص والحجّ تشييدًا للدين والعَدل تنسيقًا للقلوب وإطاعتنا نظامًا للملّة وإمامَتنا أمانًا من الفُرقة والجهاد عزًّا للإسلام والصبر معونةً على استيجاب الأجر والأمر بالمعروف مصلحةً للعامّة وبرّ الوالدين وِقايةً من السخط وصِلَة الأرحام منماة للعدد والقِصاص حِقنًا للدماء والوَفاء بالنذر تعريضًا للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييرًا للبَخس والنهي عن شرب الخمر تنزيهًا عن الرجس واجتناب القَذف حِجابًا عن اللعنة وترك السرقة إيجابًا للعفّة»[١]، ولا يظنن ظان أن هذا نوع من أنواع البراغماتية أو ما يسمى بالنزعة العملية التي لاقت رواجًا بين فلاسفة الغرب في القرن الأخير حيث اعتقدوا أن حقانية الشيء إنما تحددها فائدته في مقام العمل والتي تدعو إلى كون القيمة الحقيقية تكمن فيه وإن كان منشأه الكذب؛ كون

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٢٨٩.

هـذه النظـرة الخبيثـة تهـدف لنـزع فائـدة الاعتقـاد؛ ولهـذا خللـت سـلام الله عليهـا بيانهـا لعلـل الأحـكام التـي ذكرتهـا الاعتقـادات الحقـة، فـكان في هـذه الدعـوة الإصلاحيـة المباركـة محاولـة منهـا سـلام الله عليهـا لـوأْدِ كل دعـوات التفرقـة ونـداءات الشـقاق الشـيطانية التـي كانـت تصـدر مـن حناجـر المنافقيـن المغرضيـن الذيـن يهدفـون تضعيـف الديـن وتهديـم مصـدر القـوة لـدى المسـلمين، وقـد ورد عنهـا سـلام الله عليهـا أيضًـا: (أمـا والله لـو تركـوا الحـق علـى أهلـه واتبعـوا عـترة نبيـه لمـا اختلـف في الله اثنـان ولـوارثها سـلف عـن سـلف وخلـف عـن خلـف حتـى يقـوم قائمنـا)[١].

الثالث: مصدر قوة

وهـو أثـر مرتبـط بالأثـر السـابق، فالأمـور تعـرف بأضدادهـا والتفرقـة في كل زمـان ومـكان منهـج المغرضيـن وسـلاحهم الفتـاك الـذي يسـتغلونه لتشـتيت قـوى أي أمـة أو ثلـة، وباعتبـار أن الإسـلام قـوة مسـتحدثة مـا برحـت تتوسـع ويـزداد نفوذهـا في المنطقـة بشـكل سريـع وملفـت للنظـر ابتـدأت تحـاك المخططـات ضـده مـن قبـل اليهـود والمشركيـن والمنافقيـن لترهيـل الأمـة وتبديـد كل مـا يمثـل مصـدرا مـن مصـادر القـوة فيهـا فابتـدأوا بمحاربـة عصـب القـوى ومركـز لم شـتات المسـلمين وهـو الولايـة كونهـا الخـط المكمـل للنبـوة والحافـظ لمسـيرة الديـن الـذي يضمـن صحـة مسـارها واسـتقرارها علـى الصـراط المسـتقيم ويزيـد مـن الروابـط العقديـة بيـن أبنـاء الأمـة وهـذا يعنـي زيـادة آصـرة مـن أواصـر القـوة لهـا، بـل يمكـن

(١) ابن بابويه القمي أبو الحسن علي بن الحسين، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص١.

أن يقال: إنها الرابط الأخير الذي يمسك كل مراتب القوة التي يتمتع بها المسلمون ويحصنهم من الضياع ويعصمهم من الخلاف، ثم جاء بعد ذلك الاستعمار بعد أن وجد الأرضية مهيأة ليكمل تلك المسيرة مستغلًا الثقافات التي تشربت بها عقلية المسلم، رافعًا شعاره السائد الذي يرافقه أينما حل ونزل: فرق تسد -أي أنك إن أردت أن تصبح سيدًا لقوم فما عليك إلا أن تفرق صفوفهم-، وما كان منه إلا أن يكشر عن أنيابه ويسفر عن وجهه القبيح ليدخل معركة التفرقة بين المسلمين بكل ثقله ويجذر الفجوة محاولًا توسعة مواطن الخلاف بينهم، فأطلق عفاريت النفاق من جحورهم لتضعيف الأمة من خلال استغلال بعض النفوس السقيمة من الأغبياء، الذين لا يقدرون عواقب ما يفعلون من أعمال تؤدي إلى إشغال وتهالك أبناء الأمة الإسلامية الواحدة فاختلقوا صراعات كلامية جديدة لا تبتني على أساس سليم، وأكدوا على نقاط الاختلاف التي ذكرتها المذاهب الكلامية القديمة ونشروا أفكارًا ومفاهيم صدروها إلى ثقافة المسلمين ورسخوها في أذهانهم حتى صادرت هويتهم الحقيقية فأماتت المتبقي من روح الأخوة في نفوسهم، الأمر الذي قد يؤدي في حالة عدم وضع حد له ومع عدم التصدي لمن وراءه والوقوف على نواياه ومكائده إلى تعميق جذور التباغض والتمزق والانهيار المخيف الذي تعاني منه أمتنا اليوم شر معاناة؛ لأنه بات يهدد سلامتها وسلامة أبنائها وجعلها عرضة لأغراض أعدائها ومسرحًا لتنفيذ مخططاتهم المشؤومة الذي لخصه وساعدهم عليه الابتعاد عن الولاية الحقة والموالاة لمن ألبسه الله

سبحانه وتعالى تاج الخلافة فتزينت به، المصدر الذي يحقق وحدة المسلمين ويكون سبب قوتهم باعتباره مركز جذب يلملم شتات المؤمنين ويجمع كلمتهم ويوحد توجهاتهم ويحرر الضمير والوجدان من أغلال القبلية وأمثالها ويجعل من الإنسان مستعصمًا بالحق استعصامًا يزهق أمامه الباطل، فإذا ما حافظت الأمة على هذا العنصر أصبحت رفيعة البنيان عظيمة السلطان وكانت في أمان الله وحفظه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[(١)]، وبالإضافة إلى ذلك سيتولى الله سبحانه الدفاع عنهم وأي مصدر قوة أعظم من هذا!!!، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[(٢)]، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى قال: منْ عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه»[(٣)].

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) سورة الحج، الآية ٣٨.

(٣) الريشهري محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ج٣، ص ٢٩٥.

الرابع: تنظيم شؤون الأمة

إن الجهل بروح الدين وأهدافه يسبب تضييع مقاصده وبالتالي بخس حقه والاستخفاف بتطبيق ما يدعو إليه فمَنْ لا يعرف أن للدين عدة أهداف جاء ليجعلها حاكمة راسية؛ كونها المنافذ التي توصل المجتمعات إلى غاية الكمال المعنوي والمادي، ويترتب على ذلك أن المسلم الذي لا يعي أن هدفًا من أهداف الدين الوصول إلى الله سبحانه سيستخف بالعبادات، ومن يجهل أن غايته تنظيم حياة الإنسان ووضع منهجية لتعليمه كيف يتعامل مع غيره من الموجودات سيستخف بأحكام المعاملات وسيطالب بفصله عن السياسة وتسيير شؤون العباد ومَنْ يجهل أن من أهدافه نشر الفضائل وتسليح المتدينين بروح ملؤها الخلق الحسن سوف لا يعير لأخلاقياته أي اهتمام وهكذا...

إذن هناك ارتباط وثيق بين معرفة الهدف واختيار الطريق، فيجب على كل مَنْ يعي هذه الحقيقة بحكم العقل العملي أن يبحث عن الوسيلة التي ترقى به للوصول إلى الهدف، وبناءً عليه يفترض على كل أمرئ أن يبحث عن مجتمع نظامي تحكمه العقلانية، سعيدة حياته، يكون خاضعًا للقوانين، منظمًا أمره، عليه أن يبحث عن الوسيلة التي توصله إلى ذلك، وقد أوضحت السيدة الزهراء سلام الله عليها الوسيلة هذه الحقيقة حيث قالت في خطبتها الفدكية: «وإمامتنا... نظامًا للأمة»؛ لأن وحدة القائد مع صلاحه للقيادة ينتج وحدة قرار ويوفر للناس تخطي مرحلة النزاعات حول القرارات والتشريعات التي تصدرها

القيادة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[(١)]، وتصدي مَنْ هو أهل لتحمل المسؤولية وبروزه كخليفة يؤهله في أن يكون قدوة يقتفى أثره ويسلك طريقه ويلتمس منهجه وهو ما يسمى في علم الاجتماع بالسنن العملية؛ لأن مجرد وجود تشريع متكامل لا يكفي في تنظيم الحياة، فحتى لو فرضنا أن هنالك تشريعًا متكاملًا ورث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ذلك لن تنظم الحياة الاجتماعية، لأن ربط التشريع بمقام العمل يحتاج إلى قيم اجتماعية والى دساتير فكما نحتاج إلى قوانين تشريعية نحتاج كذلك إلى نظم عملية تتجلى فيها أن الإمامة نظاما للأمة، فكل مَنْ جرب الإدارة ولو بشكل بسيط يعرف أن مجال التشريع غير مجال وعالم التطبيق، وأن سلطة التشريع تختلف عن السلطة التنفيذية التي تقوم بالتطبيق، لأن التطبيق تتعارض فيه المصالح وتتزاحم فيه الملاكات وتسد الثغرات والفجوات، وعندما نرجع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام نجد هذا المعنى واضحًا في أكثر من تصريح ورد عنهم منها ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام مخاطبًا سلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرقًا أو غربًا فلا تجدان علمًا صحيحًا إلا شيئًا خرج من عندنا أهل البيت»[(٢)]، فنحن مصدر نظام الملة ومصدر ربط التشريع بالتطبيق وبالنتيجة: «طاعتنا نظام للملة»، أي أن إمامتنا هي مصدر انتظام عقائد الدين والتشريع الإسلامي وربط مقام التشريع بمقام التطبيق فكلها تفتقر إلى الإمامة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٩.

الخامس: سبيل رقي الأمة وازدهارها

إن دور الاتحاد في بقاء الأمم رغم كل ما قيل عن أهمية الاتحاد وآثاره العظيمة في التقدم الاجتماعي عند الشعوب والأمم فإن من الممكن القول والادعاء بأن الآثار الواقعية لهذه المسألة لا تزال مجهولة، وغير معروفة كما ينبغي.

إن العالم يشهد اليوم سدودًا كثيرة وكبيرة أقيمت في مختلف المناطق، وقد أصبحت منشأ لإنتاج أضخم القوى الصناعية، وقد استطاعت هذه السدود بفضل ما أنتجت من طاقات وحفظت من مياه كانت تذهب قبل ذلك هدرًا، أن تغطي مساحات كبيرة شاسعة بالري والإضاءة.

فلو أننا فكرنا قليلًا لوجدنا أن هذه القوة العظيمة لم تنشأ إلا من تجمع القوى الصغيرة، الجزئية - أي تجمع قطرات المطر، وحبات الغيث الحقيرة - ومن هنا تدرك أهمية اجتماع القوى البشرية وتلاحم الطاقات الإنسانية، وتجمعها، وما يرافقها من جهود جماعية، فتعدد الأفراد والمجتمعات واختلاف الثقافات قد يتلاقح ويتلاحم إذا كانت هناك ضرورة ورابطة تجمعهم وما أعظمها إذا كانت الفكرة الاعتقادية هي مجمع الالتقاء والارتباط، فحينئذ سيشد بعضهم بعضًا وستتداول العلوم لتبلغ الأمة علاها ورقيّها ولقد عبرت النصوص والأحاديث المأثورة عن النبي الكريم وأهل بيته الطاهرين عليهم صلوات الله أجمعين عن أهمية الاتحاد والاجتماع بعبارات متنوعة مختلفة، فتارة

يقول النبي الأكرم ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه»[١]، وأخرى يقول ﷺ: «المؤمنون كالنفس الواحدة»[٢]، ولا يقصد من ذلك أن الاتحاد منتج لقوة عسكرية عظيمة كما قد يتصوره البعض، بل الحقيقة أنها تعد مصدر قوة على مستوى كافة الأصعدة وفي شتى المجالات، فاكتمال عقول البشر كعلماء ومفكرين تتجلى بكل وضوح عند التوافق والاتحاد وخير شاهد على ذلك ما تبلغه المؤسسات والمراكز العلمية من فتوحات علمية نتاج العمل المشترك وتبادل الخبرات وكثرة الاستشارات الذي يعني المشاركة في العقول، والإنتاج المتفاوت للمصانع فكلما كبر المصنع وزاد عدد أفراد العاملين فيه فضلًا عن بقية الإمكانات كثر الإنتاج وزادت الأرباح محققًا النجاح والتفوق ليتعدى غيره من حيث الربح ووفرة الإنتاج وإتقان العمل وجودة المنتج ووو، والحال واحد في جميع الجوانب الحياتية اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو دينية.

السادس: قبول العمل

لو لاحظنا الآيات القرآنية التي تحدثت عن العمل لوجدناها لا تعطيه أي قيمة أو أهمية من دون إيمان واعتقاد صحيح، فهي تؤكد دائمًا على جعل الأصالة للإيمان وقد سعى القرآن جاهدًا من جانبه إفهامنا هذا المعنى ولطالما قرن العمل الصالح بالإيمان وقدمه عليه ﴿الَّذِينَ

---

(١) الرازي، المظالم، ج٢،ص٤٥٠.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(١)، وقد أكد على أن افتراقه عن الإيمان يعني تخليه عن أثره القيمي؛ ولهذا كان يضفي الجانب الحسي على مسألة الكفر والشرك ويبينهما بأبسط الأمثلة ليستوعبها الناس، وليتضح لهم أنهما سبب نسف العمل، فقال جلّ شأنه في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾(٢)، فقد بيّن سبحانه من خلال هذه الآية أن الأعمال الخالية من الإيمان لا قيمة لها؛ لأنها مرتكزة على الكفر لم تنبع من قلب حسن اعتقاده وعليه لم تكن مثل هذه الأعمال مصدر سعادة للإنسان؛ لأنها أريد منها وجهًا غير وجه مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، ولهذا لم تحض بالقبول منه جل شأنه.

ولا يخفى أنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل من الأعمال إلّا ما كان قد شرّعه وأحبّه وأراده وطلبه من عباده، ومن الطريق الذي عينّه واختاره، فلا يجزي المكلّف القيام بعبادات وأعمال أخذها من غير الطريق الذي اختاره الله أو تبرع بها من نفسه، وفي عدم قبول الله جلّ وعلا عبادة إبليس من دون السجود لآدم عليه السلام دليل كافٍ في المقام، والعقل قاضٍ بوجوب طاعة الله من حيث ما يأمرنا به، لا من أي طريق كان؛ لأنّه كما ثبت وجوب حقّ الطاعة لله، كذلك ثبت وجوب طاعة الله من حيث يريد، لا من حيث نريد، فتعيين الطريق داخل أيضًا في دائرة حقّ الطاعة لله، وفي تحديد الطريق الذي اختاره الله تعالى لنا نقول: إنّه لا

(١) سورة العصر، الآية ٣.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٨.

يدلّنا على شرع الله عزّ وجلّ إلّا المعصوم وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ أولي الأمر من خلفائه الراشدين المهديين الذين أمرنا باتّباعهم والتمسّك بهم، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام كما يرويه الحاكم وصحّحه: «أنت تبيّن لأُمّتي ما اختلفوا فيه بعدي»[١]، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى أُمّته أيضًا بالتمسّك بالثقلين، وهما كتاب الله وعترته أهل بيته، وأخبر أُمّته بأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض، أي: أنّهما موجودان إلى يوم القيامة، وحذّر مَنْ لم يتمسّك بهما بأنّه سيضل عن سواء السبيل، ثم إنّه بيّن عدد خلفائه، وأنّهم بعدد نقباء بني إسرائيل، كما رواه أحمد عن ابن مسعود[٢]، وإنهّم اثنا عشر خليفة أو أميرًا[٣]، وبيّن صلى الله عليه وآله وسلم مصير مَنْ ترك إمامتهم، حيث قال كما يرويه أحمد: «مَنْ مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[٤]، وورد عن المعلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا معلى لو أن عبدًا عبد الله مائة عام ما بين الركن والمقام يصوم النهار ويقوم الليل حتى تسقط حاجباه على عينيه وتلتقي تراقيه هرمًا جاهلًا لحقنا لم يكن له ثواب»[٥]، وعن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «قال لنا علي بن الحسين عليه السلام أي البقاع أفضل؟ فقلنا: الله ورسوله وابن رسوله أعلم. فقال لنا: أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أن رجلًا عمر ما عمر نوح في قومه يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٢٢.
(٢) مستدرك أحمد بن حنبل، ج١، ص٣٩٨.
(٣) صحيح البخاري، ج٨، ص١٢٧.
(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٤، ٩٦.
(٥) البرقي، المحاسن، ج١، ص٩٠.

المكان ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئًا»[١]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله لو أن إبليس سجد لله بعد المعصية والتكبر عمر الدنيا ما نفعه ذلك ولا قبله الله عزَّ وجلَّ ما لم يسجد لآدم كما أمره الله عزَّ وجلَّ أن يسجد له وكذلك هذه الأمة العاصية المفتونة بعد نبيها وبعد تركهم الإمام الذي نصبه نبيهم لهم فلن يقبل الله لهم عملًا ولن يرفع لهم حسنة حتى يأتوا الله من حيث أمرهم ويتولوا الإمام الذي أمروا بولايته ويدخلوا من الباب الذي فتحه الله ورسوله لهم»[٢]، فعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأنبياء ورضى الرحمان الطاعة للإمام بعد معرفته، ثم قال: إن الله يقول: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾، أما لو أن رجلًا قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالة منه إليه ما كان له على الله حق في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان»[٣].

فمن كلّ ذلك يتبيّن: أنّ أعمال مَنْ لم يأخذ من أئمّة أهل البيت عليهم السلام لا تكون موردًا للقبول؛ لأنّه لم يأخذها من الطريق الذي نصبه الله تعالى له، وإن ما أداه بالحقيقة هو عبادات نسبها للشارع المقدّس من غير حقّ، إذ لم يشرّعها جلّ وعلا، فتكون على حدّ الشرك في العبادة، وبه لا يكون موحدًا فيها، فكيف يقبل عمله بعد ذلك؟!!، ومن جهة أُخرى هناك أحاديث عند أهل السُّنّة تثبت هذا الحكم،

(١) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص٢٠٤.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٧١.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٩٤.

وهو عدم قبول الأعمال لمبغضي عليّ وأهل البيت عليهم السلام، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فلو أنّ رجلًا صفن بين الركن والمقام فصلّى وصام، ثمّ لقى الله وهو مبغض لأهل بيت محمّد دخل النار»[١]، وروي أيضًا عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قائلًا: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه مَنْ لقي الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبدًا عمله إلّا بمعرفة حقّنا»[٢]، وكلام الإمام الحسن عليه السلام واضح جدًّا في عدم نفع عمل أيّ عبد مهما عمل ما لم يعرف حقّ آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا عين ما يدّعيه الشيعة وذاته. والغريب ما نجده في عصرنا الحاضر من انحرافات فكرية تركز على إشاعة فكرة أن القيمة لا تكون إلا للسلوك المحض الذي يجب أن ينفصل عن الدين تحت عنوان القيم الإنسانية العامة!!!، والأغرب منه إيمان بعض المسلمين بهذه الأفكار والترويج لها والدفاع عنها بشراسة.

السابع: استجابة الدعاء

إن العبادة فن والتقرب إلى الله مهارة، فليس كل مَنْ ركع وسجد صلى، وليس كل مَنْ رفع يديه وقنت دعا، بعض الناس قضى حياته بالصلاة ولم يحوِ منها إلا الذم والتعيير، حيث بينت بعض الروايات أنها لا قيمة لها إن لم تكن مثلما يريد لها رب العالمين كما ورد في الحديث: «لا خير في صلاة لم تنه صاحبها عن من منكر»[٣]، وبالصيام الذي لم

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٤٩.
(٢) نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٩، ص١٧٣.
(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ح١٣٧.

ينل منه سوى التعب والجزع كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء حبذا نوم الأكياس»[(١)]، وقراءة القرآن التي أصبحت وبالا على القارئ وإن عدَ من حفاظه؛ لأن القرآن يلعنه، فقد جاء في الحديث الشريف: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»[(٢)]، إذن كم من متعبدٍ لم يزدد من عبادته إلا بُعدًا كالخوارج ومَنْ حذا حذوهم، وفي نفس الوقت نجد البعض لا ترد لهم دعوة مع بعدهم عن الالتزام بتأدية بعض العبادات -أرجو أن لا تستغرب هذه المقولة- فالتاريخ زاخر بقصص وأحداث تثبت هذا المدعى، فمَنْ التجؤوا إلى الله بقلوب حيرى، متيقنين الإجابة، قاطعين بالاحتياج كان حظهم الإجابة وبعض قد تبين لهم المسلك الصحيح فاستمسكوا مفاتيح الرحمة والفرج وتوسلوا إليه سبحانه بأوليائه الصالحين فلم ترد لهم دعوة ولم يرجعوا خائبين وهذا أحد مغانم معرفة الأولياء وآثارها، ولهذا كان ولا بدّ للإنسان أن يسعى لكسب هذه المهارات وتعلم هذه الفنون -وباعتبار أن معرفة الولي واتباعه مقدمة لها بات من الضروري التمسك بها-، فقد خلق الله عالم التكوين على أساس الأسباب والمسببات، فلكل ظاهرة في عالم الوجود سوى الله سبب عادي يؤثر فيها بإذنه سبحانه فالماء يؤثر على الزرع بصريح قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)] والباء في الآية

(١) المصدر السابق، الحكمة ١٤٢.
(٢) الشيخ الطبرسي، مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٤٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢.

بمعنى السببية، والضمير يرجع إلى الماء، وهذا ليس معناه تفويض النظام لهذه الظواهر المادية أو القول بتأصلها في التأثير واستقلالها في العمل، بل الكل متدلٍّ بوجوده سبحانه، قائم به، تابع لمشيئته وإرادته وأمره فالحياة المادية قائمة على هذا الأساس، وهكذا الحال بالنسبة إلى نزول الفيوضات المعنوية إلى العباد فهي أيضًا تابعة لنظام كشف عنه الوحي، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق الملائكة وأنبيائه ورسله وكتبه والله هو الهادي، قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(١)، وقال عزَ وجلَ: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق الأسباب والوسائل التي جعلها الله سبحانه طريقًا لها، وإلى هذا الأصل القويم يشير الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سببًا، وجعل لكل سبب شرحًا»(٤)، فللأسباب سيادة وتأثير بإذنه سبحانه وقد شاء أن يكون لها دور في كلتا النشأتين، فلا غرور لِمَنْ يطلب رضا الله أن يتمسك بالوسيلة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٥)، ومن أهم تلك الوسائل هم أهل البيت عليهم السلام كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الأئمة من ولد الحسين مَنْ أطاعهم فقد أطاع الله ومَنْ عصاهم فقد عصى الله،

(١)سورة الأحزاب، الآية٤.
(٢)سورة الإسراء، الآية٩.
(٣)سورة الشورى، الآية٥٢.
(٤)الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٨٣.
(٥)سورة المائدة، الآية٣٥.

هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله تعالى»[١]، وقد ورد في الزيارة الجامعة الكبرى المروية عن الإمام الهادي عليه السلام: «مستشفع إلى الله تعالى بكم ومتقرب بكم إليه ومقدمكم أمام طلبتي وحوائجي...»[٢]، وروي عن أبي جعفر عليه السلام: «مَنْ دعا الله بنا أفلح ومَنْ دعاه بغيرنا هلك واستهلك»[٣].

الثامن: سيادة مبدأ الحب في الله

إن نقاط الاشتراك التي تجمع الناس كلما زادت ازدادت أدوات الارتباط وقويت أواصر المحبة بينهم وخصوصًا إذا كانت اعتقادية؛ لأن العقيدة كالتعريف تجعل المشتركين بها في جامعية ومانعية فهي تقرب البعيد وتصيره أخا له حقوق وعليه واجبات، وتبعد القريب وان كان رحما، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤]، وهذا ما أكده الأئمة عليهم السلام في وصاياهم للشيعة كما ورد عن أبي جعفر الجواد عليه السلام أنه كتب لسائل سأله عن أمر يونس[٥]: «أحبه وترحم عليه وان كان يخالف أهل بلدك، وترحم عليه – الإمام – فقال عليه السلام: رحمه الله فإنه كان على ما نحب»[٦]، وعنه عليه السلام: «ود

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، ص٦٣.
(٢) عباس القمي، مفاتيح الجنان، ص
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص١٠٣.
(٤) سورة الحجرات، الآية١٠.
(٥) يونس بن عبد الرحمان صحب ثلاثًا من الأئمة عليهم السلام وهم: (الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام) وقد كان فقيهًا راويًا محدثًا جليلًا مدحه أكثر من معصوم وضمن له الإمام الرضا عليه السلام الجنة.
(٦) محمد بن عمر الكشي، اختيار معرفة الرجال (المعروف برجال الكشي)، ج٢، ص٧٨٣.

المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومَنْ أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام): كل مَنْ لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين، فلا دين له)[٢]، وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لبعض أصحابه: «يا عبد الله: أحب في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصيامه - حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون»[٣].

وهم بهذا سلام الله عليهم بينوا المعيار الذي يجب أن يكون محور المحبة والبغض، وان كان الإنسان يحتاج لأجل الوصول إلى هذه المراتب أن يطوي مراحل من ترويض النفس لتستوطن على مثل هذا المراد، فإذا بلغه كان مشمولًا بكرامات يغبطه لأجلها أنبياء الله والأولياء يوم القيامة، فقد ورد عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين قام مناد فنادى يسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب، قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، قال: فيقولون: وأي ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون نحن المتحابون في الله، قال: فيقولون: أي شيء كانت أعمالكم؟

---

(١)الشيخ البرقي، المحاسن، ص٢٦٣.
(٢)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣)الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٤٠

قالوا كنا نحب في الله ونبغض في الله، فيقولون: نعم أجر العاملين»[١]، وعن الباقر عليه السلام عن آباءه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من الله عز وجل يسمع آخرهم كما يسمع أولهم فيقول: أين جيران الله جل جلاله في داره؟ فيقوم عنق من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة فيقولون ما كان عملكم في دار الدنيا فصرتم اليوم جيران الله تعالى في داره؟ فيقولون: كنا نتحاب في الله، ونتوازر في الله تعالى، قال: فينادي مناد من عند الله تعالى: خلوا سبيلهم، فينطلقون إلى جوار الله في الجنة بغير حساب، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فهؤلاء جيران الله في داره يخاف الناس ولا يخافون، ويحاسب الناس ولا يحاسبون»[٢]، وإليك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام وهو حديث يبين للمتأمل جذور هذه العلاقة والى أي مدى أرادها الأئمة عليهم السلام أن تصل حيث قال سلام الله عليه: «أحبب حبيب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان فاسقًا زانيًا، وأبغض مبغض آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان صوامًا قوامًا»[٣].

التاسع: سيادة مبدأ العفو والتسامح

يعتبر التسامح من الطرق التي تهيئ الفرد لاستقبال الرحمة والمغفرة الإلهية من جهة، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[٤]، ومن جهة أخرى هما سبيل التعايش بسلام

(١)الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٠٣.
(٢)الشيخ الطوسي، الأمالي، ص١٠٠.
(٣)الشيخ المفيد، إرشاد القلوب، ص٢٥٦.
(٤)سورة النور، الآية٢٢.

وائتلاف ووئام ناهيك عن بقية الآثار المترتبة عليهما، ويا حبذا لو كانا مبنيين على قاعدة أساسية فكرية وعقائدية، فإنهما إن كانا كذلك اكتسيا حلة الرسوخ والقوة والمتانة وأصبحا مبدءًا ثابتًا لا يتزحزح، فكلما إزدادت الروابط العقائدية قوت العلاقة أكثر فأكثر؛ لكثرة الجوامع وتباعد الموانع، وهما قبل أن يكونا صفة نفسية وسلوكًا اجتماعيًا يجب أن يلاحظ فيهما أنهما منهج ديمومة الحب والسعادة بين بني آدم عليه السلام وهما الجسر الذي يتيح لنا مفارقة الذنوب الهادمة للعلاقات الاجتماعية، ويعدان وسيلة للتخلص من ملامة النفس والغير، فضلًا عن كون ثقافة التسامح مطلوبة؛ لكي يعيش الناس في أمن وأمان وتعاون وانسجام وهي مفيدة لتقريب الأفكار وتكامل الحضارات، لكنها قبل كل شيء مطلوبة لكي يعيش الإنسان حالة السلام مع نفسه ومع الآخرين فلا يستيقظ وينام وهو يعتقد أن الناس من حوله أعداء وهو في حرب معهم ليل نهار وبذلك يفقد أمنه واستقراره ويجلب لنفسه العناء والشقاء؛ ولهذا يعتبر التسامح أحد سبل تعزيز الروابط الاجتماعية بين الأفراد؛ لأنه يبتني على عفو الإنسان وحلمه عمّنْ يؤذيه ويسيء معاملته أو يختلف معه في الرأي، فهما إذن يهيئان القدرة على التفاعل الاجتماعي وإدارة الخلاف بصورة الاعتراف بالآخر وعدم إلغائه حيث إن لغة العنف من مخرجاتها إلغاء الآخر، بينما تكون لغة التسامح مستندة إلى مبدأ الاعتراف بالآخر عبر مساحات يتطلبها البناء الإنساني والاجتماعي وتقوى أكثر وتكون بشكل ألطف وأليق إذا كانت مطعمة بالروابط الإيمانية الولائية، فهي الحبل المتين الذي

يوثق الموالين ويفترض أن يجعلهم واحدًا كالبنيان المرصوص، وليعلم مَنْ شذّ وبات يفكك هذه الأواصر بأنه يتلاعب بأسس هذه العلاقة ويمنع أحد آثارها المهمة من أن يتم مغزاها وتؤتي أكلها.

العاشر: النصرة والتآزر

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان ذات يوم يوصي كميل: «يا كميل ذب عن المؤمن فإن ظهره حمى الله ونفسه كريمة عليه وظالمه خصم الله فأحذركم ممن ليس له ناصر غير الله»(١)، ولو تأملنا بهذه الوصية لوجدنا أنه صلوات الله عليه يريد أن يعلن من خلالها حقًا من الحقوق المتبادلة بين المؤمنين ويؤكد لأوليائه عليهم السلام أنهم ليسوا مخيرين بهذا الأمر كون النصرة المتقابلة وتآزرهم عليها سبيلًا من سبل نجاتهم فعلى كل مؤمن موال شد أزر أخيه وحمايته، وسرًا من أسرار تقوية العلاقات والروابط بينهم، وقد ورد أيضًا عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا الصدد: «ما من مؤمن يعين مؤمنًا مظلومًا إلا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله في الدنيا والآخرة»(٢)، واللطيف أن لسان هذه الروايات وأمثالها لم يقتصر على بيان حدود النصرة في مورد دون غيره بل عممت المقام لتشمل جميع المجالات التي

(١) اليمني اليافعي أبي محمد، الدر النظيم في خواص القرآن الكريم، ص٣٨٤.
(٢) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٢، ص١٧٨.

يتحقق فيها هذا المعنى بل يفهم من بعضها الوجوب وتستظهر الحرمة في تركها بحق من يقدر عليها وقصر في أدائها وهذا إن يكشف عن شيء فإنما يكشف على تعلق مصلحة شديدة في متعلق الأمر ومفسدة عظيمة تترتب على تركه وهذا مما لا يخفى على أهل الاختصاص من أهل العلم في بيان معنى الوجوب والحرمة وهو يؤكد حرص الإسلام على أن يعيش أبناءه في ترابط وتعاون وتناصر حتى يسود المجتمع الأمن والأمان والمحبة والحنان. الحقوق محفوظة ومصونة، والواجبات معروفة ومطلوبة، من شأنها أن تشد الروابط بين المؤمنين وتزيد الألفة فيما بينهم في مشارق الأرض ومغاربها، وتحفظ وحدتهم وتصون كرامتهم، وتحفظ حقوقهم ذلك أن المؤمن شأنه أن يعيش عزيزًا، فهو يحمل رسالة عظيمة وينتمي لأمة عظيمة ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الرسل، يقول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

الحادي عشر: الاستقامة والثبات

يقصد من الاستقامة: التمسك بالدين والثبات عليه وقد ارتبط هذا المفهوم في كتاب الله بمفاهيم مترادفة منها العدل والأمانة والشهادة كما ارتبط هذا المفهوم بمفهوم القيم لغويًا كما يعني تقويم واقع المسلم وفق الرؤية المثالية التي جاء بها الإسلام ولا يكتمل الدين إلا بالولاية، إذن لا تمامية لمثالية الدين إلا بها ولا ثبات إلا بإتباعهم سلام الله عليهم حيث يكمل أحدهم الآخر، بل يمثلون صلوات الله عليهم أوضح تجليات الكثرة في الواحد فقد ورد في الحديث: «الأئمة من أولادي يعمون ويفعلون هذا إذا أحبوا وأرادوا لأنا كلنا واحد أولنا محمد وآخرنا محمد وكلنا محمد فلا تفرقوا بيننا ونحن إذا شئنا شاء الله وإذا كرهنا كره الله الويل كل الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربنا لأن من أنكر شيئًا مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيته فينا»[(١)]، وعن زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «أيما أفضل الحسن أم الحسين؟ فقال: إن فضل أولنا يلحق بفضل آخرنا وفضل آخرنا يلحق بفضل أولنا وكل له فضل، قال: قلت له: جعلت فداك وسع علي الجواب فإني والله ما سألتك إلا مرتادًا، فقال: نحن من شجرة طيبة برانا الله من طينة واحدة، فضلنا من الله وعلمنا من عند الله ونحن أمناؤه على خلقه والدعاة إلى دينه والحجاب فيما بينه وبين خلقه، أزيدك يا زيد! قلت نعم، فقال: أخبرني بعدتكم، فقال: نحن اثنا عشر هكذا

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٦، ص٦.

حول عرش ربنا عزَّ وجلَّ في مبتدأ خلقنا أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد»[١]، ومن هذه الأحاديث يتبين أنهم عليهم السلام كيان واحد، وما التفرقة والتشتت إلا نتيجة الكثرة التعددية واختلاف الأدوار ومن هنا يفهم إن من آثار الولاية الجلية هي الاستقامة حيث لا تفرعات ولا ميول متعددة والثبات حيث وحدة المولى المتبوع.

الثاني عشر: الأمان من التيه والضلال

إن أبرز أسباب الابتعاد عن الجادة والتخبط الذي يرافق مسيرة الإنسان في حياته بكل مستوياتها هو عدم الركون إلى مَنْ هو أهل لذلك أو التمسك بمَنْ لا ينبغي التمسك به وإتباعه، والمشي وراء مَنْ يجب أن يترك، وهذا هو الداء الذي أصاب الأمم السابقة وكان السبب في تيهها وضلالها حيث الخبط والخلط والتحير في جميع الأمور، الأمر الذي ظلت تعاني منه شعوب العالم حتى يومنا هذا، فلما تاه بنو إسرائيل إلا بعد أن استأسرهم الهوى، واستأثر بهم الجهل، حتى سولت لهم أنفسهم ترك موالاة الحق بإتباعهم السامري، ولو أنهم تمسكوا بوصايا موسى عليه السلام واتخذوا هارون وصيًا، والتزموا الولي الحق لم يتيهوا في الفيافي في وضح النهار؛ ولهذا حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن يحفظ أمته ويعصمها من أن تقع بمزالق مَنْ قد سبق، فكانت كلمته التي أجمع المسلمون عليها حين مرضه حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب

---

(١) المصدر السابق، ج٢٥، ص٣٦٣.

الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[١]، وهذا ما أراد أمير المؤمنين عليه السلام بيانه للناس بعد أن غصب فلان وفلان الخلافة من أهلها وبعد أن رأى رضا الناس بذلك واتباعهم لهما، فقد ذكر أنه قام خطيبًا في الناس آنذاك وقال سلام الله عليه فيما قال: «أيها الناس إن المتحلين للإمامة من غير أهلها كثير ولو لم تتخاذلوا عن مر الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يتشجع عليكم مَنْ ليس مثلكم ولم يقومن قوي عليكم وعلى هضم الطاعة وإزوائها عن أهلها لكن تهتم كما تاهت بنو إسرائيل على عهد موسى بن عمران عليه السلام، ولعمري ليضاعفن عليكم التيه من بعدي أضعاف ما تاهت بنو إسرائيل ولعمري أن لو قد استكملتم من بعدي مدة سلطان بني أمية لقد اجتمعتم على سلطان الداعي إلى الضلالة وأحييتم الباطل وخلفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى من أهل بدر ووصلتم الأبعد من أبناء الحرب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولعمري أن لو قد ذاب ما في أيديهم لدنا التمحيص للجزاء وقرب الوعد وانقضت المدة وبدا لكم النجم ذو الذنب من قبل المشرق ولاح لكم القمر المنير.

فإذا كان ذلك فراجعوا التوبة واعلموا أنكم إن اتبعتم طالع المشرق سلك بكم مناهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتداويتم من العمى والصمم والبكم وكفيتم مؤونة الطلب والتعسف ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق ولا يبعد الله إلا من أبى وظلم واعتسف وأخذ ما ليس

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٣٤.

لـه «وسـيعلم الذيـن ظلمـوا أي منقلـب ينقلبـون»[١]، فقـد أوجـز سـلام الله عليـه هـذا الأثـر بهـذه الكلـمات وبـين أن أمـان الأمـة الحقيقـي مـن اختـلاط الحقائـق والهـوى في بطـون أوديـة الضـلال هـو مـوالاة أوليـاء الله والتمسـك بهـم، لأنهـم شراع الأمـة الـذي يذهـب بهـم إلى شـاطئ الأمـان.

(١) المازندراني محمد صالح، شرح أصول الكافي، ج١١، ص٤٠٤.

ملحق

في أثر الدفن بجوار ولي الله الإمام علي عليه السلام

لقد وردت الكثير من الروايات التي تحدثت عن شرفية أرض النجف على مشرفها آلاف التحية والسلام وبينت ما لها من قدسية وشأن عظيم، منها ما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه اشترى ما بين الخورنق إلى الحيرة إلى الكوفة من الدهاقين بأربعين درهمًا.. فقيل يا أمير المؤمنين تشتري بهذا المال وليس ينبت حطبًا، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كوفان يرد أولها على آخرها، يحشر من ظهرها سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب واشتهيت أن يحشروا في ملكي»[(١)]، وقد أورد بعضهم أن النبي إبراهيم عليه السلام اشتراها من قبل[(٢)]؛ ولأجل هذه الميزات والآثار العظيمة الأخرى، وكونها بحسب ما ورد من أرض الجنة، وقد أصبحت النجف الأشرف منذ القدم مقصدًا لمحل دفن بعض أنبياء الله عليهم السلام كما أشير إليه في بعض فقرات زيارة لأمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح عليهما السلام، السلام

(١) السيد ابن طاووس، فرحة الغري، ص٥٨.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٣١.

عليك وعلى جاريك هود وصالح»[١]، وقد ورد أنه عليه السلام نظر إلى ظهر الكوفة وقال: «ما أحسن ظهرك، وأطيب قعرك، اللهم اجعل قبري بها»[٢].

ومن هنا بات شيعة أهل البيت عليهم السلام يتسابقون لدفن موتاهم فيها ويوصون بذلك، وخصوصًا بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه فيها، تبركًا بمدفنه واستئنانًا بالتقرب منه، فضلًا عمّا ورد من أن الدفن بجواره عليه السلام يورث الشفاعة للمدفون، وقد نقل بهذا الصدد أنه عليه السلام أتى طرف الغري في يوم من الأيام حيث كان يفعل ذلك أيام حكومته في الكوفة إذا أراد الخلوة بنفسه، فبينما هو مُشرف على النجف وإذا برجل قد أقبل من البر راكبًا ناقته وأمامه جنازة وعندما رآه الإمام عليه السلام قصده حتى وصل إليه، وسلم عليه فردّ الأمير السلام عليه وقال: من أين؟ قال: من اليمن، قال: وما هذه الجنازة التي معك؟ قال: جنازة والدي[٣] أتيت لأدفنها في هذه الأرض، فقال له عليه السلام: لم لا أدفنته في أرضكم؟ قال: أوصى إليّ بذلك وقال: إنه يُدفن هناك رجل يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر، فقال له عليه السلام: أتعرف ذلك الرجل؟، قال: لا.. فقال عليه السلام: أنا والله ذلك الرجل.. قُم فادفن أباك)[٤]، وكذلك ورد من أن الدفن بوادي السلام يقي من ضغطة

---

(١)القمي الشيخ عباس، مفاتيح الجنان، ص

(٢)السيد بن طاووس عبد الكريم بن أحمد، فرحة الغري، ص٣١.

(٣)كان أبوه المعروف بصافي الصفا، وهو: صافي اليماني من علماء اليمن ومن أولياء الله هناك والى أمير المؤمنين عليه السلام ولم يره،أخذ ولاءه من أستاذه أويس بن قرن -أويس القرني-.

(٤)العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٩، ص٦٨.

القبر وحسابه[١]، شريطة أن يموت الإنسان ثابت الإيمان، ومن جميل ما قيل في هذا الجانب:

إذا مت فادفني مجاور حيدر أبا شبر أعني به وشبير

فتى لا تمس النار من كان جاره ولا يختشِ من منكر ونكير

وعار على حامي الحمى وهو في الحمى إذا ما ضل في البيدا عقال بعيري

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يا بن نباتة، إن في هذا الظهر -يعني النجف- أرواح كل مؤمن ومؤمنة في قوالب من نور على منابر من نور»[٢]، وعنه عليه السلام، أنه قال: «يا بن نباتة، لو كشف لكم لرأيتم أرواح المؤمنين في هذا الظهر حلقًا يتزاورون ويتحدثون، إن في هذا الظهر روح كل مؤمن، وبوادي برهوت نسمة كل كافر»[٣].

وقد ورد أن من مميزات هذه الأرض المباركة أنها تعتبر محل اجتماع أرواح المؤمنين، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما من مؤمن يموت في بقاع الأرض إلا قيل لروحه: الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن»[٤]، وعنه عليه السلام كان يأتي النجف ويقول: «وادي السلام ومجمع أرواح المؤمنين ونِعم المضجع للمؤمن هذا المكان»[٥]، وكذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «قلت له: إنّ أخي ببغداد،

(١) الشيخ جعفر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج١، ص٢٣٤.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٣٧.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٤٣.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٢١٣.

وأخاف أن يموت بها، قال عليه السلام: ما تبالي فيها مات، إنه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها إلا حشر الله روحه إلى وادي السّلام، قال: وهو ظهر الكوفة، كأني بهم حلق حلق قعودًا يتحدّثون»[(١)]، وقد وروي عنه عليه السلام، أنه قال: «أما إنه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها إلا حشر [هـ] الله روحه إلى وادي السلام، فقلت له: وأين وادي السلام؟ قال: ظهر الكوفة، أما إني كأني بهم حلق حلق قعود يتحدثون»[(٢)].

عطر ومسك

إن مثل هذه العلاقة المتبادلة بين الموالي ومَنْ يتولاه يفترض أن تنتج نوعًا خاصًا تختلف عمَنْ تقاربها من علاقات وهذا ما لمسناه بالفعل حسب ما تقدم ذكره من أبعاد مترشحة عنها وآثار، ومن هنا تمتاز هذه العلاقة عن غيرها، إلا أنها في الوقت نفسه تحمل الطرفين مسؤوليات أخرى ولها تداعيات توجب نشوب وهج إطاعة وضرورة التزام وتقليد واتباع ناشئة من الحب بينهما، ونحن لو تأملنا النصوص التي تعرضت لهذا الأمر لوجدناه واضحًا فيها، منها: قوله تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)]، فهي ظاهرة في وجوب ترجمة الحب إلى تطبيق عملي يظهر على سلوك المحب؛ ليبدي إخلاصه الذي يوصله إلى حب الطرف المقابل، وفي حال لم يعمل الموالي بمقتضيات الولاء قد يفقد

(١)الشهيد الأول، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، ج٢، ص٩٠.
(٢)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣)سورة آل عمران، الآية ٣١.

مثل هذه النعمة العظيمة وتنتزع منه هذه الجوهرة الثمينة والعياذ بالله، فالمحبة وإن كانت بهذا المستوى، إلا أنها تبقى قابلة للفقدان وإذا ما تم -نستجير بالله- ستنعكس هذه الانتكاسة على الطرف الثاني فينتفي عنده الولاء أيضًا أو يخف إلى درجة ما، فلا تترتب عليه كامل الاستحقاقات والواجبات التي ذكرت تحت عنوان أبعاد وآثار الولاية، ولا سيما التي تتوقف على تفاعل المقصر، وهذا ما لخصه الإمام الحسن السبط عليه السلام في خطبته بعد معركة الجمل، حيث روي أنه عندما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الجمل، عرض له مرض وحضرت الجمعة فتأخر عنها، وقال لابنه الحسن عليه السلام: «انطلق يا بنيّ فأجمِعْ بالناس، فأقبل الحسن عليه السلام إلى المسجد، فلما استقر على المنبر حمد الله وأثنى عليه وتشهد وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: أيها الناس إن الله اختارنا لنفسه، وارتضانا لدينه، واصطفانا على خلقه وأنزل علينا كتابه ووحيه، وايم الله لا ينقصنا أحد من حقنا شيئًا، إلا انتقصه الله من حقه في عاجل دنياه وآخرته، ولا يكون علينا دولة إلا كانت لنا العاقبة ولتعلمنّ نبأه بعد حين... إلى آخر كلامه عليه السلام»[(١)].

والأمر الأهم من ذلك أن يفكر المؤمن في الكيفية التي يجعل الله فيها يحبه والمعصوم يعشقه، أما اكتفاؤه بأن يكون محبًا لهم، فهو الحب من طرف واحد، الذي يعد من أفشل أنواع العلاقات العاطفية؛ لأنها علاقة غير تفاعلية لا تقرب صاحبها من المحبوب، بل كلما تقرب إليه ابتعد عنه الآخر وحينئذ سوف لن يتحقق اللقاء أبدًا..

(١)ابن شهر آشوب محمد، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص١٧٨.

أثر الموالاة يوم القيامة

وهو من أعظم آثار الولاية؛ باعتبار عظم العالم الذي يكون المرء فيه وأهوال ذلك اليوم، فالناس آنذاك كل في شغل يشغله عن غيره من هول يوم المطلع، حتى وصف القرآن الكريم أحوالهم في ذلك اليوم العصيب بما لا يتصوره ذو لب، فالوالدان اللذان هما مظهر الرحمة الإلهية والعطف الرباني يفران من فلذة كبدهما، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[(١)]، وهنا يفاجئ المؤمن بشفاعة سادة الخلق أولياءه الصالحين محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، ليصبح في مأمن يحيا حياة المطمئن بكفالة النبي الأكرم كما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «...ومَنْ أحب آل محمد أمن من الحساب والميزان والصراط، ألا ومَنْ مات على حب آل محمد فأنا كفيله في الجنة مع الأنبياء...»[(٢)].

وللولاية يوم القيامة أبعادًا وآثارًا عظيمة أخرى كما جاء عنهم عليهم السلام ففي الخبر عن الفضيل بن اليسار قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «وإن الروح والراحة والفلج والعون والنجاح والبركة والكرامة والمغفرة والمعافاة واليسر والبشرى والرضوان والقرب والنصر والتمكن والرجاء والمحبة من الله عزَّ وجلَّ لِمَنْ تولى عليًا وائتم به وبرئ من عدوه، وسلم لفضله والأوصياء من بعده، حقًا عليَّ أن أدخلهم في شفاعتي وحق على ربي تبارك وتعالى أن يستجيب لي فيهم فإنهم أتباعي

(١) سورة عبس، الآيات ٣٤-٣٧.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٢٢.

ومَنْ تبعني فإنه مني»[١].

وورد في حديث طويل: «...قال: فيوحي الله عزَّ وجلَّ إليها: يا فاطمة سليني أعطك وتمني عليَّ أرضك.

فتقول: إلهي أنت المنى فوق المنى، أسألك أن لا تعذب محبي ومحبي عترتي بالنار، فيوحي الله إليها: يا فاطمة وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني، لقد آليت على نفسي من قبل أن أخلق السماوات والأرض بألفي عام أن لا أعذب محبيك ومحبي عترتك بالنار»[٢].

وعن أبي الورد قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد من الأولين والآخرين، عراة حفاة، فيوقفون على طريق المحشر حتى يعرقوا عرقًا شديدًا وتشتد أنفاسهم، فيمكثون كذلك ما شاء الله، وذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قال: ثم ينادي مناد من تلقاء العرش: أين النبي الأمي؟ قال: فيقول الناس: قد أسمعت كلًا فسم باسمه، قال: فينادي أين نبي الرحمة محمد بن عبد الله؟

قال: فيقوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيتقدم أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين أبلة وصنعاء، فيقف عليه، ثم ينادى بصاحبكم فيقوم أمام الناس فيقف معه، ثم يؤذن للناس فيمرون، قال أبو جعفر عليه السلام: فبين وارد يومئذ، وبين مصروف، فإذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢١٠.
(٢) هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج٣، ص٣٦٥.

يصرف عنه من محبينا أهل البيت بكى وقال: يا رب شيعة علي يا رب شيعة علي، قال: فيبعث الله عليه ملكًا فيقول له: ما يبكيك يا محمد؟ قال: فيقول: وكيف لا أبكي لأناس من شيعة أخي علي بن أبي طالب أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار، ومنعوا من ورود حوضي؟ قال: فيقول الله عز وجل له: يا محمد قد وهبتهم لك وصفحت لك عن ذنوبهم، وألحقتهم بك، وبمَنْ كانوا يتولون من ذريتك، وجعلتهم في زمرتك، وأوردتهم حوضك، وقبلت شفاعتك فيهم، وأكرمتك بذلك، ثم قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام: فكم من باك يومئذ وباكية، ينادون يا محمداه إذا رأوا ذلك، قال: فلا يبقى أحد يومئذ كان يتوالانا ويحبنا ويتبرأ من عدونا، ويبغضهم، إلا كان في حزبنا ومعنا وورد حوضنا»(١).

وينقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال للإمام علي عليه السلام: «ألا أبشرك ألا أمنحك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فإني خلقت أنا وأنت من طينة واحدة، ففضلت منها فضلة فخلق منها شيعتنا، فإذا كان يوم القيامة دعي الناس بأمهاتهم، إلا شيعتك فإنهم يدعون بأسماء آبائهم لطيب مولدهم»(٢).

وفي موضع آخر قال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «نحن ومحبونا من طينة واحدة بيضاء نقية من أعلى عليين، فخلقنا نحن من أعلاها وخلق محبونا من دونها، فإذا كان يوم القيامة التحقت العليا

---

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج١، ص٦٥.
(٢) الشيخ المفيد محمد بن النعمان، الإرشاد، ص٣١١.

بالسفلى، فضربنا بأيدينا إلى حجزة نبينا، وضربت شيعتنا بأيديهم إلى حجزتنا، فأين ترى يصير الله نبيه وذريته؟ وأين ترى يصير ذريته محبينا؟»[١].

وورد عن العلاء، عن محمد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فقال عليه السلام: «يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولى حسابه لا يطلع على حسابه أحد من الناس، فيعرفه ذنوبه، حتى إذا أقر بسيئاته قال الله عزَّ وجلَّ للكتبة: بدلوها حسنات، وأظهروها للناس، فيقول الناس حينئذ: ما كان لهذا العبد سيئة واحدة، ثم يأمر الله به إلى الجنة فهذا تأويل الآية، فهي في المذنبين من شيعتنا خاصة»[٢].

وورد عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبنا أهل البيت يكفر الذنوب، ويضاعف الحسنات، وإن الله تعالى ليتحمل عن محبينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد، إلا ما كان منهم فيها على إضرار وظلم للمؤمنين فيقول: للسيئات كوني حسنات»[٣].

وعن مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله لا يهلك هالك على حب علي إلا رآه في أحب المواطن إليه، والله لا يهلك هالك على بغض علي إلا وجده في أبغض المواطن إليه»[٤].

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات، ص٣٦.
(٢) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج١، ص٧٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٦.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: مَنْ آمن بي وبنبيي وبوليي أدخلته الجنة، على ما كان من عمله»(١).

وجاء أيضًا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «والله لا يصف عبد هذا الأمر فتطعمه النار، قلت: إن فيهم مَنْ يفعل ويفعل!؟، فقال: إنه إذا كان ذلك ابتلى الله تبارك وتعالى أحدهم في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا ضيق الله عليه في رزقه، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شدد الله عليه عند موته حتى يأتي الله ولا ذنب له ثم يدخله الجنة»(٢).

وعن عبد الله بن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إني أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم ويتولون فلانًا وفلانًا، لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولونكم، ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق؟ قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالسًا فأقبل علي كالغضبان، ثم قال: لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب على من دان بولاية إمام عادل من الله، قلت: لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء؟! قال: نعم لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء، ثم قال، ألا تسمع لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ يعني [من] ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة لولايتهم كل إمام عادل من الله وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾،

(١) المصدر السابق، ص٣٧٦.
(٢) البرقي، المحاسن، ص١٧٢.

إنما عنى بهذا أنهم كانوا على نور الإسلام فلما أن تولوا كل إمام جائر ليس من الله عزَّ وجلَّ خرجوا بولايتهم [إياه] من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النار من الكفار، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «معاشر عباد الله عليكم بخدمة مَنْ أكرمه الله بالارتضاء، واجتباه بالاصطفاء، وجعله أفضل أهل الأرض والسماء بعد محمد سيد الأنبياء علي بن أبي طالب عليه السلام وبموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه وقضاء حقوق إخوانكم الذين هم في موالاته ومعاداة أعدائه شركاؤكم، فإن رعاية علي أحسن من رعاية هؤلاء التجار الخارجين بصاحبكم - الذي ذكرتموه - إلى الصين الذي عرضوه للغناء وأعانوه بالثراء.

أما إن من شيعة علي لَمَنْ يأتي يوم القيامة وقد وضع له في كفة سيئاته من الآثام ما هو أعظم من الجبال الرواسي والبحار التيارة[٢]، تقول الخلائق: هلك هذا العبد، فلا يشكون أنه من الهالكين، وفي عذاب الله من الخالدين.

فيأتيه النداء من قبل الله عزَّ وجلَّ: يا أيها العبد الخاطئ [الجاني] هذه الذنوب الموبقات، فهل بإزائها حسنات تكافئها، فتدخل جنة الله برحمة الله؟ أو تزيد عليها فتدخلها بوعد الله؟ يقول العبد: لا أدري، فيقول منادي ربنا عزَّ وجلَّ: فإن ربي يقول: ناد في عرصات القيامة:

---

(١) العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٣٨.
(٢) أي سريع الجري.

ألا إني فلان بن فلان، من أهل بلد كذا [وكذا]، قد رهنت بسيئات كأمثال الجبال والبحار ولا حسنات لي بإزائها، فأي أهل هذا المحشر كان لي عنده يد أو عارفة فليغثني بمجازاتي عنها، فهذا أوان شدة حاجتي إليها.

فينادي الرجل بذلك، فأول من يجيبه علي بن أبي طالب عليه السلام لبيك لبيك [لبيك] أيها الممتحن في محبتي، المظلوم بعداوتي، ثم يأتي هو ومعه عدد كثير وجم غفير، وإن كانوا أقل عددًا من خصمائه الذين لهم قبله الظلامات.

فيقول ذلك العدد: يا أمير المؤمنين نحن إخوانه المؤمنون، كان بنا بارًا، ولنا مكرمًا وفي معاشرته إيانا مع كثرة إحسانه إلينا متواضعًا، وقد نزلنا له عن جميع طاعاتنا وبذلناها له.

فيقول علي عليه السلام: فبماذا تدخلون جنة ربكم؟ فيقولون: برحمته الواسعة التي لا يعدمها من والاك، ووالى آلك يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيأتي النداء من قبل الله عزَّ وجلَّ: يا أخا رسول الله هؤلاء أخوانه المؤمنون قد بذلوا له، فأنت ماذا تبذل له؟ فإني أنا الحاكم، ما بيني وبينه من الذنوب قد غفرتها له بموالاته إياك، وما بينه وبين عبادي من الظلامات، فلا بدَّ من فصل الحكم بينه وبينهم، فيقول علي عليه السلام: يا رب أفعل ما تأمرني.

فيقول الله عزَّ وجلَّ: [يا علي] اضمن لخصمائه تعويضهم عن ظلاماتهم قبله، فيضمن لهم علي عليه السلام ذلك، ويقول لهم: اقترحوا عليَّ

ما شئتم أعطكموه عوضًا عن ظلاماتكم قبله.

فيقولون: يا أخا رسول الله تجعل لنا بإزاء ظلاماتنا قبله ثواب نفس من أنفاسك ليلة بيتوتتك على فراش محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقول علي عليه السلام: قد وهبت ذلك لكم.

فيقول الله عزَّ وجلَّ: فانظروا يا عبادي الآن إلى ما نلتموه من علي بن أبي طالب عليه السلام فداء لصاحبه من ظلاماتكم.

ويظهر لهم ثواب نفس واحد في الجنان من عجائب قصورها وخيراتها، فيكون من ذلك ما يرضي الله عزَّ وجلَّ به خصماء أولئك المؤمنين.

ثم يريهم بعد ذلك من الدرجات والمنازل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر.

فيقولون: يا ربنا هل بقي من جناتك شيء؟ إذا كان هذا كله لنا، فأين يحل سائر عبادك المؤمنين والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ ويخيل إليهم عند ذلك أن الجنة بأسرها قد جعلت لهم.

فيأتي النداء من قبل الله عزَّ وجلَّ: يا عبادي هذا ثواب نفس من أنفاس علي بن أبي طالب الذي قد اقترحتموه عليه، قد جعله لكم، فخذوه وانظروا، فيصيرون هم وهذا المؤمن الذي عوضهم علي عليه السلام عنه إلى تلك الجنان، ثم يرون ما يضيفه الله عزَّ وجلَّ إلى ممالك علي عليه السلام في الجنان ما هو أضعاف ما بذله عن وليه الموالي له، مما شاء الله

عزَّ وجلَّ من الأضعاف التي لا يعرفها غيره.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أذلك خير نزلًا؟ أم شجرة الزقوم «المعدة لمخالفي أخي ووصيي علي بن أبي طالب عليه السلام، قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾»[١].

وعن زيد الشحام قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: «يا زيد! جدد التوبة وأحدث عبادة، قال: قلت: نعيت إلى نفسي، قال: فقال لي: يا زيد ما عندنا لك خير وأنت من شيعتنا، إلينا الصراط، وإلينا الميزان، وإلينا حساب شيعتنا، والله لأنا لكم أرحم من أحد كم بنفسه يا زيد كأني انظر إليك في درجتك من الجنة ورفيقك فيها الحارث بن المغيرة النضري»[٢].

وعن عبد الله بن محمد بن خالد، عمن يثق به يعني أمه، عن خالد محمد قال: فقال له عمرو بن إلياس قال: دخلت أنا وأبي إلياس ابن عمرو على أبي بكر الحضرمي وهو يجود بنفسه، فقال: يا عمرو ليست ساعة الكذب أشهد على جعفر بن محمد أني سمعته يقول: «لا يمس النار مَنْ مات وهو يقول بهذا الأمر»[٣].

وعن الوشاء، عن خاله عمرو بن إلياس قال: دخلت على أبي بكر

(١) البحراني، تفسير البرهان، ج١، ص٦٤.
(٢) الكشي، رجال الكشي، ص٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٥٥.

الحضرمي وهو يجود بنفسه فقال لي: أشهد على جعفر بن محمد أنه قال: «لا يدخل النار منكم أحد»[(١)].

وورد عن أبي مريم السلولي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يا علي إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله منها، الزهد في الدنيا، وجعلك لا تنال من الدنيا شيئًا ولا تنال الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حب المساكين، فرضوا بك إمامًا ورضيت بهم أتباعًا، فطوبى لِمَنْ أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم جيرانك في دارك، ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين بغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة»[(٢)].

وعن محمد بن سليمان الديلمي، عن أبيه قال: دخل سماعة بن مهران على الصادق عليه السلام فقال له: «يا سماعة مَنْ شر الناس؟ قال: نحن يا ابن رسول الله، قال: فغضب حتى احمرت وجنتاه ثم استوى جالسًا وكان متكئًا فقال: يا سماعة من شر الناس عند الناس؟ فقلت: والله ما كذبتك يا ابن رسول الله نحن شر الناس عند الناس لأنهم سمونا كفارًا ورافضة، فنظر إليَّ، ثم قال: كيف بكم إذا سيق بكم إلى الجنة، وسيق بهم إلى النار؟ فينظرون إليكم ويقولون: «ما لنا لا نرى رجالًا كنا نعدهم من الأشرار» يا سماعة بن مهران إنه مَنْ أساء منكم إساءة مشينا إلى الله تعالى يوم القيامة بأقدامنا فنشفع فيه فنشفع، والله لا

(١) المصدر السابق، ص٣٥٥.
(٢) أبو الفتح الإربلي، كشف الغمة، ج١، ص٢٢٨.

يدخل النار منكم عشرة رجال، والله لا يدخل النار منكم خمسة رجال، والله لا يدخل النار منكم ثلاثة رجال، والله لا يدخل النار منكم رجل واحد، فتنافسوا في الدرجات واكمدوا عدوكم بالورع»[١].

وعن الأصبغ بن نباتة قال: دخل الحارث الهمداني على أمير المؤمنين عليه السلام في نفر من الشيعة، وكنت فيهم، فجعل الحارث يتأود في مشيته ويخبط الأرض بمحجنه، وكان مريضًا فأقبل عليه أمير المؤمنين وكانت له منه منزلة فقال: كيف تجدك يا حارث؟ قال: نال الدهر مني يا أمير - المؤمنين وزادني أو زاد غليلًا اختصام أصحابك ببابك، قال: وفيم خصومتهم؟ قال: في شأنك، والثلاثة من قبلك، فمَنْ مفرط غال، ومقتصد تال، ومن متردد مرتاب لا يدري أيقدم أم يحجم؟

قال: بحسبك يا أخا همدان، ألا إن خير شيعتي النمط الأوسط إليهم يرجع الغالي وبهم يلحق التالي قال: فقال له الحارث: لو كشفت فداك أبي وأمي الريب عن قلوبنا، وجعلتنا في ذلك على بصيرة من أمرنا، قال: قدك فإنك أمرء ملبوس عليه، إن دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية حق فاعرف الحق تعرف أهله، يا حارث إن الحق أحسن الحديث، والصادع به مجاهد، وبالحق أخبرك فارعني سمعك ثم خبر به مَنْ كانت له حصافة من أصحابك.

ألا إني عبد الله وأخو رسول الله وصديقه الأكبر: صدقته وآدم بين الروح والجسد، ثم إني صديقه الأول في أمتكم حقًا فنحن

---

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج١، ص٣٠١.

الأولون، ونحن الآخرون، ألا وإني خاصته يا حارث وصنوه ووصيه ووليه وصاحب نجواه وسره أوتيت فهم الكتاب وفصل الخطاب، وعلم القرآن، واستودعت ألف مفتاح يفتح كل مفتاح ألف باب يفضي كل باب إلى ألف ألف عهد وأيدت أو قال أمددت بليلة القدر نفلًا وإن ذلك ليجري لي وللمستحفظين من ذريتي كما يجري الليل والنهار حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وأبشرك يا حارث ليعرفني وليي وعدوي في مواطن شتى ليعرفني عند الممات، وعند الصراط، وعند الحوض، وعند المقاسمة قال الحارث: وما المقاسمة يا مولاي؟ قال: مقاسمة النار أقاسمها قسمة صحاحًا: أقول هذا وليي فاتركيه وهذا عدوي فخذيه، ثم أخذ أمير المؤمنين علي عليه السلام بيد الحارث، فقال: يا حارث أخذت بيدك كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدي، فقال لي وقد اشتكيت إليه حسد قريش والمنافقين: إنه إذا كان يوم القيامة أخذت بحبل أو بحجزة يعني عصمة من ذي العرش تعالى وأخذت أنت يا علي بحجزتي، وأخذت ذريتك بحجزتك وأخذت شيعتكم بحجزتكم، فماذا يصنع الله عز وجل بنبيه؟، وماذا يصنع نبيه بوصيه؟ خذها إليك يا حارث قصيرة من طويلة أنت مع مَنْ أحببت، ولك ما اكتسبت قالها ثلاثًا فقال الحارث - وقام يجر ردائه جذلًا-: ما أبالي وربي بعد هذا متى لقيت الموت أو لقيني»(١).

وعن ابن عمر قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن علي بن أبي طالب عليه السلام فغضب وقال: «ما بال أقوام يذكرون منزلة مَنْ منزلته من الله

(١) الشيخ المفيد، مجالس المفيد، ص١.

كمنزلتي، من له منزلة كمنزلتي ألا ومن أحب عليًا فقد أحبني ومن أحبني رضي الله عنه، ومن رضي الله عنه كافأه الجنة، ألا ومَنْ أحب عليًا تقبل الله صلاته وصيامه وقيامه، واستجاب الله له دعاءه، ألا ومَنْ أحب عليًا استغفرت له الملائكة وفتحت له أبواب الجنة الثمانية فدخل من أي باب شاء بغير حساب، ألا ومَنْ أحب عليًا لا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر، ويأكل من شجرة طوبى ويرى مكانه من الجنة، ألا ومَنْ أحب عليًا هون الله تعالى عليه سكرات الموت، وجعل قبره روضة من رياض الجنة، ألا ومَنْ أحب عليًا أعطاه الله بعدد كل عرق في بدنه حوراء، ويشفع في ثمانين من أهل بيته، وله بكل شعرة على بدنه مدينة في الجنة، ألا ومَنْ أحب عليًا بعث الله إليه ملك الموت برفق، ورفع الله عز وجل عنه هول منكر ونكير، ونور قبره وبيض وجهه، ألا ومَنْ أحب عليًا عليه السلام أظله الله في ظل عرشه مع الشهداء والصديقين، ألا ومَنْ أحب عليًا نجاه الله من النار، ألا ومَنْ أحب عليًا تقبل الله منه حسناته، وتجاوز عن سيئاته، وكان في الجنة رفيق حمزة سيد الشهداء، ألا ومَنْ أحب عليًا أثبت الله الحكمة في قلبه وأجرى على لسانه الصواب، وفتح الله له أبواب الرحمة، ألا ومَنْ أحب عليًا سمي في السماوات أسير الله في الأرض، ألا ومَنْ أحب عليًا ناداه ملك من تحت العرش أن: يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر الله لك الذنوب كلها، ألا ومَنْ أحب عليًا جاء يوم القيامة كالقمر ليلة البدر، ألا ومَنْ أحب عليًا وضع الله على رأسه تاج الملك وألبسه حلة الكرامة، ألا ومَنْ أحب عليًا عليه السلام: مر على الصراط كالبرق الخاطف، ألا ومَنْ أحب عليًا وتولاه كتب الله

له براءة من النار، وجوازًا من الصراط وأمانًا من العذاب، ألا ومَنْ أحب عليًا لا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويقال أو قيل له: ادخل الجنة بغير حساب، ألا ومَنْ أحب عليًا صافحته الملائكة وزارته الأنبياء: وقضى الله له كل حاجة كانت له عند الله عز وجل، ألا ومَنْ مات على حب آل محمد فأنا كفيله بالجنة قالها ثلاثًا»[(١)].

وعن عباد بن يعقوب عن موسى بن عثمان عن الأعمش، حدثني أبو إسحاق بن الحارث وسعيد بن بشير عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا واردكم على الحوض وأنت يا علي الساقي، والحسن الذائد[(٢)]، والحسين الآمر[(٣)]، وعلي بن الحسين الفارط[(٤)]، ومحمد بن علي الناشر[(٥)]، وجعفر بن محمد السائق[(٦)]، وموسى بن جعفر محصي المحبين والمبغضين وقامع المنافقين، وعلي بن موسى مزين المؤمنين، ومحمد بن علي منزل أهل الجنة درجاتهم، وعلي بن محمد خطيب شيعته ومزوجهم الحور العين، والحسن بن علي سراج أهل الجنة يستضيئون به، والمهدي شفيعهم يوم القيامة حيث لا يأذن الله إلا لمن يشاء ويرضى»[(٧)].

وجاء عن حذيفة بن منصور قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ

(١) محمد بن القاسم الطبري، بشارة المصطفى، ص٤٤.
(٢) الذائد: أي الذي يبعد المزاحم للشارب.
(٣) الآمر: أي الذي يأمر الساقين بسقي الموالي.
(٤) الفارط: أي الذي يفتح الطريق.
(٥) الناشر: أي: الذي يستقبل الموالي عند خروج روحه.
(٦) السائق، أي: الذي يسوق الموالين إلى الكوثر.
(٧) العلامة المجلسي، البحار، ج٣٦، ص٢٧٠.

دخل عليه رجل فقال: جعلت فداك إن لي أخًا لا يؤتى من محبتكم وإجلالكم وتعظيمكم غير أنه يشرب الخمر فقال الصادق عليه السلام: «أما إنه لعظيم أن يكون محبنا بهذه الحالة، ولكن ألا أنبئكم بشر مَنْ هذا؟ الناصب لنا شر منه.

وإن أدنى المؤمنين وليس فيهم دني ليشفع في مائتي إنسان، ولو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع، والبحار السبع، شفعوا في ناصبي ما شفعوا فيه ألا أن هذا لا يخرج من الدنيا حتى يتوب أو يبتليه الله ببلاء في جسده، فيكون تحبيطًا لخطاياه حتى يلقى الله عز وجل لا ذنب له، إن شيعتنا على السبيل الأقوم إن شيعتنا لفي خير ثم قال عليه السلام: إن أبي كان كثيرًا ما يقول: أحبب حبيب آل محمد وإن كان مرهقًا ذيالًا وابغض بغيض آل محمد وإن كان صوامًا قوامًا»[(١)].

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا وفاطمة والحسن والحسين وعلي في حظيرة القدس في قبة بيضاء، وهي قبة المجد وشيعتنا عن يمين الرحمن تبارك وتعالى»[(٢)].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الله رحيم بعباده، ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة واحدة في الخلق كلهم، فبها يتراحم الناس وترحم الوالدة ولدها وتحنن الأمهات من الحيوانات على أولادها، فإذا كان يوم القيامة أضاف إلى هذه الرحمة الواحدة تسع وتسعين رحمة، فيرحم بها أمة محمد، ثم يشفعهم فيمن يحبون له الشفاعة من

(١) المصدر السابق، ص٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

أهل الملة، حتى إن الواحد ليجيء إلى المؤمن من الشيعة، فيقول: اشفع لي، فيقول: وأي حق لك علي؟ فيقول: سقيتك يومًا ماءً فيذكر ذلك فيشفع له فيشفع فيه، ويجيئه آخر فيقول: إن لي عليك حقًا، فاشفع لي، فيقول: وما حقك عليَّ؟ فيقول: استظللت بظل جداري ساعة في يوم حر فيشفع له فيشفع فيه، ولا يزال يشفع حتى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه، فإن المؤمن أكرم على الله مما تظنون»[(١)].

امتداد الولاية

اختلف علماء الأديان والاجتماع في تفسير نشأة الأديان المختلفة، أما الرأي الإسلامي المستفاد من المصادر الإسلامية في هذا المجال فهو: إن الدين ولد مع الإنسان على البسيطة إذ إن الإنسان الأول على الأرض وهو آدم (عليه السلام) كان نبي الله وداعيًا للتوحيد، وأما الأديان المنحرفة فقد وجدت نتيجة التشويهات والعمل بالأهواء والأذواق والمطامع الفردية والجماعية.

تشترك الأديان التوحيدية في ثلاثة أصول كلية: الإيمان بالله الواحد (التوحيد)، والإيمان بالحياة الأبدية لكل إنسان في عالم الآخرة ونيل الجزاء على الأعمال التي مارسها في الحياة الدنيوية (المعاد)، والإيمان ببعثة الأنبياء والرسل المبعوثين من الله تعالى لهداية الناس لما فيه كمالهم النهائي وسعادتهم في الدنيا والآخرة (النبوة).

---

(١) تفسير الإمام العسكري، ص٤٤.

وهـذه الأصـول الثلاثـة تمثـل في واقعهـا الأجوبـة الحاسـمة عـلى الأسـئلة الرئيسـية التـي تُطـرح عـلى الإنسـان الواعـي: مَـنْ هـو خالـق الوجـود ومبـدأه؟ مـا هـو مصـير الإنسـان وسـائر المخلوقـات؟ مـا هـو السـبيل لمعرفـة النظـام الأفضـل للحيـاة؟ أمـا النظـام – الأحـكام – الـذي يمكـن التعـرف عليـه مـن طريـق الوحـي فيمثـل الأيديولوجيـة المنبثقـة في واقعهـا مـن الرؤيـة الكونيـة الإلهيـة.

وللمعتقـدات الأصليـة لـوازم وملزومـات وتوابـع وتفاصيـل تؤلـف بمجموعهـا النظـام العقائـدي للديـن والاختـلاف بـين هـذه المعتقـدات كان السـبب في ظهـور الأديـان والفـرق والنحـل والمذاهـب الدينيـة المختلفـة، فالملاحـظ أن الاختـلاف في نبـوة بعـض الأنبيـاء الإلهيـين وتعيـين الكتـاب المعتـبر والمعتمـد عليـه كان السـبب الرئيـس في الاختـلاف بـين الديـن اليهـودي والمسـيحي والمسـلم، ولقـد نجـم منـه الكثـير مـن الاختلافـات الأخـرى في العقائـد والأعـمال، بحيـث لا يتـلاءم مـع التوحيـد، كـما هـو الحـال عنـد النصـارى وإيمانهـم بالثالـوث، وإن حاولـوا تبريـر هـذه العقيـدة وتوجيههـا...

وكذلـك الاختـلاف في تعيـين الخليفـة بعـد النبـي ﷺ، وهـل يلـزم تعيينـه وتنصيبـه مـن الله تعـالى؟ أم بالشـورى –مـن النـاس– الـذي كان ومـا زال يعتـبر السـبب الرئيـس في الاختـلاف الدائـر بـين الشـيعة والعامـة في الإسـلام...

إن التوحيـد والنبـوة والمعـاد تمثـل العقائـد الأساسـية لـكل الأديـان

السماوية ولكن هناك معتقدات أخرى نشأت، أما من تحليل هذه المعتقدات، أو أنها من توابعها يمكن أن نعتبرها من العقائد الأصلية أيضًا، ولكن وفق اصطلاح خاص، فمثلًا يمكن أن نعتبر الإيمان بوجود الله هو الأصل الأول، والإيمان بالتوحيد هو الأصل الثاني، والاعتقاد بأصل النبوة من أصول جميع الأديان، والاعتقاد بنبوة خاتم النبيين أصلًا آخر من أصول الدين الإسلامي، فيما اعتبر علماء الشيعة العدل – وهو من المعتقدات المتفرعة من التوحيد- أصلًا مستقلًا، والإمامة وهي من لواحق النبوة أصلًا آخر وفي الواقع إن استعمال كلمة (الأصل) في مثل هذه المعتقدات خاضع للاصطلاح والمواضعة ولا مجال للبحث والنزاع حوله.

إذن كلمة أصول الدين يمكن استعمالها في معنيين عام وخاص، الاصطلاح العام ما يقابل فروع الدين وقسم الأحكام ويشمل كل العقائد المعتبرة، والاصطلاح الخاص يختص بالمعتقدات الأساسية، ويمكن أن نطلق (أصول الدين) بصورة مطلقة دون تخصيصها بدين معين على العقائد المشتركة بين الأديان السماوية أمثال الأصول الثلاثة: (التوحيد، النبوة، المعاد)، أما لو أضفنا إليها بعض الأصول الأخرى فنطلق عليها «أصول الدين الخاصة أو كذلك بإضافة بعض المعتقدات المختصة بمذهب معين أو فرقة معينة نطلق عليها أصول الدين والمذهب» أو (أصول العقائد لمذهب معين).

البحث عن الدين هو طريق الكمال

كلنا يعلم أن الأفراد غير متساوين في اعتبار ضرورة البحث عن الدين من عدمه كون البحث عن موضوع الدين (فعل إنساني) متعلق بإرادة الإنسان، والأخيرة لا تتعلق إلا بالأفعال التي يرجحها العقل والتي يراها ذات فائدة للإنسان مرتكزًا على ما يمتلكه من معلومات مخزونة، وكذلك على ما يُميّز به المسائل بعد إقامة الأدلة والبراهين كونها مصداقًا لأحد الدوافع الفطرية، فالإنسان في حقيقته يمتلك العديد من القوى الفطرية وهذه القوى تحب كمالها، وكمالها يكون في فعلها، فهي تدفع الإنسان باتجاه تنفيذ فعلها أو فعله، فالعقل يكون عندئذٍ كالحكم أو القاضي بين هذه القوى في إيقاع فعلها عند التزاحم وترتيب الأهم منها ثم المهم فالأقل أهمية وهكذا، تليها (بعد تعيين الأهم وتشخيصه) مرحلة تعيين أفضل وأحسن الوجوه للفعل المهم الذي اختاره العقل وهنا يكون العامل الأساسي لهذا التمييز العقلي هو الأدلة والبراهين العقلية المقامة، أما الأدلة النقلية فتكون من باب الاستئناس والتأكيد وزيادة البصيرة، إذ يستحيل أن يكون الدافع لوجوب المعرفة هو النقل دون العقل كما زعم أهل الحديث والأشاعرة؛ لأن النقل قبل المعرفة لا حجية فيه أصلًا، فكيف يكون دافعًا وموجبًا للمعرفة!؟، ومن دوافع البحث عن الدين ومعرفته وخصوصًا أصول الدين:

الدافع الأول: حب الاطلاع

يعتبر حب الاطلاع والفضول غريزة وسلوك، وهو من الدوافع التي تحرك سلوك الكائن الحي بصورة عامة وتوجهه، فرغبة الحيوان في استكشاف ما حوله ورغبة الإنسان منذ نعومة أظفاره في التعرف على بيئته، ورغبة البالغين من الناس في استجلاء العالم المحيط بهم تدل جميعها على وجود هذا الدافع في الفطرة بما هي فطرة، وإن كان يختلف من موجود إلى آخر؛ يتحدد سعة وضيقًا على ضوء العلم والمعرفة اللذين يتمتع بهما هذا الكائن أو ذاك، وإن كانت تتركز في حقيقة الإنسان؛ لتميزه عن غيره بهذا الجانب، ومن هنا يعد هذا الدافع الفطري المحرك الأول للإنسان الذي يحركه نحو التعرف على الحقيقة وعلل الأشياء، فهو الذي يدفعه إلى التفكير والتأمل في جميع القضايا والمسائل التي تطرح أمامه ومنها التي طرحت باسم الدين.

إن في هذا الكون وفي هذه الحياة ظواهر طبيعية مختلفة ففي السماء نجوم وكواكب ونيازك، وفي الجو سحاب ورعد وبرق ومطر، وعلى الأرض جبال وأدغال وأنهار وبحار وفيها الطيور والسباع والحيتان والبشر والجميع في حالة تغير وتبدل ونمو وفناء ومن بين كل هذه الموجودات يبرز الإنسان كموجود متميز ذي قوة عاقلة مفكرة تناضل من أجل البقاء، ويموت ويولد مثله، وعندما يبدأ الإنسان بوعي ذاته ووجوده ويجد نفسه واقعًا بين جميع هذه المتغيرات الكونية تختلج في باطن نفسه ثلاث أسئلة تطالبه بإلحاح شديد بالجواب عنها، وهي:

- من أيـن أتيت؟

- لـمـــاذا أتيت؟

- إلى أين اذهب؟

التـي لخصهـا أمـير المؤمنـين عليه السلام بقولـه: «رحـم الله إمـرءًا عـرف مـن أيـن؟ وفي أيـن؟ والى أيـن؟»[1].

السـؤال الأول: (مـن أيـن أتيـت؟)، وهـذا السـؤال في حقيقتـه هـو سـؤال عـن مبـدأ الوجـود، ويتـم جوابـه بإثبـات الخالـق ووحدانيتـه، وعندئـذٍ سـتطرح أسـئلة أخـرى منبثقـة منـه، وهـي:

- هل هناك وجود لموجود غير محسوس أو غير مادي (غيب)؟

- هل هناك علاقة بين عالم الغيب والعالم المادي المحســوس؟

أمـا السـؤال الثـاني (لمـاذا أتيـت؟)، فهـو سـؤال في حقيقتـه سـؤال عـن الغايـة مـن خلقـه، ويتـم جوابـه بإثبات الخالـق، وبعـث الرسـل، والتكليف، وإيجـاد الشرائـع (تعيين مـا هـو الطريـق الأمثـل للمسـير)؟

وفيـما يتعلـق بحقيقـة السـؤال الثالـث (إلى أيـن اذهـب؟) فهـو سـؤال عـن النهايـة التـي يـؤول إليهـا الإنسـان بعـد موتـه، ويتـم جوابـه بإثبـات المعـاد والعـالم الأخـروي، وبهـذا سـتنبثق منـه أسـئلة أخـرى مترتبـة عليـه، وسـوف تكتمـل صورتـه بالإجابـة عنهـا، وهـي:

---

(١) القبانجي السيد حسن، شرح رسالة الحقوق، ص٨٨.

- هل ينحصر ويتحدد وجود الإنسان بهذا البدن المادي والحياة الدنيوية؟

- هل هناك علاقة وارتباط بين الحياة الدنيوية والحياة الأخروية بعد إثباتها؟

يلخصها السؤال العام: ما هو النظام الصحيح للحياة الذي يكفل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة؟ فغريزة حب الاطلاع يمثل الدافع الأول، الذي يدفع الإنسان للبحث عن كل المسائل والقضايا ومن جملتها المسائل الدنيوية، ومعرفة الدين الحق، وهو دافع شعوري يجده الإنسان في نفسه بشكل عام أي: يوجد في جميع الأفراد بالفعل منذ بداية حياته وليس بالقوة؛ ولهذا نجده مصممًا على الحصول على جواب له، يقتنع به ويرتب عليه آثارًا، تنعكس على سلوكياته وطريقة تعامله مع الآخرين.

الدافع الثاني: لزوم دفع الضرر

إن التوفر على النعم والمصالح المادية الدنيوية المختلفة متوقف على بذل الجهود العملية وتقدم العلوم التجريبية، ومن جملة ما يحكم به العقل الفطري لزوم دفع الضرر والألم والأذى عن نفسه، ماديًا كان أم نفسيًا ويقبح على الإنسان أن يترك نفسه فريسة العذاب وأسيرًا للضياع وهو يجد لها مخلصًا ومهربًا ينجو بها إلى هناء الراحة والطمأنينة والسعادة؛ ولهذا دائمًا ما يبحث عن المؤَمِن.

فالإنسان عندما يبلغ أوان إدراكه وتفتح وعيه يرى المجتمعات البشرية التي يعيش فيها (وفيها أهل الصلاح والتعقل والدراية) تتخبط فيها الآراء المتناقضة والمذاهب المختلفة، كلٌّ يدعو إلى مذهبه ويرى أن فيه السعادة وفي مخالفته الشقاوة والهلاك، في خضم هذه الأجواء يقف الإنسان مرعوبًا في نفسه وليس أمامه إلا أن يسلك طريقًا يؤمن له النجاة ويدفع من خلاله عن نفسه الضرر - كما يشير إليه عقله -؛ لكي يدفع هذا الخوف والألم النفسانيين فهو أمامه أكثر من طريق:

أ- أما أن يعتقد بجميع المذاهب وهذا مستحيل؛ لأنها متناقضة في دعاويها.

ب- لا بدَّ أن يختار أحدها وهو على احتمالين:

١- يختار عن هوى وتقليد أعمى للغير، فعندئذ لن ينجو من حالة الخوف والاضطراب النفسيين (لم يدفع الضرر عن نفسه)؛ لأنه لا يستطيع حينئذ أن يقطع بحجية ما اتبع، فسيبقى احتمال الخلاف والخطأ بالاختيار موجود.

٢- وأما أن يختار عن دليل مقنع وبرهان واضح وقاطع لكل شك وريبة، فعندئذٍ يندفع خوفه ويزول ألمه ويأمن في أجواء العقائد المتضاربة؛ لأنه سيكون مطمئنًا بتأمين نفسه، قد دفع الضرر عنها، وهو المتعين.

من هنا تبين أن لزوم دفع الضرر واستجلاب المنفعة هو دافع شعوري أيضًا يجده كل إنسانٌ في نفسه بالفعل منذ بداية حياته وفي بداية إعمال مدركاته، وعليه يظهر أن العقل كما يلزم الإنسان بالمعرفة يلزمه أيضًا بأن تكون عن دليل وبرهان يقيني فإن أمكن للدين أن يساعده على إشباع حاجاته وتوفر المنافع والمصالح التي ينشدها والأمن من المضار والأخطار والآلام التي تتهدده، فسيكون الدين من المجالات التي ينشدها الإنسان في حياته، وسوف يسعى إلى الالتزام بمبادئه وأوامره وأحكامه، وبعبارة أخرى سوف يحاول أن يتلبس بلباس الدين ويكون متدينًا؛ حماية لنفسه وليصونها من العذاب والهلكة.

الدافع الثالث: لزوم شكر المنعم

رغم تنوع الدراسات وتعدد الأدلة الفطرية والنقلية والعقلية والبراهين في البحث عن معرفة الله تعالى، إلا إنه مع ذلك يبقى البعض منها مميزًا ومقدمًا على غيره؛ لأنه لا ينسجم مع فطرة الإنسان فحسب، بل لانسجامه مع الطبع الشخصي؛ ولثبوته بالوجدان؛ لكثرة شيوعه وتطبيقه والعمل به يوميًا من قبل الأفراد، ومن أوضح مصاديق ذلك هو الدافع الذي نحن فيه، هذا الدافع الفطري الذي يستدل به على ضرورة معرفة الله سبحانه، فالعقل يحكم بلزوم شكر معطي النعمة، وثنائه على ما أعطاه من معروف، ومجازاته على ما أظهره تجاهه من تودد وتلطف، ولا يكون هذا الشكر ملبيًا لذلك النداء الفطري، إلا إذا كان متناسقا ومناسبًا لحال المشكور، وهذا ما يحدده معرفة حدود ما

يغدقه عليه من النعم، ومقدار اكتشافه لهويته الشخصية التي تنطوي على صفاته ومستوى ما يتمتع به من محاسن وكمالات، وإلا فلو كان الشكر دون مقامه ولم يناسب شخصه لم يكن شكرًا، بل ربما يُعد إهانةً واستخفافًا، فلا بدَّ إذن من معرفة المنعم تمام المعرفة، ثم أداء شكره بما يناسب شأنه ومقامه.

إن أساس الدين وحقيقته هو شكر المنعم بلزوم طاعته وتجنب معصيته، فإن حقيقة الشكر هو عرفان النعمة من المنعم والفرح بها والعمل بموجب ذلك الفرح، وهو لا يتم إلا بإضمار الخير نحوه، واستعمال تلك النعمة في طاعته، ولذلك قال بعض العرفاء: «إن وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى، لا يَلزم أن تقوم على دفع الضرر المحتمل، فإن كثيرًا من العقول لا تُدرك ذلك لأسباب متعددة، بل إن وجوب الطاعة قائمةٌ على عِرفان الجميل من الله سبحانه، ولزوم رد الإحسان إليه، وهو لا يتأتَّى إلا بالقيام بما هو محبوب ومقصود لديه، وهذا أمرٌ فطري في النفوس، جِبلّي في الخلقة، وقد قرن الله سبحانه الشكر في كتابه بالذكر، وقابل بينه وبين الكفر، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1]، بل رتب على عدمه العذاب، فقال جل من قائل: «ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليمًا»[2].

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤٧.

علماء النفس والعبادة

إن لله في خلقه شؤون وله جلَّ شأنه فيه غايات، فهو سبحانه لم يخلق منهم أحدًا ولم يخلق لهم شيئًا إلا عن إرادة نابعة عن حب، مصدره وجود مصلحة في ذات الشيء، وقد اقتضت إرادته سبحانه أن يخلق الإنسان محتاجًا إلى الكثير من الحاجات الضرورية في حياته، التي لولاها لم تتقوم له الحياة، ولفقدت الكثير من طعمها ولم تكن متزنة متكاملة؛ لأنها سر ديموته وبقائه، وجزء لا ينفك من أصل تكوينه وحقيقته، ورسخها في أعماق ذاته، فأصبحت ذات دوافع فطرية، متجذرة، عميقة لا تغلب بسهولة، ثم زينها في نفسه لتهوى إليها ولتسعَ في الحصول عليها وتتحرك نحو تحقيقها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

يتضح مما سبق أن الحاجة شهوةٌ تتولَّد داخلَ الإنسان، تزول بمجردِ إشباعِها، ولا يمكن لها أن تختفي ما دامت تستشعر الظمأ، فهي حالة من النقص أو الاضطراب الجسمي والنفسي، إن لم تلقَ من الفرد إشباعًا بدرجة معيَّنة، فإنها تثير لديه نوعًا من الألم أو التوتُّر، أو اختلال التوازن، مع أنها تختلف من حيث القيمة باعتبار طبيعتها وماهيتها، فمنها الفسيولوجية، أي: التي يحتاجها البدن، كالمأكل

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤.

والمشرب والملبس وأمثالها، ومنها النفسية كالحاجة إلى الأمن والأمان، والتي تساعد العبادة في توفيرها؛ لأن الإنسان مفتقد للأمان منذ أن أدرك وجود مصير مجهول ينتظره والعبادة تؤمنه وتوفر له الشعور بالطمأنينة، ومن هنا أصبحت لديه الرغبة في البحث عن المعبود الذي بطاعته ينال الإنسان هذا التأمين فيسد عن نفسه هذه النقص وينفي عنها هذه الحاجة.

إن بعض علماء النفس يعتقد بأن لعبادة الله والتدين في واقعه، دافعًا فطريًا مستقلًا يعبر عنه بالشعور الديني فإن هؤلاء واستنادًا إلى شواهد التاريخ وعلم الآثار والمخلفات القديمة يرون بأن التدين وعبادة الله ظاهرة ثابتة بشكل من الأشكال، في كل الأجيال البشرية على امتداد التاريخ، وهذا الثبات والشمولية لهذه الظواهر دليل على فطريتها.

ولا نعني بالشمولية وجودها بشكل حي يقظ في جميع الأفراد بحيث يدفع الإنسان شعوريًا لتحقيق أهدافه المنشودة، بل من الممكن أن يكمن ويختفي في أعماق الفرد، نتيجة لعوامل محيطة وتربوية غير سليمة، أو أنه ينحرف عن مساره الصحيح - كما هو الملاحظ في سائر الغرائز والميول، حيث تتعرض للكمون والاختفاء والانحراف كثيرًا أو قليلًا -، ولكن بما أن تأثير هذا الميل الفطري ليس شعوريًا، فيمكن لأحد ما أن ينكر وجود مثل هذا الدافع في نفسه عند الجدال، لذلك نقتصر في دراستنا عن أهمية البحث عن الدين، من خلال الدوافع الفطرية الشعورية فقط.

أهمية البحث عن الدين

اتضح مما سبق أن الدافع الفطري لمعرفة الحقائق الذي عبروا عنه بحب الإطلاع من جانب، والرغبة للوصول إلى المنافع والمصالح والأمن من الضرر والخطر من جانب آخر، وشكر المنعم هو الجانب الثالث، كل ذلك يشكل دوافع قوية للإنسان لكي يتأمل في المعلومات والآراء المكتسبة وتحصيلها قبل أن يؤمن بها.

هنا يأتي السؤال: لماذا يهمل الكثير من الناس ضرورة البحث عن الدين؟

الجواب:

إن من الممكن أن يتجنب البعض البحث عن الدين بسبب الكسل وحب الارتخاء والراحة، أو بسبب حبهم التحلل وعدم الالتزام؛ بإعتبار أن الإيمان بالدين يفرض عليهم الكثير من الضوابط والحدود ويمنعهم من بعض الممارسات التي ترغب بها نفوسهم فعليهم تقبل الآثار السيئة لهذا الكسل والغرور وما يعقبها بعد ذلك من العذاب الأبدي والشقاء الدائم، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم أمثال هؤلاء الغافلين أضل من الأنعام.

﴿... أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]...

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(١)...

بعد الإجابة عن السؤال نعود إلى صلب الموضوع ونقول: إن أي شخص منفتح يعلم بوجود أفراد كبار على امتداد التاريخ ادّعوا بأنهم مبعوثون من خالق الكون لهداية البشر لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد بذلوا أقصى جهودهم في سبيل إبلاغ رسالاتهم، وهداية البشر وتحملوا كل ألوان المتاعب والتحديات، بل ضحوا بأرواحهم في سبيل هذا الهدف، فإن هذا الشخص بدفع من ذلك الدافع الفطري -حب الاطلاع- يتحرك للبحث عن الدين؛ ليرى مدى صحة دعوى هؤلاء الأشخاص -الأنبياء- وهل توجد أدلة منطقية كافية على صحة دعواهم؟.

ويزداد البحث حول هذا الموضوع حينما يعلم بأن دعوتهم ورسالتهم تتضمن البشارة بالسعادة والنعمة الأبدية والإنذار بالشقاء والعذاب الأبدي، أي أن الإيمان بما يأتون به يتعقبه المنافع المحتملة اللانهائية، وان عصيانهم فيما يبلغونه يتعقبه الأضرار والأخطار المحتملة اللانهائية -حب دفع الضرر وجلب النعم-.

ومما يؤكد هذه الضرورة علم الإنسان بفقره وذلته في مقابل غنى وعزة المنعم، فعندما يطرح له موضوع صفات ومنزلة المنعم وطريقة أداء شكره -دافع شكر المنعم- بما يضمن توالي النعمة واستمرارها، سوف لا يبقى أي مبرر لهذا الشخص بعدم الاهتمام بالدين، أو سبب

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٢.

يبقيه واقفًا موقف اللامبالاة من محاولة البحث عنه، أجل ربما يتشبث البعض للتهرب من التفكير والبحث عن الدين بهذه الحجة، إنما يستحسن بذل الجهد والبحث عن قضية علمية ما وأمثالها ويحاول الوقوف عليها ومعالجة المشاكل المحيطة بها إن وجدت، فيما لو كان الإنسان يأمل في العلاج خيرًا ويحتمل الأفضل فيما لو توصل من خلال جهوده هذه إلى الحل والنتيجة، مع أن هذه المسائل مهما رقت وتعالت درجة أهميتها، إلا أنها تبقى دون مسألة البحث عن الدين ومسائله؛ لما فيها من علاقة بتسيير حياته وفق نسق منظم، وتحديد مصيره، فمما يعجب له أن يبقى أمثال هؤلاء لا يعيرون أهمية للبحث عن الدين رغم منطقية ما ذكر!!!، فالأمل في معالجة المسائل الدينية واحتمالها ليس بأقل من الاحتمال في معالجة المسائل العلمية حيث أمكن التوصل إليها نتيجة لعشرات السنين من الجهود المضنية التي بذلها العلماء، بالإضافة إلى أن قيمة الاحتمال لا تخضع لعامل واحد وهو – درجة الاحتمال – فحسب، بل لا بدَّ أن نلاحظ أيضًا درجة المحتمل، فمثلًا لو كان احتمال الربح في عمل اقتصادي ٥٪ وفي عمل آخر ١٠٪، ولكن مقدار الربح المحتمل الذي يدره العمل الأول مليون دينار وفي العمل الثاني مائة ألف دينار فإن العمل الأول يُرجح على العمل الثاني بعشرة أضعاف مع أن درجة الاحتمال فيه تمثل نصف درجة الاحتمال في العمل الثاني، وبما أن المنفعة المحتملة التي تتمثل في البحث عن الدين لا نهائية؛ لذلك تبقى قيمة البحث وبذل الجهد في هذا السبيل وأهميتها (مقدار المحتمل) تفوق بكثير قيمة البحث في أي طريق آخر له درجة احتمال

أكثر، لكن نتيجته محدودة وضعيفة (مقدار المحتمل).

ونشير هنا أخيرًا:

إنما يتقبل العقل تجنب البحث عن الدين فقط فيما لو جزمنا إن الدين باطل وغير صحيح، أو أن مسائله لا تقبل الحل والعلاج، ولكن من أين يأتي هذا الجزم والاطمئنان !!!.

الإمامة من أصول المذهب

إتمام لما مر تعتبر الإمامة أصلًا من أصول المذهب وبه تميزت الإمامية عن غيرها، فلها في الفهم الشيعي معنى خاص، يختلف عن معناها في كل المدارس الإسلامية الأخرى، فهو المذهب الوحيد الذي أوجب الإمامة في المعرفة الإسلامية، بنفس المرتبة التي تجب فيها النبوة، مما يعني أن الإمامة ليست ضرورة سياسية واجتماعية فحسب، وإنما هي ضرورة توحيدية اعتقادية، لا تستقيم المعرفة الإسلامية بدونها.

وقد اتسع الجدل بين الشيعة والمدارس الإسلامية الأخرى حول الإمامة، بسبب اتساع دلالة المقصود من الإمامة بين الطرفين، فالمدارس الأخرى تنطلق من وعي خاص، يحدد الإمامة باشتراطات تفرضها الظروف السياسية والتاريخية، فهي بالتالي لا تتعدى كونها ضرورة أوجدها الظرف التاريخي للمسلمين، فيتولد مفهوم الإمامة لديها وشروطها من خلال التجربة الإسلامية في الزعامة والحكم، وليس من النص، كمؤسس للخيار المعرفي لدى الإنسان المسلم، ومن

هنا يتم حصر الإمامة -حسب رأي العامة- في مفهوم الحكم والنظام السياسي الإسلامي ينتخب الإمام فيه من خلال الشورى.

ومن المؤكد أن خيارات المدارس المخالفة للتشيع في أمر الإمامة، خيارات مُلهَمة من التجربة التاريخية للمسلمين، حتى على مستوى كون الإمامة ضرورة سياسية، فالسؤال الذي يبحث عن نظام الحكم في الإسلام، لا تتم الإجابة عليه من خلال النص الديني، وإنما من خلال قراءة لواقع التجربة الإسلامية، مما يعني غيابًا كاملًا لرؤية الرسالة في طبيعة الحكم الإسلامي، فحقيقة الخلاف في الإمامة يتسع باتساع المسافة الفاصلة بين الإسلام كدين ينطلق من الوحي، وبين الإسلام كتجربة ساهم في تكوينه الظرف التاريخي والبعد النفسي الاجتماعي، وحينئذ يصعب العثور على قواسم مشتركة، تقرب مفهوم الإمامة بين الطرفين، فالمفهوم الشيعي للإمامة يتأسس على حالة من القطيعة لواقع التجربة التاريخية تتدخل السماء في تحديد مصاديقها حيث تنصيب الأئمة عليهم السلام كخلفاء لله سبحانه، بعكس المدارس الأخرى التي استلهمت وعيها في فهم معنى الخليفة وكيفية تنصيبه من واقع تلك التجربة.

وهنا لا أحاول أن أخلق نوعًا من المقاربة بين الطرفين، بقدر ما أحاول أن أرسم الملامح العامة التي على أساسها يتشكل الوعي الشيعي لتحديد مفهوم الإمامة ومدى أهمية هذا الأصل العقائدي وارتباطاته المعرفية بأصول الدين، وما هي معطياته لكل منها.

التوحيد والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما

لقد مرَّ مفهوم التوحيد في العالم البشري بمراحل متعددة حيث ابتدأ بدعوة النبي آدم عليه السلام وتسطير معالمه في صُحُفِه عليه السلام، وانتهى بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تخللت هذه الفترة حالات كثيرة من التشظي في إدراك هذه المعنى، فقد شهدت الحضارة الفكرية الرومية والفارسية -كأعظم حضارتين آنذاك- الكثير من المعاناة في الوقوف على الفهم الصحيح لمعنى التوحيد، فبدا التخبط فيهما واضحًا حيث تعدد الآلهة أو اتخاذ المخلوق خالقًا من خلال عبادة أبنائهما الشمس والقمر والنجوم والكواكب والنار والتماثيل وأمثالها، أما التاريخ العربي، فلقد كان حافلًا أيضًا بمثل هذه المآزق المعرفية، حتى بعث الله سبحانه الأنبياء عليهم السلام؛ ليبينوا للناس الحق من معنى الخالق، إلا أن قصور العقل الذي كان يصاحب المجتمعات منع عن إجلاء مبتغى الأنبياء عليهم السلام في ذكر المعنى المناسب للإله جلَّ وعلا، لكن ذلك لم يثنهم صلوات الله عليهم أجمعين من القيام بواجباتهم اتجاه الأمم، حتى تكاملت البشرية بحيث أصبحت مستعدة، مهيأة لتقبل المزيد، فبعث الله تعالى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليؤسس لمنهج جديد في الدعوة إلى الله وبيان التوحيد الحقيقي للناس يتناسب مع معطيات العقل إلى يوم القيامة فتحلحلت مشكلة الاضطراب التي كانت تعاني منها الأمم نتيجة الشبهات التي كانت تنبثق من هنا وهناك على يد السوفسطائين مرة، والمشركين مرة، والكافرين مرة أخرى، معتمدًا صلى الله عليه وآله وسلم أسلوب الجمع بين الأدلة والبراهين الفطرية والعلمية والإعجازية، فأغلق أمام

الجميع باب الشك والتشكيك وخوّل المعصومين عليهم السلام -من بعد ما أورثهم ما عنده- مسألة عصمة الخلق من بعده وهدايتهم، إلا أن ذلك لم يعق إمام الكافرين إبليس عليه اللعنة عن مواصلة طريقه في إضلال العباد وإبعادهم عن المعرفة الحقيقية، فوسوس لضعاف نفوس ليمتطوا مراقي الأئمة الهداة عليهم السلام في الحكم الظاهري ظلمًا وجورًا لتعود بذلك تباشير الشرك والجاهلية بلباس جديد، حيث لم يصمد من الناس إلا القلة القليلة ممَنْ طاب مولدهم، وامتحن الله قلوبهم للإيمان...

إن مسألة الإمامة عند المذهب الشيعي تتسم بأهمية بالغة ناتجة عن مدى ارتباطها بجميع الشؤون التي يحتاجها الفرد في حياته الدينية والدنيوية؛ كونها الناظم الذي منه تنطلق جميع الترتيبات اللازمة التي تتسبب في حل جميع المشاكل العقائدية والمعرفية التي قد تواجه الإنسان في حياته، فبها كمال هذا النظام واكتمال هذه المعارف؛ لأنها تضع قدم الشخص على المسار الصحيح، ولأنها تمثل الخط المستقيم والطريق القويم الذي يسلك به سبل عدم التيه والضلال، فضلًا عن أن الإمامة هي الفاصل الوحيد الذي ينحصر به تطبيق المشروع الإلهي الحق.

إن الوقوف على التجسيد الحقيقي للمعنى العملي لتجلي صفات الله سبحانه مرهون بإيجاد الخليفة، أو ما يعبر عنه بالإنسان الكامل، حيث لا يمكن لغيره أن يكون مؤهلًا لتحمل هذه المسؤولية العظيمة وشغل مثل هذا المنصب الحساس، فلا يمكن أن نتصور جماله سبحانه، إلا إذا أظهره على يد أحد من خلقه، فرأفته ورحمته مكنونتان مخزونتان يقرب تصورهما حين تجليهما في بعض عباده كمحمد وآل محمد

صلوات الله عليهم أجمعين، وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية الصفات، ومن هنا قالوا عليهم السلام كما في الزيارة الجامعة الكبيرة الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام: «... بأبي أنتم وأمي ونفسي وأهلي ومالي مَنْ أراد الله بدأ بكم ومَنْ وحَّده قَبِل عنكم ومَنْ قصده توجه بكم..»[(١)]، وعن ابن أبي يعفور، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله واحد، أحد، متوحد بالوحدانية، متفرد بأمره، خلق خلقًا ففوض إليهم أمر دينه، فنحن هم يا ابن أبي يعفور نحن حجة الله في عباده، وشهداؤه على خلقه، وأمناؤه على وحيه، وخزانه على علمه، ووجهه الذي يؤتي منه وعينه في بريته، ولسانه الناطق، وقلبه الواعي، وبابه الذي يدل عليه، ونحن العاملون بأمره، والداعون إلى سبيله، بنا عرف الله، وبنا عبد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عبد الله»[(٢)]، وعن عبد الرحمن بن كثير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله وأهل دين الله وعلينا نزل كتاب الله وبنا عبد الله ولولانا ما عرف الله ونحن ورثة نبي الله وعترته»[(٣)]، وعن بريد العجلي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «بنا عبد الله، وبنا عرف الله، وبنا وحد الله تبارك وتعالى، ومحمد حجاب الله تبارك وتعالى»[(٤)]، وعن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنما يعرف الله عزَّ وجلَّ ويعبده مَنْ عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت ومَنْ لا يعرف الله عزَّ وجلَّ و (لا) يعرف

(١)الشيخ القمي عباس، مفاتيح الجنان.
(٢)الشيخ الصدوق، التوحيد، ص١٥٢.
(٣)الصفار محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص٨١.
(٤)الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٤٥.

الإمام منا أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله هكذا والله ضلالًا»[(١)]، وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الأوصياء هم أبواب الله عزَّ وجلَّ التي يؤتى منها ولولاهم ما عرف الله عزَّ وجلَّ وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه).[(٢)]، يقول المولى المازندراني في شرح هذه الرواية: «قوله: "الأوصياء هم أبواب الله تعالى" أي أبواب جنته أو أبواب علمه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، والبيوت إنما تؤتى من أبوابها"، ومراده: أن مَنْ طلب العلم والحكمة وأسرار الشريعة والتقرب إلى الله فليرجع إلى الأوصياء وليأت البيوت من أبوابها وليتق الله فان مَنْ أتاه من غير بابها سمي سارقا، قوله: "ولولاهم ما عرف الله"؛ لأن عظمته أرفع من أن يصل إليه كل طالب ورفعته أجل من أن ينظر إليه كل شاهد وغائب، وصراطه أدق من أن يتطرق إليه قدم الأوهام وشرعه أشرف من أن يقبل مخترعات الأفهام، فلولا هداية الأوصياء وإرشاد الأولياء لبقوا متحيرين في تيه الجهالة وراقدين في مرقد الضلالة كما ترى من أعرض عن التوسل بهدايتهم والتمسك بذيل عصمتهم فإن بعضهم يقول بالتجسيم وبعضهم يقول بالتصوير وبعضهم يقول بالتحديد وبعضهم يقول بالتخطيط وبعضهم يقول إنه محل للصفات وبعضهم يقول بأنه قابل للحركة والانتقال إلى غير ذلك من المذاهب الباطلة وبالله العصمة والتوفيق»[(٣)]، وقد ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة ما يؤيد ذلك حيث ورد فيها: «وفصل الخطاب عندكم

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٨١.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٣.
(٣) المولى المازندراني، محمد صالح، شرح كتاب الكافي، ج٥، ص١٧٥.

وآيات الله لديكم وعزائمه فيكم ونوره وبرهانه عندكم وأمره إليكم مَنْ والاكم فقد والى الله ومَنْ عاداكم فقد عاد الله ومَنْ أحبكم فقد أحب الله ومَنْ أبغضكم فقد أبغض الله ومَنْ اعتصم بكم فقد اعتصم بالله...»[١]، وعن سلمة ابن عطا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خرج الحسين بن علي عليهما السلام على أصحابه فقال: أيها الناس إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه، فقال له رجل: يابن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»[٢]، وعن سليمان بن مهران، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه، عن علي عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي، أنت أخي ووارثي ووصيي وخليفتي في أهلي وأمتي، في حياتي وبعد مماتي، محبك محبي، ومبغضك مبغضي. يا علي، أنا وأنت أبوا هذه الأمة، يا علي، أنا وأنت والأئمة من ولدك سادة في الدنيا، وملوك في الآخرة، مَنْ عرفنا فقد عرف الله، ومَنْ أنكرنا فقد أنكر الله عزَّ وجلَّ»[٣]، وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي ما عرف الله إلا بي ثم بك، من جحد ولايتك جحد الله ربوبيته، يا علي أنت علم الله بعدي الأكبر»[٤].

إن الترتب بين العقائد يشابه نوعًا ما نظام الخرز، يكمل بعضه

(١)القمي الشيخ عباس، مفاتيح الجنان، ص ٥٧١.
(٢)الشيخ الصدوق محمد، علل الشرائع، ج١، ص٩.
(٣)الشيخ الصدوق، الأمالي، ص٧٥٤.
(٤)العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٤٨.

بعضًا ويتبع بعضه بعضًا؛ إذ يتوقف فهم كل منها على الآخر، فمما لا ينكر لكل عاقل عدم إمكان تحقيق فهم واقعي حقيقي للإمامة عند الشيعة، إلا من خلال فهم العلاقة القائمة بين الله وبين خلقه، فإذا كان الله هو الخالق، والإنسان هو المخلوق، حقَّ لنا أن نبحث ونتساءل عن كيفية إمكان الارتباط بينهما «كيف يمكن أن يرتبط المخلوق بالخالق»؟ وإذا كان توحيد الله تعالى يمثل الأساس الذي يبتني عليه اعتقاد الإنسان ومعارفه، فكيف يتجلى هذا التوحيد في الحياة؟، ولكي نتمكن من رسم هذه الصورة بشكل أكثر وضوحًا لا بد من ترتيب البحث من خلال تقديم مقدمات مترابطة حتى نصل إلى النتيجة التي نبحث عنها، وهي:

أولًا: أن حقيقة التوحيد تتجلى في التكوين والتشريع، أي في العقيدة والنظام؛ فالله هو الذي تكفل بالخلق والهداية، يقول تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[(١)]، وهذه الآية تؤكد كلا المعنيين (التوحيد في التكوين والتشريع)، فالله هو الذي أعطى الأشياء وجودها ونظامها، وهو الذي يمنحها غايتها ومنتهاها، وتكشف هذه الحقيقة عن المالك الحقيقي والمهيمن على الوجود كله وهو الله سبحانه، الخالق والمدبر، له الأمر والحكم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[(٢)]، ولا يمكن للإنسان أن يشذّ عن هذه القاعدة الشاملة، فهو ليس إلا مخلوقًا ضعيفًا مربوبًا لله تعالى، لا يملك

(١) سورة طه، الآية ٥٠.
(٢) سورة النور، الآية ٤٢.

من وجوده ومن شؤونه حولًا ولا قوة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾(٢)، ولكن غرور الإنسان وجهله يحجبانه عن رؤية هذه الحقيقة الواضحة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ۝الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ۝فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٣)، فالإنسان في منطق القرآن، كائن مغرور بنفسه من غير أن يملك مبررًا لغروره، إذ لا يملك شيئًا من دون الله، فهو مخلوق طارئ على هذا الوجود، مضطر في وجوده وبقائه لله تعالى، غاية ما يمثله هو أنه عبد مملوك لسيده، ومن طبيعة المقابلة بين الله الخالق والمالك لخلقه، وبين الإنسان المخلوق والمملوك لسيده، تأتي حقيقة (الحاكمية) المطلقة لله سبحانه على جميع خلقه ومنهم البشر، بحيث لا يجوز للإنسان أن يتصرف في ملك الله، إلا بإذن خاص منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٤)، فليس هو إلا عبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا من دون مولاه، لا يملك شيئًا في هذا الوجود، قال تعالى: ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَ مَا شَاءَ اللهُ﴾(٥)، فكل ما هو مخلوق، مربوب لله تعالى، خاضع ومسلِّم له، يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ

(١) سورة الإنسان، الآية ١.
(٢) سورة التكوير، الآية ٢٩.
(٣) سورة الانفطار، الآية ٦-٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٩٤.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٨٨.

وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾[١]، فالسجود -هنا- كاشف عن الخضوع التكويني لله تعالى في كل مظاهر الوجود، والإنسان المؤمن مظهر إرادي لهذا الخضوع الطبيعي المشترك.

وهذا ما يؤكد أن الإرادة لا تعني سوى المسؤولية، بحيث لا يخرج الإنسان من نظام الخلقة القائم بالله تعالى، وما خصه به سبحانه دون سائر المخلوقات من حرية وإرادة لا تُخرجاه من ملكوت الله وحاكميته المطلقة، كما لا تحرر للإنسان من واقع فقره وحاجته لله سبحانه وتعالى.

فإذا لم تكن للإنسان سيادة على نفسه، فمن سفه الفكر، وسخافة التقدير، أن يعتقد بأن له سيادة على الآخرين، فالجميع بالنسبة إليه في عرض واحد من هذه الناحية وهي المخلوقية والعبودية المحضة لله تعالى، فهو وكل ما يملك ملك لله عزَّ وجلَّ الذي منحه الوجود وآتاه من لدنه شيئًا، قال تعالى: ﴿قُلِ اللهمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الحكمُ إِلا لله﴾[٣]، فهو المالك الوحيد، وله حق السيادة على ما يملك، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۞ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الحج، الآية ١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٧.
(٤) سورة يس، الآية ٧٤-٧٥.

والتوحيد ضمن هذا الفهم، هو المحكومية المحضة لله والسلطنة السرمدية على خلقه، والتسليم المطلق له سبحانه، بحيث لا يحق للإنسان أن يخرج عن سيادة الله طرفة عين، في فعله وسلوكه وكل شؤون حياته.

ثانيًا: إذا ثبت ما قدمنا، بأن حقيقة الإنسان هي العبودية والمحكومية، بوصفه كائنًا مخلوقًا مربوبًا، لا يملك سيادة حتى على نفسه، وأن الله هو المالك والحاكم، بوصفه خالقًا ومدبرًا لأمر الكون، نتساءل كيف يمكن أن تكون حاكمية الله سبحانه على الإنسان، وهو مخلوق ذو طابع اختياري خلقه الله سبحانه غير مجبور في فعله؟.

وجوابه: أن حاكميته تعالى تعني سلطانه، وقدرته وتسلطه على الخلق وفعلهم وإن كان ترك لهم الخيار في فعل ما يشاءون وترك ما لا يريدون، فهو قادر على كل شيء قدير، إلا إنه سبحانه فوض إليهم أفعالهم بغير معزل عنه، بعد أن بيّن لهم وأقدرهم...

وأعلم أن ليس جميع البشر لديهم القدرة على أن يرتفعوا إلى مقام مخاطبة الله والتحاكم لديه، وعليه فلا يكون هناك خيار لسيادة الله على البشر، وحكومته في الأرض، إلا عبر وسيط، يمثل حكم الله وإرادته، وبذلك تنكشف لنا فلسفة ضرورة وجود الرسول والرسالة، كحقيقة مرتبطة بحقيقة التوحيد، ومصداق عملي لولاية الله وسلطانه على الخلق.

وبما أن حاكميه الله حقٌّ لكونه مالكًا للخلق، وبما أن الخلق حقيقة

موجودة ومستمرة، فحاكمية الله على الخلق باقية ببقاء الخلق، لا يمكن أن نتصور فقدان حاكميته سبحانه على خلقه لبرهة من الزمن، وهذا ما يفسر لنا معنى القول باستمرار الولاية في العقيدة الشيعية.

ثالثًا: بات واضحًا أن الإمامة والولاية عقيدة تستمد جذورها من التوحيد بحيث لا يستقيم فهمنا للإمامة بمعزل عن التوحيد، كما لا يتحقق للتوحيد معنىً من غير إمام يمثل إرادة الله بين خلقه، وبهذا نكتشف خطأ الخيار الآخر، الذي اعتبر أن شرعية الإمامة مستمدة من التجربة التاريخية للحكم عند المسلمين، فالتوحيد ومعرفة الله ليست مسألة نظرية ذهنية بحيث يكتفي الإنسان بمجرد الاعتقاد بكون الله واحدًا أحدًا فردًا صمدًا لم يلد ولم يولد وليس له شريك ينازعه في ملكه، فلا يكون الإنسان بهذا فحسب موحدًا، فلو اعتقد الإنسان بهذا الأمر اعتقادًا جازمًا واكتفى به من دون أن يعطي ولاءه لولي الله سبحانه ومن دون أن يقدم له فروض الطاعة والانقياد سوف لم ولن يكون موحدًا، وإلا جاز أن يكون إبليس سيد الموحدين؛ لأن إبليس كان وما زال يعتقد اعتقادًا جازمًا لا يشك فيه بأن الله واحد أحد فرد صمد، لا شريك له في ملكه، رغم أن علمه بهذه الحقيقة قد يكون أكثر يقينًا من علم الإنسان؛ لأن علمه بالله ارتقى إلى أن يخاطبه الله ويخاطب الله، وهذا ما لم يكن متأتيًا للإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1].

ومن هنا، فالتوحيد الذي يعتقد به الإنسان لا بدَّ أن يخرجه

(١) سورة الأعراف، الآية ١٢.

من المنظور العقلي والنظري إلى التوحيد العملي، الذي يتجلى في واقع الحياة، والطريق الذي يحقق ذلك يكمن في أن يكون هناك مَنْ يمثل سلطة الله وحاكميته، يحتك به الناس ويخالطونه، ليكون شاهدًا على تسليمهم وطاعتهم لله وحده، بل يكون طريقًا لمعرفته سبحانه، وهذا ما أكده الإمام الحسن العسكري عليه السلام حيث ورد عن أبي هاشم أنه قال: كنت عند أبي محمد العسكري عليه السلام... فجعلت أتعجب في نفسي من عظيم ما أعطى الله وليه وجزيل ما حمله، فأقبل أبو محمد عليه السلام عليَّ فقال: «الأمر أعجب مما عجبت منه يا أبا هاشم وأعظم، فما ظنك بقوم مَنْ عرفهم عرف الله ومَنْ أنكرهم أنكر الله فلا مؤمن إلا وهو بهم مصدق وبمعرفتهم موقن»[1]، وهذا بالضبط ما اختبر الله به إبليس، إذ اختبر الله توحيده بالسجود لآدم عليه السلام، فقبل هذا الاختبار لم يطرد إبليس من رحمة الله، بل أكدت بعض الروايات بأنه كان أكثر عبادة من الملائكة، وبذلك يمكننا أن نعتبر السجود لآدم عنوانًا للتجلي الحقيقي للتوحيد، وإخراجًا للتوحيد من إطاره النظري لواقعه العملي، ومن هنا ألزمنا الله سبحانه بموالاة أوليائه صلوات الله عليهم أجمعين.

ماذا كان يمثل سجود الملائكة لآدم عليه السلام؟

يمكن القول في مقام الجواب: إنه كان يمثل رمز الطاعة والتسليم وهو عنوان التوحيد الحقيقي، والسبب الذي أخرج إبليس من رحمة الله هو التكبر وعدم التسليم، فإنه لا يستقيم التكبر وعدم التسليم مع

(١) السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج٢، ص٦١٥.

التوحيد، وقد اختبر الله الخلق بالامتثال إلى مَنْ هم مثلهم من البشر، إخراجًا للكبر من نفوسهم، يقول الإمام علي عليه السلام: «الحمد لله الّذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرمًا على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على مَنْ نازعه فيهما من عباده، ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[(١)]، اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصّبين، وسلَفُ المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التّعزّز، وخلع قناع التذلّل، ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورًا، وأعدّ له في الآخرة سعيرًا، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه، وطيبٍ يأخذ الأنفاس عَرْفُه لفعل، ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة، ولكنّ الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزًا بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم، وإبعادًا للخيلاء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سني الدنيا أم سني الآخرة عن كِبْرِ ساعة واحدة، فمن

---

(١) سورة ص، الآيات ٧١-٧٤.

ذا بعد إبليس يَسلَمُ على الله بمثل معصيته؟ كلا، ما كان الله سبحانه لِيُدخل الجنّة بشرا بأمرٍ أخرج به منها ملَكا، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة، في إباحة حمىً حرّمه على العالمين»[١]، ويقول عليه السلام: «ولَو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أَن يفتح لَهم كنوز الذِهبَان، ومعادن العِقْيَان[٢]، ومغارِس الجنان، وأَن يحشر معهم طَير اَلسماء، ووحوش اَلأَرض لَفعل، ولو فعل لَسقَطَ البلاَء، وبطَل الجزاء، واضمحلَّت الأنباء، ولَما وجب للقَابِلِين أُجور المبتلَين، وَلاَ استحق اَلمؤْمنون ثَواب اَلمحسنين، ولالَزِمت الأَسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسلَه أُولي قوة في عزائمِهم، وضعفَة فيما ترى الأَعين من حالاتِهم، مع قناعة تملأُ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأُ اَلأَبصار واَلأَسماعَ أَذًى»[٣].

فتوحيد الله لا يتحقق إلا بالطاعة والامتثال، وتمام التسليم لمن أمر الله بطاعته، إخراجًا للكِبر من القلوب، وتحقيقًا للوحدانية في النفوس كما مرَّ بيانه، ومن هنا كانت طاعة أنبيائه شرطًا في توحيده، فلا يكتمل الإيمان، ولا يكون الإنسان موحدًا لله، ما لم يكن مطيعًا وممتثلًا لأنبيائه ورسله.

ومن هنا أمكن لنا أن نتساءل: ما هي العلاقة بين التوحيد وبين الإيمان بالرسل؟

---

(١)الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ج٢، ١٣٩.
(٢)العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه، خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.
(٣)المصدر نفسه، ص١٤٥.

والجواب: لا يمكن أن نكتفي في فهم العلاقة بالرابط التشريعي، الذي يتحقق برسالة الأنبياء عليهم السلام، بوصفهم مبلغين عن الله يُعلِّمون الناس التوحيد، وبالتالي يصبح الإيمان بهم شرطًا للتوحيد؛ لأن هذا الفهم يبتنى على كون معرفة الأنبياء سابقة لمعرفة الله، ولولا الأنبياء لما عرف الناس ربهم، وهذا مخالف لكون معرفة الله حقيقة فطرية جُبِل الإنسان عليها، فالله قد فطر عباده على معرفته وتوحيده، وبهذه المعرفة عرفوا أن له سبحانه وتعالى رسلًا يبلغون عنه ويبينون أحكامه، فتكون مهمة الرسل حينئذ، أن يذكّروهم مَنسِيَّ نعمته ويستأدوهم ميثاق فطرته، وأن يثيروا لهم دفائن العقول، فنحن لا نعرف الله بالرسول، وإنما نعرف الرسول بالله.

وعلى ذلك نكتشف حقيقة العلاقة الرابطة بين الإيمان بالرسل وبين توحيد الله، وهي: أن الله يتجلى لخلقه بأوامره ونواهيه عبر رسله؛ ولذا تصبح طاعتهم هي عين طاعة الله، فمَنْ أراد أن يطيع الله ويمتثل أوامره بوصفه خالقًا رازقًا...، فلا يمكنه ذلك بأن يتصل به مباشرة؛ لأن الله أعلى وأجل وأكرم، من أن تحيطه العقول، أو تدنو منه الخواطر، فتوحيده يتم عبر أنبيائه ورسله؛ لأنهم كما مرَّ التطبيق العملي للتوحيد، وأن عدم وجودهم يؤدي إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف.

وبما أن التوحيد حقيقة باقية ببقاء الإنسان، فلا بدَّ أن تكون الطاعة والتسليم متحققة ودائمة لِمَنْ أراد الله لهم الطاعة من عباده، بوصفهم التمثيل الحقيقي للتوحيد كما أسلفنا ومن هنا فإنه لا ينفع الإنسان أن يكون مصليًا، صائمًا، حاجًا، مزكيًا، وهو مسبحٌ بحمد

السلاطين والطواغيت يدين لهم بالولاء؛ لأنه حينئذ لا يكون موحدًا متمحضًا في إرادة الله وأمره، بل خارجًا من سلطانه بولاية غيره، ونستفيد هذا الأمر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾[1]، فالآية تصف ثلة من الناس بحسب زعمهم بأنهم مؤمنون بالرسول وبالقرآن، وبما جاء في الكتب السماوية، والإيمان بالقرآن هو إيمان بما جاء فيه من أحكام وتشريعات، إلا أنهم -في الحقيقة- كافرون، وذلك وفقًا لمعيار الولاية، فمَنْ يوالي أولياء الله فهو موحد، ومَنْ ينكر ولايتهم ويوالي أولياء الشيطان فهو كافر، وإن كان يصلي ويصوم ويؤدي باقي العبادات؛ ولذا نجد أن القرآن يفسر ذلك بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، والطاغوت هنا هو الحاكم الذي يحكم بدون تفويض من الله، وقرينة ذلك: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ ....﴾، ومن هنا جعل الله شرط التوحيد الكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[2]، فلا يبلغ الإنسان التوحيد، حتى يكفر بكل الزعامات التي تتصدى للحكم بدون إذن من الله، فإذا نهانا الله جلَّ وعلا عن التحاكم إلى الطاغوت، وجعله مساويًا للكفر والشرك بالله، فلا بدَّ أن ينصب لنا أولياء من عنده نتحاكم إليهم، إذ لا يمكن التحاكم عنده مباشرة، وهذا ما يفسر لنا ضرورة وجود خلفاء وأولياء لله تبارك اسمه، الذين يمثلون أمره وسلطانه، وبما أن الطاغوت هو

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

شخص له مصداق في الخارج، أمرنا الله أن نكفر به، ينبغي أن يكون في المقابل شخص له مصداق في الخارج أيضًا نتحاكم عنده كممثل لله سبحانه وتعالى، فيكون معنى الآية: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ﴾، أي مَنْ يكفر بهذا (الذي لا يمثل الله)، ويؤمن بهذا (الذي يمثل الله)، ولا يمكن أن يكون المقصود من قوله (ويؤمن بالله) أن يؤمن بقضية غيبية لا ترتبط بوجود واقعيٍّ خارجي ملموس، ومن دون ذلك لا تكون هناك مناسبة حقيقية بين الكفر بالطاغوت، المتمثل في فلان من الناس، وبين الإيمان بالله كقضية غيبية ليس لها ممثل في أرض الواقع.

ولكي نجد مثالًا لذلك نقول: مَنْ يكفر بفرعون ويؤمن بموسى فقد استمسك بالعروة الوثقى، فالإيمان بالله يتجلى في الإيمان بموسى عليه السلام، وكذلك مَنْ يكفر بيزيد بن معاوية، ويؤمن بالحسين بن علي عليه السلام وهكذا، فالقضية مستمرة باستمرار البشر على الأرض، إذ تشكل ابتلاءً حقيقيًا للإنسان المؤمن وغيره.

إن لله سبحانه أولياء فرض علينا طاعتهم وأوجب علينا امتثال أوامرهم، ولا يتوقف هذا الأمر عند الأنبياء والرسل، وإنما هو مستمر في ولاة الأمر، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]، فطاعة ولاة الأمر هنا ليس فقط لانتظام أمر الجماعة وسياسة أمورهم، وإنما هي عنوان للإنسان المؤمن الموحِّد حقًا، وهذا الأمر يفسر لنا الروايات المتضافرة والمتفق عليها بين كل المدارس، التي تؤكد على أن الإمام المفترض الطاعة من قبل الله سبحانه، هو شرط

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

في الإيمان والتوحيد، كما ورد في حديث الإمام الرضا عليه السلام عن ابن راهويه، قال: لمّا وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور وأراد أن يرحل منها إلى المأمون اجتمع عليه أصحاب الحديث فقالوا: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ترحل عنا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك! وقد كان قعد في العماريّة فأطلع رأسه وقال: «سمعت أبي موسى بنَ جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسينَ بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله عزّ وجلّ يقول: لا إله إلا الله حصني، فمَنْ دخل حصني أمنَ من عذابي، فلمّا مرت الراحلة نادانا: بشروطها، وأنا من شروطها»[١]، وأن عدم معرفتهم أو إنكارهم هو السبب الموجب للكفر، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[٢]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ مات ولم تكن في عنقه بيعة لإمام، أو ليس في عنقه عهد الإمام مات ميتة جاهلية»[٣]، وميتة الجاهلية تعني الكفر والشرك، وإن كان مصليًا عابدًا، ولا يمكن أن يكون المقصود من إمام الزمان كل من حكم، فقد يكون من حكم هو الطاغوت الذي أمر الله سبحانه العباد أن يكفروا به، فكيف يأمر بمبايعته وفي الوقت ذاته يأمر بالكفر به!!!، مما يعني أن ولاة الأمر هم مَنْ يتكفل الله بتعينهم.

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص١٩٥.
(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ج٨، ص١٥٦.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٣، ص٩٤.

ومن هنا يتبين معنى الروايات التي نصت على أن نجاة الإنسان مقرونة بإمامه، فعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لو أن عبدًا عبد الله ألف عام ما بين الركن والمقام، ثم ذُبح كما يُذبح الكبش مظلومًا، لبعثه الله مع النفر الذين يقتدي بهم، وبهداهم يهتدي، ويسير بسيرتهم، إن جنة فجنة وإن نارًا فنار»[(١)]، وقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «إن أول ما يُسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله جل جلاله، عن الصلوات المفروضات وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج المفروض وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقرَّ بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه صلاته، وصومه، وزكاته، وحجه، وإن لم يُقِرَّ بولايتنا بين يدي الله جل جلاله، لم يقبل الله عزّ وجلّ منه شيئًا من أعماله»[(٢)]، وعن الإمام علي عليه السلام كان يقول: «لا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين، رجل يزداد كل يوم إحسانًا، ورجل يتدارك سيئته بالتوبة، وأنى له بالتوبة؟ والله لو سجد حتى ينقطع عنقه، ما قبل الله منه إلا بولايتنا أهل البيت»[(٣)]، وعن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «معاشر الناس إليَّ إليَّ، إذا ذُكر آلُ إبراهيم عليه السلام تهلّلت وجوهكم وإذا ذُكر آلُ محمد كأنما يُفقأ في وجوهكم حبُّ الرمان؟ فو الذي بعثني بالحق نبيًا لو جاء أحدكم يوم القيامة بأعمال كأمثال الجبل، ولم يجئ بولاية علي

---

(١) البرقي، المحاسن، ج١، ص٦١.
(٢) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص٣٢٨.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص١٢٨.

بن أبي طالب عليه السلام، لأكبّه الله عزَّ وجلَّ في النار»[١]... ، وغير ذلك من الروايات التي تشهد بنفسها على صحتها، لأنها تثبت قضايا ثابتة من العقل والدين بالضرورة.

فمَنْ يمثل الله جلَّ جلاله لا بدَّ أن يكون مُعيَّنًا من قِبَلِه، ولا يمكن الوصول إليه عبر الشورى والانتخاب، وهذا ما يؤكد إصرار الشيعة على أن الإمامة فريضة إلهية، بوصف الإمام ممثلًا عن الله سبحانه.

وعليه ينحصر الطريق الذي يجعل الإنسان دائمًا متصلًا بالله سبحانه وتعالى، ومرتبطًا بالغيب في شخص الإمام، بحيث لا يمكن أن يعتقد الموحِّد بانفصال الأرض عن السماء، فالله سبحانه وتعالى حاضر دومًا بأوامره ونواهيه في التسليم للإمام، كما كان حاضرًا بالتسليم للأنبياء والرسل، وبذلك يكون التشيع هو الرهان الغالب الذي يصحح سير الموحدين نحو توحيد متكامل.

النبوة والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما

ما زال البحث يدور حول توضيح مكانة الإمامة في النظام العقائدي الشيعي وعلاقتها ببعض المعتقدات كالنبوة بعد أن تمَّ الكلام حول علاقتها وارتباطها بالتوحيد؛ لنلاحظ أهمية هذا الأصل وإلى أي مدى يصل؟ وكيف يحكم على ناكريه بالضلال؟، فقد أثبتت الضرورة النقلية والعقلية اقتضاء وجود الخليفة قبل الخليقة كما يشهد بذلك

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٧، ص١٧١.

تنصيب الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام خليفة قبل خلق بنيه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(١)، ومن ذلك نثبت ضرورة وجود القيادة قبل الرعية، فوجود القائد أولًا معناه هداية الناس نحو الطريق القويم من أول وهلة، ويعد هذا الأمر بحد ذاته ردًا على مَنْ ينكر حاجة الأمة إلى قيادة إلهية منصبة بأمر السماء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فليس من المعقول أن يراعيها الله سبحانه قبل الخليقة ويهملها معهم، ما لكم كيف تحكمون!!!، ومن جهة أخرى يمكن القول بأن الخلافة للنبي أمر ضروري؛ لأن النبي قد لا يسعفه الظرف بأن يبين جميع تشريعاته بكل تفاصيلها وما يحيط بها أيام نبوته كما تم تبيينه سابقًا؛ لكثرة الاضطرابات التي تحيط به وكثرة مسؤولياته وتعدد مهامه اتجاه الأمة وقصر المدة الزمنية التي اكتنفت سيادته وحاكميته كنبي ومشرع، فيضطره الأمر إلى أن يؤسس لقواعد عامة يبين للأمة منها ما يلائم وقت الحاجة، ويرتجي من أوصيائه صلوات الله عليهم التفريع وتكملة المنهج البياني فيما يليه بما يتناسب والمتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما شاكل ذلك من ظروف موضوعية، وعلى أساس الأمور التي تكون دخيلة في تحديد الحكم، وبحسب المقتضيات التي يكون لها دخل في تشريعه وإبرازه وإظهاره فيما لو مارس دوره عليه السلام كمشرع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

﴿مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[(١)]، ومن هنا رهن الله سبحانه إتمام رسالة النبي ﷺ بتتويج الإمام كخليفة، تلك الرسالة التي لاقى لأجل إثباتها من المعاناة وتحمل لإبلاغها من الأذى ما لم يره أي نبي في أمته، كما صرح بذلك ﷺ بقوله: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت»[(٢)]، فملامح المشروع الإلهي في إصلاح الحياة لا تكتمل إلا بالإمامة؛ لكي يتم المنهج ويتحد الأفق وتكتمل الحجة على العباد، إذن وحدة التلازم والمسار لا ينفكان ولا يتمان إلا بإعلان جعل أئمة إلهيين يمثلون الامتداد الغيبي للنبوة وخاصة الخاتمة منها؛ لانعدام النبوة بعد النبي ﷺ كما نصَّ ﷺ على ذلك بقوله: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[(٣)]، فالعلاقة بين النبوة والإمامة علاقة تكاملية تقوم مرتكزاتها على وحدة المصدر وكذلك على المواكبة والاقتران بينهما، ولعله أحد الحِكم التي لأجلها قام النبي ﷺ بإعداد الإمام علي عليه السلام للقيام بهذه المهمة لتستمر الرسالة بنفس النشاط وإن انقطع وحي النبوة؛ ولهذا لم يصف الله سبحانه الدين بالكمال إلا من بعد بيعة الغدير التي أعلن فيها النبي بأمر السماء عليًا وليًا، وتنصيبه خليفة له من بعده، قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[(٤)]، وهذا ما تميزت به الرسالة المحمدية

---

(١) سورة الرعد، الآية٧.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٥٦.
(٣) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص٤٩١.
(٤) سورة المائدة، الآية٣.

والدين الإسلامي عن غيره من الديانات، فقد جاءت الأخيرة لتعالج جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية في مرحلة معينة، أو في مكان معين، أو على أقوام معينين، وليس الأمر كذلك بالنسبة للإسلام؛ لأنه بحكم ختم النبوة وكونه آخر الديانات لا بدَّ أن يختلف عن غيره في هذه الوظيفة؛ ولهذا أصبحت رسالته كونية عالمية تستوعب كل الرسالات السابقة وتتجاوزها لتستوعب التأريخ كله، فقد جهزها الله سبحانه بمقومات الاستمرارية والصمود والاستيعاب، ومن هذه المقومات: القواعد العامة التي تضمنها الفقه الإسلامي، وفتح باب الاجتهاد في زمن الغيبة، والإمامة التي تعتبر المقوم الأهم؛ حيث رسخت بقية المقومات، وأسست لحياة شملت كل طرق التعامل مع الأحداث المتغيرة التي أحاطت زمان إمامة كل واحد من الأئمة عليهم السلام، فكانت حياتهم صلوات الله عليهم سلسلة حلقات يكمل بعضها الآخر، استوعبت جميع مفارقات الحياة بجميع جزئياتها وكلياتها؛ لتمسي سننًا ومنهجًا للأمة على مستوى الواقع العلمي والتطبيقي.

إن موضوع الإمامة يبقى على كل حال قابلًا للتصور والإثارة في أكثر من بُعد، أهمها:

الأول: الإمامة بوصفها نظامًا لإدارة المجتمع، وهي قضية مشتركة بين جميع المجتمعات بما فيها المجتمعات الدينية وغير الدينية، الإسلامية وغير الإسلامية، الشيعية وغير الشيعية، فلو أخذت الإمامة بهذا المعنى، وأثبتت باعتبارها من الواجبات الكفائية في المجتمع، لكانت قابلة للبحث بمثابة حكم فقهي في عداد المباحث الفقهية الاجتماعية،

ومثل هذا لا يختص بالشيعة ولا بالمسلمين أيضًا؛ ذلك إن عقلاء كل قوم يسلمون بضرورة وجود مركزية في إدارة المجتمع، مع افتراض أن يطلق عليها لفظ الإمامة وأن كل مجتمع يعين بنحو ما إمامه (أي مديره) ويلتزم طاعته في نطاق الصلاحيات التي خوله بها.

البعد الآخر: هو أن نعتبر الإمامة بمعنى نظام لإدارة المجتمع الإسلامي، له قوانينه الخاصة به النابعة من الكتاب والسنة، تحدد فيه سمات خاصة للمدير الذي يتولى إدارة مثل هذا المجتمع، بما يتناسب وهذه المسؤولية، والتي منها بالطبع وعي الإسلام والتزام تطبيقه، وبهذا القدر يتفق العامة مع الإمامية، فالكثير من علمائهم ومفكريهم يقولون بضرورة وجود الإمام لإدارة المجتمع الإسلامي وتنفيذ الأحكام الإسلامية، إلا أنهم يفترقون عن الشيعة في تحديد الشخص الذي يجب أن يكون على رأس نظام إدارة المجتمع الإسلامي؟ وكيفية انتخابه وتعيينه؟

حيث يعتقد الشيعة بأن تعيينه مفروض من قبل الله سبحانه وهو يمتلك من الصفات ما لا تتوفر في الآخرين، فهو الأورع، والأفضل، والأعلم، والأشجع، والأزهد، وذو الكفاءة التي يفتقر إليها غيره في كل شيء، وأحيانًا تنسج البحوث لتحديد هذه المصاديق وإثبات هذه الفضائل، وهذا ما تناولته كتب العقائد وتم التعرض إليه ضمن المباحث الكلامية، أما العامة فإنهم يرون أن الأمة هي التي تعينّه من خلال الانتخاب والشورى.

وعلى كل حال يبقى رأي المذهب الشيعي في الإمامة أنها منصب إلهي صرح به سبحانه وتعالى في أكثر من آية وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغه للناس كما مرَّ ذكره مفصلًا، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ولم يترك لهم خيارًا فيما يطرحه، بل حذرهم من الرد عليه، وأمرهم بالتسليم له وجعل ذلك من علامات الإيمان، وقد فسر المعصومون عليهم السلام أولي الأمر الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] بأنهم: (الآل) صلوات الله عليهم أجمعين، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في هذه الآية: «نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين – عليهم الصلاة والسلام – فقيل: إن الناس يقولون فما له لم يسم عليًا وأهل بيته في كتابه، فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثًا ولا أربعًا حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسم لهم من كل أربعين درهمًا درهم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي فسر ذلك لهم ونزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في علي مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه، وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فإني سألت الله أن لا يفرق بينهم حتى يوردهما علي الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبين مَنْ أهل بيته، لادعاها آل فلان وآل

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.
(٢) سورة النساء، الآية ٥٩.

فلان...»[١]، وبعد أن أثبت القرآن الكريم الولاية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢]، أعطاها لعلي علي عليه السلام حين قال في بيعة الغدير مخاطبًا المسلمين كما ورد عن أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأخذ بيد علي وقال: مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وآل مَنْ والاه وعاد مَنْ عاداه»[٣].

مما تقدم نستلخص: أن سلسلة الأنبياء اختتمت بنبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لكن بقية المقامات التي كان يتصف بها صلى الله عليه وآله وسلم، لم تختم، فمقام تبيين القرآن والأحكام باقية وهي لا تدرك إلا من ثلة، قال سبحانه: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٤] – أي لا يدركه – وهم أهل البيت عليهم السلام، حيث بيَّن ذلك تبارك اسمه في موضع آخر من الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٥]، ومقام الحاكمية باقٍ، ومقام الولاية باقٍ، وهكذا الحال بالنسبة لبقية المقامات التي كان يتمتع بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما فهمناه من خلال ما تقدم، وعليه فالمحور الأصلي لموضوع الإمامة، بوصفها أحد الأصول الاعتقادية عند الشيعة، يكمن في هذا البُعد، لا بكونه دورة حضارية، وقد عبر عن ذلك السيد منير الخباز في بحثه

(١)الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٨٧.
(٢)سورة الأحزاب، الآية ٦.
(٣)الشيخ الصدوق، الأمالي، ٢١١.
(٤)سورة الواقعة، الآية ٧٩.
(٥)سورة الأحزاب، الآية٣٣.

حول تبيين العلاقة بين النبوة والإمامة: «أن النبوة مُتقومة بالوحي، قال تعالى: ﴿قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[١]، والهدف من إنزال الوحي وصوله للبشرية ولا يمكن أن يصل إلى المجتمع البشري وصولًا مضمونًا بلا تحريف ولا زيادة ولا نقص، إلا إذا كانت هناك خزانة معصومة عن الخطأ هي التي تقوم بتلقي الوحي من وعاءه تنزيلًا وتفسيرًا وتأويلًا، فتكون تلك الخزانة هي قاعدة النبوة، فالنبوة هي مَلقى الوحي ووعاؤه، والخزانة هي مستودعه تنزيلًا وتفسيرًا وتأويلًا، وهي قلب الإمام وهذا ما أشار له القرآن الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، التي فسرها الإمام الباقر عليه السلام بقوله: (نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون)[٤]»[٥].

إن الشيعة الإمامية بحسب اعتقادهم يؤمنون بأن هذه المقامات المحمدية – غير مقام النبوة – منحها الله سبحانه لاثني عشر شخصًا

---

(١) سورة فصلت، الآية٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية٧.
(٣) سورة النحل،الآية٤٣.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي،ج١، ص٢١١.
(٥) ينظر: موقع السيد منير الخباز نشرها بتاريخ ٨/ ٢/ ٢٠١٩م.

من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد كان للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم علوم أخرى يتلقاها من غير الوحي، فربما كان بعضها يتلقاه من ملائكة آخرين غير جبرائيل عليه السلام، وربما يطلق عليها إلهام أو نكت في القلب أو غير ذلك من الألفاظ التي وردت في الأحاديث، حالها حال العلوم التي كانت تتلاقاها السيدة مريم سلام الله عليها، فلقد تحدث إليها مَلك كما ذكره القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[1]، كذلك أم النبي موسى عليه السلام التي ألهمها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وعليه يمكن أن نعرف معنى وراثة الأئمة عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم التي حكتها بعض الفقرات الواردة في زياراتهم صلوات الله عليهم، كما في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله»[3]، وفي زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «السلام عليك يا وارث محمد رسول الله»[4]، وفي غير ذلك، بل قد صرحت أحدى الفقرات الواردة في زيارة الإمام علي عليه السلام - زيارته عليه السلام يوم الأحد - بأن النبوة والإمامة تكمل إحداهما الأخرى ومن دون إحداهما لا تكتمل شجرة النبوة، فقد بينت أن النبوة ثمرة هذه الشجرة، وتجملها وزينتها بالإمامة: «السلام على الشجرة النبوية والدوحة الهاشمية المضيئة المثمرة

---

(١)سورة مريم، الآية١٩.
(٢)سورة القصص، الآية٧.
(٣)الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، ص ٤٦٣.
(٤)المصدر السابق.

بالنبوة، الموثقة بالإمامة...»[(١)]، وكما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «والذي بعثني بالحق نبيًا ما آمن بي مَنْ أنكرك، ولا أقر بي مَنْ جحدك، وما آمن بالله مَنْ كفر بك، أن فضلك لمن فضلي وإن فضلي لفضل الله عزّ وجلّ وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ففضل الله نبوة نبيكم ورحمته ولاية علي بن أبي طالب»[(٢)]، ومن هنا نعلم مدى الارتباط والعلاقة بين النبوة والإمامة، فالإمامة امتداد للنبوة والنبوة أصلٌ امتداده الإمامة، لا تصح خاتمية النبوة من دونها.

المعاد والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما

لقد اتفقت كلمة أهل التوحيد على مرّ الزمن في أن الهدف الذي يرومون الوصول إليه، وغاية مناهم هو التخلق بأخلاق الله سبحانه، ومن هنا نجدهم يسعون جاهدين بلوغ ما يمكنهم من مراتب كمالية، وقد رسخت مدارسهم الأخلاقية قديمة وحديثة هذه الحقيقة رغم اختلاف المشارب والمناهج نتيجة المخزونات الفكرية التي يتمتع بها أصحابها وما ذلك كله بحسب الغالب إلا من أجل نيل رضا الله تعالى والنجاة من النار والفوز بالجنة وبلوغ رضوان الله الأكبر، إيمانًا منهم بيوم الوعد والوعيد حيث يوم القيامة، واستجابة منهم لنداء الفطرة الذي يدعوهم لطاعة خالقهم شكرًا له على ما أنعم.

(١) المصدر نفسه، ص٩٨.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٦.

إن سير الإنسان في طريق الرضا الإلهي يستدعي وجود موجه ناصح أمين عارف يعلم عقبات هذا الطريق، مطلع على أقصر ما يمكن أن يصل من خلاله السالك إلى الله تعالى، ويستطيع أن يحصن الناس من السقوط في مهاوي ومنزلقات الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وعلى ذلك يقتضي أن يكون هذا الموجه هاديًا معصومًا، ومن هنا تثبت ضرورة الإمامة والموالاة لأولياء الحق صلوات الله عليهم أجمعين كونهم الأدلاء على الله والهداة إلى الله حسبما ورد في الزيارة الجامعة، فضرورة الارتباط بهم عليهم السلام تظهر بالإضافة إلى ما مرَّ كون المعتقد بهم الموالي لهم تملي عليه عقيدته أن يكون في عمله على حذر؛ لأنهم عليهم السلام مطلعون على كل ما يفعله، يراقبون تصرفاته حقيرها وكبيرها، يشاهدون حقائق أعمال العباد، تعرض عليهم في كل حين، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، إن مسألة عرض الأعمال بنظر أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمة عليهم السلام، عقيدة معروفة ومشهورة، تؤكد الآية المباركة أن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ الناس: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ تشير إلى أن لا يتصور أحد أنه إذا عمل عملًا، سواء في خلوته أو بين الناس أنه سيخفى على علم الله سبحانه، أو على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام، وأن الالتفات إلى هذه الحقيقة والإيمان بها له أعمق الأثر في تطهير الأعمال والنيات، فإن الإنسان - عادة - إذا أحس بأن أحدًا ما يراقبه ويتابع حركاته وسكناته، فإنه يحاول أن يتصرف تصرفًا لا نقص فيه حتى لا يؤاخذه عليه مَنْ

---

(١) سورة التوبة، الآية ٩٤.

يراقبه، فكيف إذا أحس وآمن بأن الله ورسوله والأئمة عليهم السلام يطلعون على أعماله؟، إن هذا الاطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذي ينتظره في يوم المعاد؛ لذا فإن الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١)، ولأهمية وضرورة الحال وردت روايات كثيرة بهذا الخصوص منها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «تعرض الأعمال على رسول الله أعمال العباد كل صباح، أبرارها وفجارها، فاحذروها، وهو قول الله عز وجل: وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وسكت»(٢)، وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الأعمال تعرض على نبيكم كل عشية الخميس، فليستح أحدكم أن يعرض على نبيه العمل القبيح»(٣)، وفي رواية أخرى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أن شخصًا قال له: ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: «أو لست أفعل؟ والله أن أعمالكم لتعرض عليَّ في كل يوم وليلة، يقول الراوي، فاستعظمت ذلك، فقال لي، أما تقرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، هو والله علي بن أبي طالب»(٤)، بل أن الكثير من الروايات تشير إلى أن أعمال العباد في كل زمان إذا أريد لها أن تصعد إلى السماء فإن الصاعد بها هو إمام ذلك الزمان، هذا الأثر للولاية يتحقق باعتبار إيمان الإنسان بإطلاعهم صلوات الله عليهم على

(١) انظر: الشيخ الشيرازي ناصر مكارم، تفسير الأمثل، ج٦، ص٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٣.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص١١٣.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٧١.

أعمـال العبـاد.

أما الإيمان بكونهم الشفعاء يوم القيامة، وبأن العبد لا يشم ريح الجنة إلا برحمة الله سبحانه وشفاعتهم عليهم السلام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[(١)]، وأنهم الرجال الذين يقفون على الأعراف يوم القيامة يشرفون على الأولين والآخرين من الخلق أجمعين، يشاهدون المقام الخاص لكل نفس منهم على اختلاف مقاماتهم ودرجاتهم ودركاتهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[(٢)]، ورد عن الهيثم بن واقد، عن مقرن قال، سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين: وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم؟ فقال: نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذي لا يعرف الله عزَّ وجلَّ إلا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه»[(٣)].

إن الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف العباد نفسه ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمَنْ عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون، فلا سواء مَنْ اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب مَنْ ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربها، لا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية٢٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية٤٦.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٨٤.

نفاد لها ولا انقطاع)[١]، وهذا الاعتقاد سيرسخ في نفس الموالي ضرورة الظهور بشكل لائق أمام أوليائه عليهم السلام وسيجعل منه وسيلة للاستعداد ليوم القيامة بالشكل الذي يبيض وجهه أمامهم صلوات الله عليهم، وبما يجعلهم عليهم السلام فخورين به، يتباهون به بين الأمم.

الولاية مخاض الإمامة

يتبين من خلال ما تقدم أن الولاية هي أس الدين حيث لا توحيد حقيقي ولا معرفة حقيقية ولا تتم النبوة ويكتمل الدين إلا بها، ولا قبول لعمل ولا قيمة لذي حال، إلا من خلال التولي الحق لأولياء الله الحقيقين، «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة»[٢]، فالقيادة الربانية تمثل الخط الصحيح الذي بدوره يمثل السماء حيث تحمل الحقائق الإلهية إلى الناس وهي القيادة الشرعية الواعية فلا يمكن أن يسود الأمة الإسلامية الصلاح إلا بالالتفاف حولها وموالاتها، لأنها الوحيدة التي تتصف بوضوح الطريق وجلاء المنهج، واتباعهم يعني الالتزام بحدود الله التي تنص على إعطاء كل ذي حق حقه وأن تحله بالمحل الذي يستحقه، وبناءً عليه تتكون رؤية كونية تامة عن أصل يُعد من أهم أصول المذهب تلك الرؤية التي تعبر عن المنظومة المعرفية التي تحدد أصول الدين والمنهج المعرفي لكل دين من الديانات ومذهب من المذاهب وعلى ضوئها تتحدد أيدلوجيته التي يتخذها عمليًا كسلوك

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٢) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، ص٩٨.

فردي واجتماعي، فقد ابتدأت مطالب الولاية بثبوتها لله تعالى ثم امتدت لتصل إلى النبي ومن ثم إلى الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١)، وهنا نريد أن نتكلم عن امتدادها إلى أولياء الأئمة عليهم السلام، هذه المسألة الابتلائية التي أصبحت محل فشل الكثيرين من أتباع المذهب بالاختبار الإلهي في الآونة الأخيرة حيث يُقيَّم على ضوئها مصير الموالين في الدنيا والآخرة، باعتبار أن الأمر لم يكن بالخيار بالنسبة إليهم فقد تركزت وصايا المعصومين عليهم السلام عليها فيفترض أن تكون إحدى الثمار العظيمة للولاية وآثارها المهمة كما تقدم ذكره في محل البحث حول أبعاد الولاية، وعدم الالتزام بها يعني مخالفة تلك الوصايا وتضييع المصالح المترتبة عليها.

فمن الضروري رعاية الإنصاف والتقوى في تقييم الحقائق التي تنكشف للإنسان في جميع جوانب الحياة دينية كانت أو دنيوية ولا مجال للإخفاق والعدول عن ذلك، فقد يتحول الخطأ في الموالاة بعض الأحيان إلى خطيئة من أكثر من جهة:

الأولى: المغالاة: الغلوّ في الاصطلاح: هو مجاوزة الحدّ المعقول والمفروض في العقائد الدينية والواجبات الشرعية.

والغالي عند الشيعة الإمامية: مَنْ يقول في أهل البيت عليهم السلام ما لا يقولون في أنفسهم كما يدّعون فيهم النبوة والألوهية(٢)، وقد ورد

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) الطريحي، مجمع البحرين –غلو– ١٣٣٢.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التحذير منه: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[(١)]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إياكم والغلو فينا قولوا عبيد مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم»[(٢)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لعن الله مَنْ قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، لعن الله مَنْ أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا، وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا»[(٣)]، بل الأكثر من ذلك فقد نهوا عليهم السلام بأن يخاطب الموالي الناس إلا بحسب ما تستسيغه عقولهم وتقبله قلوبهم وإن كان ذلك ليس من الغلو قطعًا وإنما خوفًا من رفض البعض شيئًا من مراتبهم ومراقيهم، أو إنكار شيء من فضائلهم ومقاماتهم عليهم السلام فيكفر من بعد إيمان، كما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام من أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون ولا تحملوهم ما لا يطيقون فتغرونهم بنا»[(٤)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن احتمال أمرنا ليس هو التصديق به والقبول له فقط، إن من احتمال أمرنا ستره وصيانته عن غير أهله فاقرأهم السلام ورحمة الله – يعني الشيعة – وقل لهم: يقول لكم: رحم الله عبدًا استجر مودة الناس إلي وإلى نفسه يحدثهم بما يعرفون، ويستر عنهم ما ينكرون، ثم قال لي: والله ما الناصب لنا حربًا أشد مؤونة علينا من الناطق علينا بما نكرهه»[(٥)]، فمن المشكل إذاعة روايات الخواص لعامة الناس وإشاعة مثل هذه الأحاديث مذموم قد يصل بصاحبه إلى أقبح ما يرجوه

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ج٥، ص١٢٧.
(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص١٠٤.
(٣) العلامة المجلسي، البحار، ج٢٥، ص٢٩٧.
(٤) النعماني الشيخ محمد بن إبراهيم، كتاب الغيبة، ج١، ص٤١.
(٥) عوالم العلوم، ج٣، ص٣١٥.

المؤمن فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إني لأحدث الرجل الحديث فينطلق فيحدث به عني كما سمعه فاستحل به لعنه والبراءة منه»[(١)].

الثانية: النصب والعداء: النصب في اللغة: المعاداة، قال الفراهيدي: وناصبت فلانًا الشرّ والحرب والعداوة ونحوها، ونصبنا لهم حربًا[(٢)]، أمّا في الاصطلاح، فقد اختص لفظ (النصب) و(النواصب) بمن عادى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أو أحد أهل بيته عليهم السلام، قال الشهيد الثاني رحمه الله: «النواصب هم المبغضون لأحد من أهل البيت عليهم السلام»[(٣)].

لقد كانت وما زالت للنصب الحظوة في صناعة الإرهاب العقائدي الذي مارسه النواصب بحق أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم والذي أنتج مذابح دموية رسمت أعتى لوحة ظلم خطتها أيادي الحاقدين في التاريخ البشري وخصوصًا تلك التي رافقت يوم عاشوراء من مصائب جرت على الحسين وآله وصحبه عليهم السلام ومازال مستمرًا إلى يومنا هذا، وكيفما كان يمكن أن يقال: بأن مودة أهل البيت عليهم السلام إذا كانت تضمن للمرء سعادة الدارين، فإن بغضهم ونصب العداء لهم يوجب الخروج عن الملّة ودخول النار وغضب الجبّار والشقاء الأبدي كما هو مدلول الأحاديث التي وردت بخصوص هذا الشأن، منها:

(١)النعماني الشيخ محمد بن إبراهيم، كتاب الغيبة، ج١، ص٤١.
(٢)الفراهيدي، العين، ج٧، ص١٣٦.
(٣)زين الدين العاملي، حاشية شرائع الإسلام، ص٢٧.

ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يبغضنا إلا منافق شقي»[١]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»[٢]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام: الناصب لأهل بيتي حربًا، وغال في الدين مارق منه»[٣].

الثالثة: إيذاء النبي والأئمة عليهم السلام: إن بعض الأعمال التي تصدر من العباد قد تكون سببًا لإيذاء النبي والأئمة عليهم السلام وقد صرح القرآن الكريم بعقوبة منْ يفعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٥]، ومن أسباب تعريض النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأذى إيذاء المؤمنين فقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ آذى مؤمنًا فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذى الله، ومَنْ آذى الله فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان»[٦]، ولعل من أهون مصاديق شعب الإيذاء إخافة المؤمن وإهانته وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ نظر إلى مؤمن نظرة يخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله»[٧]، وعن الصادق عليه السلام: «مَنْ روع مؤمنًا بسلطان يصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومَنْ روعه بسلطان ليصيبه منه مكروه فأصابه

(١) ذخائر العقبى، ص١٨.
(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج٣، ص١٦٢.
(٣) الشيخ الطوسي، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٢٥٨
(٤) سورة التوبة، الآية٦١.
(٥) سورة الأحزاب، الآية٥٧.
(٦) الشيخ الصدوق، جامع الأخبار، ص١٧٢.
(٧) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٨٦.

فهو مع فرعون وآل فرعون في النار»[١]، وعن النبي ﷺ: «قال تعالى: مَنْ أهان لي وليًا فقد رصد لمحاربتي»[٢]، والأحاديث التي وردت بهذا الصدد كثيرة، ومن هنا يتبين أن الأمر في غاية الخطورة، ولذا لا بد من الحذر والتفكير قبل القيام بأي خطوة من شأنها تعريض المؤمن إلى أذى، فالامتداد أعلاه يبين وثاقة العلاقة بين المؤمن والنبي ﷺ وربه سبحانه، فكما أن حبنا للموالين يعتبر شعاعًا من حبنا لأهل البيت عليهم السلام والذي بدوره يصل إلى النبي ﷺ ومرجعه حب الله، فكذلك عداوتنا وإيذاؤنا للمؤمنين، فقد يكون مثل هذا الحب سببًا للنجاة يوم القيامة ودخول الجنة وقد يكون سببًا في دخول النار كما جاء في الحديث عن الصباح بن سيابة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إن الرجل ليحبكم وما يدري ما تقولون فيدخله الله الجنة، وإن الرجل ليبغضكم وما يدري ما تقولون فيدخله الله النار»[٣].

امتداد الولاية

إن من الأدلة الإنية التي اعتمدها المتكلمون والتي تنطلق من أن احتياج الكل إلى الإمام وغناؤه عن الكل دليل على إمامته، حيث عبروا عن ذلك بأنه: «مَنْ اجتمعت فيهم من الفضائل كلها، فهم أحق بالأمر بحكم العقل العملي، وبتعبير ثالث أنهم عليهم السلام المشار إليهم بأشخاصهم وأسمائهم بحسب الجرد التاريخي وباعتراف كل

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٥١.
(٣) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٩٢.

الفرق والملل قد فاقوا نوابغ كل صفة في كمال تلك الصفة وتمحضها فيهم صلوات الله عليهم»[١].

يمكن أن نستخلص مما تقدم أن الولاية مفهوم مشكك من جهة، فهي تطلق على كل من والى أهل البيت عليهم السلام، لكنها ليست على حد واحد، ومن جهة أخرى هي وإن شملت الجميع إلا أنها لا تقبل إلا ممّنْ اكتملت منه، واعتنقها مقترنة بشرط قبولها، فلا كمال لها إلا بالبراءة من أعدائهم وكذلك موالاة أوليائهم، فمن دون أحد هذين الأخيرين تكون الولاية ناقصة غير تامة، ومن هنا يمكن أن تنقسم الولاية إلى قسمين:

الأول: الولاية الناقصة: هي الولاية التي يحاول مدعيها الجمع بين محبتهم وموالاتهم عليهم السلام ومحبة وموالاة أعدائهم، أو موالاة الأئمة عليهم السلام ومعاداة أوليائهم، وعلى كل حال تبقى إحدى حِكم الولاية كما أسلفنا سابقًا تقوية الروابط الاجتماعية بين الموالين وترسيخ روح المحبة بينهم وسيادة مبدأ الأخوة العقائدية بين الناس في الحياة، ولذا أصبح من الضروري التأكيد على إيجاد الامتداد الطبيعي للولاية والقول بأن الإخلال بذلك إخلال بالأصل باعتبار افتقاد الحكمة من ورائها إن لم يتحقق هذا الأمر، وعليه تستحق مثل هكذا علاقة ولائية أن توصف بالناقصة؛ لأنها لم تؤتِ أكلها وإلا لأصبح حال الزيدية والإسماعيلية والفطحية وأمثالهم من أهل الولاية التامة وإن انقطعت سلسلة اعتقادهم بالأئمة عليهم السلام مع أن الفرق يبقى واضحًا بين الفئتين

(١) ينظر: السند الشيخ محمد، الإمامة الإلهية، ص٣٠٦.

المختلتين؛ لأن أمر انقطاع الولاية بعدم موالاة بعض الموالين أهون من إنكار ولاية بعض الأئمة عليهم السلام.

أما ما نراه اليوم من اعتداءات وتجاوزات تصدر من بعض الموالين على إخوانهم ليس إلا لأنهم لم ينتهجوا منهجهم الديني المرجعي أو الجهوي، أو لأنهم لم يتفقوا معهم في تكتلهم السياسي، أو لم يكونوا من قراباتهم وأبناء عمومتهم، أو لأنهم لم يشتركوا معهم في العرق أو البلد وما شاكل ذلك، فإنه من الظلم والجور بحقهم ومن الأمور التي تنسف روابط الولاية وتقطع امتدادها، فمن الضروري تقبل الرأي الآخر وخصوصًا في القضايا الجزئية، فإن قبول الرأي المخالف حالة صحية تزرع بالإنسان الثقة بالنفس من جهة، ومن جهة أخرى تفسح المجال أمامه لطرح ما بداخله والبوح بما يضمره، وليس من الضروري تخطئته دائما أو مناقشة آرائه إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وحينئذ لا بد أن تكون بعقلانية وهدوء؛ ليصل الطرفان إلى نتيجة من وراء حوارهما، وخصوصًا أن توصيات الأئمة عليهم السلام لأوليائهم والسلوك العام للموالين يفرض عليهم أن تكون العلاقات بينهم علاقة السند والعضد والحامي والناصر والمتسامح، فغيرها لا يكون لائقًا بمثل هذا المبدأ العقائدي العظيم الذي يجمعهم ويضمن لهم سعادة الدارين.

ومن دون هذه المعادلة الثنائية الحدود سوف تنقطع السلسلة ويحصل الخلل في الولاية الذي يخاف عقباه، فقد يرتد ليأكل جذور الولاية من أصلها والعياذ بالله، ولذا ينبغي مراعاة جميع الأسس التي تحافظ على هذا الأصل وتديم هذه العلاقة، وليبدأ الإنسان الموالي

بذلك من تغذية عقله الباطن ليمتلك شعورًا واعيًا على جعل الولاية هي المنطلق لتقييم علاقاته مع الآخرين والتواصل معهم وترويض نفسه على محبتهم، فلا ينبغي للمؤمن أن يسلك المنهج الاقتراحي في طريقة تقييمه وموالاته ويفرضه على الله - بأن يقترح ضوابطًا لتحديد العقيدة ويتوقع من الله أن يقرها ويجعلها أمره وشرعه- فيهلك كما هلك إبليس وفشل في اختبار السجود لآدم عليه السلام.

ومن هنا نفهم أن الولاية تبقى ناقصة أيضًا وإن اكتملت من هذه الجهة مع وجود خلل في البراءة من أعدائهم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، فلا يجتمع حب شخص وحب عدوه في قلب واحد كما تقدم بيانه، فإن ذلك خلاف العدالة الاجتماعية، وخلاف الإنصاف مع مَنْ يتولاه الفرد، ومثله يكون هدامًا لجميع الروابط المتصورة بين المولى ومولاه، فالمولى الذي نال شرف الولاية من الله لا ينفك ارتباطه به سبحانه؛ ولذا وجب على الموالي إتباع الولي ومعاداة مناوئيه ومخالفيه والبراءة منهم فضلًا عن أعدائه وناصريهم ومواليهم، فأعداءه أعداء الله تعالى ويجب على كل مؤمن التبري من أعداء الله.

الثاني: الولاية التامة: هي الولاية التي اكتملت جميع شروطها،

---

(١) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

فقد حقق صاحبها موالاتهم عليهم السلام وموالاة شيعتهم ومواليهم، والبراءة من أعداء الأئمة عليهم السلام ومعاداتهم.

إذن الولاية الحقة تنحصر بالثانية؛ لأنها التي تحوي كل معنى الموالاة حسب ما أراده الله تعالى فهي التي تشمل كل فرع وامتداد، وتضم كل مندرج تحت ظل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويجسد من خلالها الموالي ما أعلن عنه أهل البيت عليهم السلام بخصوص ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، من موالاة مَنْ والوا ومعاداة مَنْ عادوا، ومسالمة مَنْ سالموا، ومحاربة مَنْ حاربوا، مع وضوح براءة الموالي من أعداء آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ويتضح مما تقدم أيضًا: أن للولاية امتدادين فلنطلق على أحدهما: الامتداد العلوي وعلى الثاني الامتداد السفلي، أما تسمية الأول بهذا الاسم فباعتبار العلاقة الطولية بين التوحيد والنبوة والولاية التي طالما قرن الله سبحانه طاعته من طاعة نبيه وأولي الأمر المنصبون من عنده سبحانه، واعتبر الإعراض عن هذه الطاعة وعدم امتثال هذا الأمر كفر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[1]، وقال عز من قائل: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[2]، وجعل طاعة نبيه من طاعة وليه، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٠.

الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[١]، إذن لا توحيد حقيقي ولا نبوة تامة ولا دين كامل، إلا بولاية تامة، وأما تسمية الثاني بذلك -أي السفلى- فباعتبار العلاقة الدونية بين وجوب ولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام وموالاة شيعتهم ومواليهم التي أوجبوها على كل مؤمن بحسب ما ورد عنهم كما جاء في زيارة عاشوراء: «إني سلم لِمَنْ سالمكم وحرب لِمَنْ حاربكم وولي لمن والاكم وعدو لمن عاداكم»[٢]، وكما ورد في الحديث: «يبعث الله تعالى يوم القيامة عبدًا لا ذنب له فيقول الله عزَّ وجلَّ بأي الأمرين أحب إليك أن أجزيك؟ بعملك؟ أم بنعمتي عندك قال: يا رب أنت تعلم أني لم أعصك، قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي، فما يبقى له حسنة إلا استفرغتها تلك النعمة، فيقول: يا رب بنعمتك ورحمتك، فيقول بنعمتي ورحمتي، ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له سيئة، فيقال له: هل كنت توالي أوليائي؟ قال: يا رب كنت من الناس سلمًا، قال: فهل كنت تعادي أعدائي؟ قال: يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء فيقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لا ينال رحمتي من لم يوالِ أوليائي، ويعادِ أعدائي»[٣]، وبحسب الظرف الذي يمر به المؤمنون حاليًا يعتبر هذا النوع من الولاية هو في الحقيقة محل ابتلائهم الأعظم كما تمَّ بيانه، فالولاية الحقة تقتضي أن تكتمل عند الموالي هاتين الولايتين فلا يفرط بأي منهما، وهذا ما يقتضيه الوفاء للأولياء من حيث طاعتهم واتباع أوامرهم مثلما يريدون صلوات

(١) سورة النساء، الآية٥٩.
(٢) القمي الشيخ عباس، مفاتيح الجنان ٤٨٩.
(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٤، ص٢٥٦.

الله عليهم لا كما تشتهيه الأهواء وتفرضه بعض الأجواء العامة التي خيمت عليها النزعات الممقوتة من قِبَل الله سُبحانه وتعالى ومما تكون محل بغض محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأن أدنى خلل في أحدهما قد يجره إلى موقف مع أوليائه لا يحمد عقباه.

مثبتات المودة

إن للحب درجات متفاوتة قد ترتفع وقد تنخفض حسب المؤثرات الخارجية أو المشاعر الداخلية، وقد يثبت الحب في القلب ويرسخ وحينئذ لا تزعزعه العواصف مهما عتت وقد يكون متزلزلًا يزول بأدنى مؤثر، وهنا نريد أن نتكلم عما يثبت المودة ويرسخ أواصرها بين المتحابين؛ لتكون الروابط متينة قوية، وتكون الجماعة متآلفة متراحمة حتى تعود وكأنها جسد واحد، وهذا ما سنجده جليًا في الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، وهذه المثبتات بحسب ما ورد عن المعصومين عليهم السلام هي:

١ - إفشاء السلام ومصافحة الإخوان: لقد أولى الإسلام مسألة السلام اهتمامًا قل نظيره من بين اللياقات الاجتماعية وهذا ما أكدته الروايات التي حثت عليه، فهو من الأمور التي تساعد على ترسيخ المحبة وهو من خلق الأنبياء، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام تحابوا»[1]، وفي

(١) الطبرسي، مشكاة الأنوار، ص٢٢١.

فضل البادي به ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أولى الناس بالله وبرسوله مَنْ بدأ بالسلام»(١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «السلام سبعون حسنة، تسعة وستون منها للمبتدي وواحدة للراد»(٢)، وللتصافح أيضًا الأثر العظيم في تنقية القلوب وجلاء الأحقاد، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «تصافحوا فإنها تذهب بالسخيمة»(٣)، وفي فضله جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا صافح الرجل صاحبه فالذي يلزم التصافح أعظم أجرا من الذي يدع، ألا وإن الذنوب ليتحات فيما بينهم حتى لا يبقى ذنب»(٤).

٢- حسن البشر والقول الحسن: وهو لا يقل أثرًا اجتماعيًا طيبًا من إفشاء السلام فهو يكشف عن نفس طيبة ودودة تحب التقرب بخلاف التجهم الذي يوحي بالعدوانية والحقد والضغينة، وهو أحد سُبل إشاعة المودة وتداعيات الحفاظ عليها، وهو من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقد جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «حسن البشر يذهب بالسخيمة»(٥)، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «البشاشة حبالة المودة»(٦)، وعنه عليه السلام: «إذا لقيتم إخوانكم المؤمنين فتصافحوا وأظهروا لهم البشاشة والبشر تتفرقوا وما عليكم من الأوزار قد ذهب»(٧)، وكذلك الحال

(١) المازندراني، شرح أصول الكافي، ج١١، ص١٠٨.
(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٧٧.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٨٣.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٨١.
(٥) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ص١٧٢.
(٦) الشيخ هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ج٧، ص٣٨٩.
(٧) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج١، ص٢٦٢.

بالنسبة إلى القول الحسن والكلام اللطيف فإنه من الأمور التي تحبب الشخص إلى الناس وتفشي الود والتآخي، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يؤيد ذلك، كما جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «القول الحسن يثري المال وينمي الرزق وينسيء في الأجل ويحبب إلى الأهل ويدخل الجنة»[١].

٣- الإخبار عن حب المؤمن لأخيه المؤمن: إن من دواعي زيادة المحبة والمودة إخبار الشخص لغيره أنه يحبه فمثل هذا الأمر ينبئ عن حقيقة نفسه ويكشف مكنوناتها، وقد ورد في الرواية أن رجلًا مرّ في المسجد وأبو جعفر عليه السلام جالس فقال له بعض جلسائه: والله إني لأحب هذا الرجل، قال أبو جعفر: «ألا فأعلمه فإنه أبقى للمودة وخير في الألفة»[٢]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أحب أحدكم رجلاً فليعلمه فإنه أصلح لذات البين»[٣]، ويعلل أحد العلماء ذلك بأنه أزيد للحب فإن من يعلم بحب أخيه إليه أحبه بالطبع لا محالة، فإذا عرف الأول زاد حبه له وهكذا تتبادل المشاعر بين الطرفين، فلا يزال الحب يتزايد بين الطرفين ويتضاعف، وهذا ما تطلبه الشريعة ويريده الدين.

٤- التهادي والتزاور في الله: وهو مثبت آخر من مثبتات المحبة والمودة، ففي الحديث: «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر»[٤]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الهدية تورث المودة، وتجدد الأخوة، وتذهب

---

(١) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٧٤٣.
(٢) السيد البرجوردي، جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٢٣٠.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ص١٨٢.
(٤) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٤، ص٣٤٥.

الضغينة»[(١)]، وعنه أيضًا صلى الله عليه وآله وسلم: «تهادوا تحابوا فإنها تذهب بالضغائن»[(٢)]، أما عن التزاور فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ زار أخاه في بيته، قال الله عزَّ وجلَّ له: أنت ضيفي وزائري، عليَّ قراك، وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه»[(٣)]، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم وذكر لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم»[(٤)].

٥- السعي في قضاء حوائج الأخوان: وهو من دواعي ترسيخ المحبة بحكم الفطرة الإنسانية فالإنسان يميل إلى مَنْ يسعى في قضاء حوائجه، وكان المعصوم شديد الاهتمام بقضاء حوائج شيعته ومواليه ويحث الآخرين على ذلك كما جاء في أحاديث كثيرة منها ما ورد في رواية الإمام الكاظم عليه السلام مع علي بن يقطين حينما استأذنه في ترك العمل مع السلطان فلم يأذن له وقال: «لا تفعل فإن لنا بك أنسًا ولإخوانك بك عزًا، وعسى أن يجبر الله بك كسرًا، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه، يا علي كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم، اضمن لي واحدة اضمن لك ثلاثًا، اضمن لي أن لا تلقى أحدًا من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبدًا ولا ينالك حد سيف أبدًا ولا يدخل الفقر بيتك أبدًا، يا

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٩.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٨٦.

علي من سر مؤمنًا فبالله بدأ وبالنبي ﷺ ثنى وبنا ثلث»[(١)]، ومنها ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «لأن أمشي في حاجة أخ لي مسلم أحب إلي من أن أعتق ألف نسمة وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مسرجة ملجمة»[(٢)]، وعنه عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لإخوانكم وكونوا من أهله فإن للجنة بابًا يقال له «المعروف» لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل اللهَّ عزَّ وجلَّ به ملكين واحدًا عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته»[(٣)]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «والله لرسولُ الله ﷺ أسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة»[(٤)]، وعنه عليه السلام: «ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تعالى عليَّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة»، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «مَنْ مشى لامرئ مسلم في حاجته فنصحه فيها كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحا عنه سيئة؛ قضيت الحاجة أو لم تقض فإن لم ينصحه، فقد خان الله ورسوله، وكان رسول الله ﷺ خصمه»[(٥)]، وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إنَّ خواتيم أعمالكم قضاء حوائج إخوانكم والإحسان إليهم ما قدرتم وإلا لم يُقبل منكم عمل، حنُّوا على إخوانكم وارحموهم تلحقوا بنا»[(٦)].

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٥.
(٤) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٢، ص١٢٩١.
(٥) الحسين بن سعيد الكوفي، المؤمن، ص٤٧.
(٦) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٧٩.

٦- تصديق الأخوان وقبول الاعتذار: إن من العوامل التي ترقي أخلاقيات العلاقات الاجتماعية التغاضي عن إساءات الآخرين والعفو عنهم وقد ورد في الروايات الحث على ذلك مع بيان بعض الحِكم من ورائه، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا بلغك عن أخيك شيء فقال: لم أقله، فاقبل منه، فإن ذلك توبة له»[(١)]، وعن محمد بن فضيل، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «قلت له: جعلت فداك الرجل من أخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عن ذلك فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال لي: يا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة، وقال لك قولًا فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئًا تشينه به، وتهدم به مروءته فتكون من الذين قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[(٢)].

ترك المعاتبة: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «احمل أخاك على ما فيه ولا تكثر العتاب فإنه يورث الضغينة ويجر إلى البغيضة»[(٣)]، وإذا أراد الإنسان أن يعاتب فليجعل عتابه إحسانًا فهو أفضل أنواع العتاب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «عاتب أخاك بالإحسان إليه وأردد شره بالإنعام عليه»[(٤)].

---

(١) الشيخ الصدوق، مصادقة الإخوان، ص٨٢.
(٢) المازندراني، شرح أصول الكافي، ج١٢، ص١٥٣.
(٣) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج١، ص٦٤٩.
(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكم والمواعظ رقم ١٥٨.

جفاء الأخوان

إن للمؤمن حقوقًا عظيمة في الإسلام، بما له من مكانة وحرمة، توجب علينا أن نتعامل معه وفق ما أراده لنا، من خلال معرفتها ومراعاتها مع كل ما تحمله من أبعاد إيمانية لاستقامة مسيرة الحياة الفاضلة، سواء من الناحية الفردية أو الاجتماعية، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما عُبد الله بشي أفضل من أداء حق المؤمن، إن المؤمن أفضل حقًا من الكعبة»[(١)]؛ لذلك لم يكن بالإمكان التجاوز عن معرفة العوامل الإيجابية التي هي مصدر التواصل وإدامة المودة بين المؤمنين وقد تقدم بيانها، ولا عن معرفة أخطر العوامل السلبية التي هي مصدر الافتراق والاختلاف، لأن الإقدام على شيء أو الإحجام عنه، إنما يكونان بعد الاطلاع على الموجب لذلك في كليهما، ومن أسباب العداوة والفرقة:

١- الشيطان: لقد أعلن الشيطان عداوته لبني آدم منذ اللحظة الأولى التي عصى فيها ربه وتوعدهم بأن لا يتركهم إلا ويحدث فيهم ما يهلكهم وما يسلب منهم استقرارهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة حسدًا منه وبغضًا لأبيهم آدم عليه السلام بإغوائهم، قال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[(٢)]، لكنه سبحانه مع هذا آلى على نفسه ألا يترك العباد لقمة سائغة بيد إبليس،

---

(١) العلامة المجلسي محمد تقي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٣٤.
(٢) سورة ص، الآيات ٨٢-٨٥.

فحذرهم مكائده وبين لهم حقيقته وموقفه اتجاه بني آدم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ﴾[(١)]، ورغم ذلك كله استطاع أن ينجح في مهمته وتحقيق هدفه بانجذاب البعض إليه وإطاعته امتثالًا لجنده من الجن أو الإنس وإن كان كيد الأخير قد يكون أشد في بعض الأحيان فشياطين الجن لا يدركون بالحواس فكأنهم غيب، وشياطين الإنس ملموسون، والإنسان يميل بفطرته إلى المحسوس، وهذا ما أكدته لنا التجربة حيث نرى مدى تأثير الشيطان الأكبر أمريكا وأتباعها على البعض ونجاحهم في إغوائهم واستهوائهم والسيطرة عليهم وتسييرهم كما تريد.

٢- الجهل: إن الساحة الفكرية الاستكبارية المعاصرة تزخر بألوان النتاجات ذات الصبغة التشويهية للعلاقات الشيعية الشيعية مما يسبب سوداوية وظلامية في التصورات لدى أتباع المذهب الواحد، تهدف من ورائها بث روح الخلاف والفرقة بين المؤمنين وان أول ما تراهن به هذه القوى غباء وجهل الطرف المقابل، فالفراغ الفكري الذي يعيشه المجتمع والجهل الذي يخيم على العقول في الوقت الحاضر أفقده جملة من الثوابت والمبادئ الدينية والمذهبية التي تحدد كيفية التعامل مع المؤمنين وطريقة التعاطي معهم، حتى أصبح البعض بسبب هذه الإملاءات مختنق فكريًا لدرجة أنه يفرح عندما يسمع ما يسوء إخوته ويتمنى ذلك، بل وقد يعين عدوه عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٩١.

٣- تضارب المصالح واتباع الهوى: إذا حاول الباحث أن يتجاوز الحديث عن النظريات التحليلية، وفتش عن الأسباب الميدانية المباشرة، التي تنجم منها حالات العداء والعداوة بين الناس لوجد أن في طليعتها تضارب المصالح، فلكل إنسان في هذه الحياة مصالحه وتطلعاته، التي تعبر عن احتياجاته ورغباته، فإذا ما حال أحد أو تصور أنه يحول بينه وبين حاجة له أو رغبة عنده، فسيتخذ -بحسب الطبع الغالب لدى أكثر الناس- منه موقف العداء ويواجهه بالعدوان، فأغلب الصراعات والنزاعات في عالم البشر تحصل بسبب اصطدام المصالح، كالنزاع على السلطة والحكم، أو على الثروة والمال، أو على الامتيازات والمواقع، ثم قد تحدث هذه النزاعات بين أفراد، وقد تكون بين فئات وجماعات وبين دول وحكومات.

إن سعي الإنسان لتحقيق مصالحه وإشباع حاجاته ورغباته أمر مشروع شريطة أن يكون ضمن حدود الاحترام لحقوق الآخرين وحريتهم في السعي لخدمة مصالحهم مما يستلزم وجود نظام وقانون عادل ينظم سير الناس وتنافسهم في توفير شؤون حياتهم ومتعلقات ميولهم ورغباتهم، وغياب ذلك القانون أو تحيزه لبعض دون آخر أو عدم وضوحه قد يكون مسببًا لحالات من التصادم، وفي أحيان كثيرة تدفع الأطماع والرغبات أصحابها إلى تجاوز الحدود وانتهاك حقوق الآخرين وهم يعلمون أن ما يقدمون عليه مخالف للنظام والقانون مُدان من قبل الدين والضمير والوجدان، لكن الطمع والرغبة تقود الإنسان إلى الظلم والعدوان، بل قد يصل إلى مرحلة أنه لا يرى سوى

مصالحه ولا شيء غيرها، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حبك لشيء يعمي ويصم»(١).

٤- سوء الظن: وهو من الأمراض القلبية الخطيرة ويعد من أشنع الرذائل الأخلاقية، التي تؤدّي إلى التمزيق والفرقة، وإن أول ثماره السلبية زوال الثقة بين الناس، وعندما تزول الثقة، فإنّ عملية التعاون والتكاتف في حركة التفاعل الاجتماعي ستكون عسيرة للغاية، وبذلك سوف تتبدل الحياة في هذا المجتمع إلى محرقة وجحيم، يعيش فيه الأفراد حالة الغربة والوحدة، ويتحرّكون في تعاملهم من موقع الريبة والتشكيك والتآمر ضدّ الآخر؛ ولهذا السبب، فإن الإسلام؛ ولأجل توكيد ظاهرة الاعتماد المتقابل بين الأفراد والأمم اهتم بهذه المسألة اهتمامًا بالغًا؛ فنهى بشدة عن سوء الظن، ومنع الأسباب التي تورثه، فأمرَّ جلَ وعلا باجتنابه واعتبر بعضه إثمًا، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٢)، ومن آثاره الاجتماعية أنه لا يدخل جوفًا إلا خرقه ولا بيتًا إلا هده ولا خليلًا إلا أبعده، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ولا يغلبن عليك سوء الظن فإنه لا يدع بينك وبين خليل صُلحًا»(٣)، وهو خلاف الحقوق التي جعلها الله للمؤمن، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «أن المؤمن أخ المؤمن لا يشتمه ولا يحرمه ولا يسيء به الظن»(٤).

---

(١) الريشهري محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ج٢، ص١٦٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٢.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٩٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٧٥، ١٦٢.

٥- **المراء:** وهو كلّ اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إمّا في اللفظ وإمّا في المعنى وإمّا في قصد المتكلم، والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير، ومنشأ ذلك ينبع من قصور المعرفة وفي بعض الأحيان يكون بطغيان اللسان، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله، وأمّا في المعنى بأن يقول: ليس كما تقول، وقد أخطأتَ فيه لكذا وكذا، وأمّا في قصده، مثل أن يقول: هذا الكلام حقّ ولكن ليس قصدك منه الحقّ، وإنّما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذروا المراء، فإنّه لا تُفهم حكمته ولا تؤمن فتنته»[(١)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تمارينّ حليمًا ولا سفيهًا، فإن الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك»[(٢)]، وفي الجملة فإن المراء سوى ما استثني من الأفعال المذمومة المهلكة، بل هو معصية يحصل فيها إيذاء الغير، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهيّج الغضب، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له، فيثور التشاجر بين المتمارين كما يثور التهاوش بين الكلبين، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية، وأقوى في إفحامه وإلجامه، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق»[(٣)]، وعن الإمام

---

(١) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، ج٥، ص٢٠٧.
(٢) الشيخ النراقي، جامع السعادات، ج٢، ص٧٠.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الصادق عليه السلام: «إياك والمشادّة، فإنّها تورث المعرة، وتظهر العورة»[١].

٦- التحاسد: يلزم على الإنسان تطهير قلبه وتنظيف نفسه من الحسد، فإن الحسد داء عضال، ومرض روحي فتاك، يودي بصحة الإنسان وسلامته، ويفسد عليه دنياه وآخرته، ويورث العداوة والبغضاء، وينهك إيمان المرء حتى لا يبقي منه شيئًا ولا يذر، ويأكل حسناته، وكثيرًا ما ورد ذمه والتحذير منه على ألسنة المعصومين عليهم السلام، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «أن رجلًا ليأتي بأدنى بادرة فيكفر، وإن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[٢]، وعن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تتحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب اليابس»[٣]، وعنه أيضًا عليه السلام قال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد»[٤]، وعن أبي الحسن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد»[٥]، فالتحاسد ينتهي إلى التباغض، ومعنى كون ذلك داء الأمم السابقة أي: الداء الذي سبب زوال النعم عنهم، وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد، نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم»[٦].

---

(١)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٢)الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٩٢.
(٣)مستدرك الوسائل، ج١٢ن ص١٧.
(٤)المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٥)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٦)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٧- **التعصب**: وهو من الظواهر التي تمثل شكلًا من أشكال العدوانية التي يحملها الإنسان اتجاه الآخرين، قد يكون ناشئًا من الأنانية وحب الذات والجهل أو الاضطراب الأسري، فالإنسان الذي يعيش في أسرة مليئة بالمشاكل، تعاني من عدم الانسجام والتواد والتراحم يصل به الأمر إلى رفض الطرف الآخر، ومن الممكن أن يكون منشأه الانغلاق وعدم الانفتاح، وقد وضح الإسلام الحنيف موقفه إزاء هذا الداء لما له من تداعيات نفسية واجتماعية وخيمة، فهو المفرط في الوصول إلى الحقائق، المانع من ظهور الحق، وقد يتصوره البعض بأنه ينم عن قوة الشخصية لدى صاحبه والحق أنه يكشف عن ضيق في الرؤية لديه، وأن المتصف به إنما هو أسير الشيطان كما بينه أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته...»(١)، وعنه أيضًا عليه السلام في وصفه لأصله وحقيقة ما عليه المتعصب: «فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل»(٢)، وبذلك أصبح أول من تحلى بالعدوانية والبغضاء من بين المخلوقين وهكذا حال بقية المتعصبين.

٨- **المعصية**: عادة تتحرك مشاعر المؤمن بشكل تلقائي رفضًا

---

(١) الريشهري محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، ج٧، ص ٨٦١.
(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

للمعاصي، فطبيعة الإيمان الصادق تنفِّر ذوي الإيمان من الذنوب؛ باعتبارها تمثل نوعًا من الجرأة والتمرد على أوامر الله تعالى، وارتكابها لا يتناسب والعنوان الذي يحمله والروح التي بها أصبح مؤمنًا، إلا أنه في حالة ضعف ما أمام الشيطان وأخرى في حالة انهزام أمام النفس الأمارة بالسوء يستسلم، فيصبح مكبلًا لهما أو صريع أحدهما فيرتكب ما نهي عنه، إلا أن هذا لا ينافي اختياره وعليه تبقى آثار ما ارتكب سواء على المستوى الدنيوي الفردي أو الاجتماعي أو على المستوى الأخروي، ومن آثارها نزع روح الأخوة وسيادة الكراهية والعدوانية بين الإخوان، وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «والذي نفس محمد بيده ما توادَ اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»[(١)].

الخاتمة في القاصعات

لا يظنن ظان أنه قد أصبح من الناجين بناءً على ما تقدم؛ لما تبين من فضل التولي وكرامة الموالين على الله سبحانه والمعصومين عليهم السلام، بل إن الأمر مرهون بخروج روح الإنسان من بدنه وهو ثابت على الولاية؛ لأن الكثير من الأعمال والعياذ بالله تنسف الولاية نسفًا ولا تبقينَّ لها بقلب الموالي أثرًا نستجير بالله، فقد ورد في الرواية أن الناس في آخر الزمان منهم من يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا ومنهم من يمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا، وهذا ليس بالأمر الجديد فقد احتفظ التاريخ بين دفتيه بالعديد من الشواهد التي تدل على صدق المدعى، وما

(١) المناوي، فيض القدير، ج٥، ص٤٣٧.

وقع يوم عاشوراء خير دليل على ذلك، فقد شحن بالكثير من البلايا والاختبارات التي نجح فيها مَنْ قد نجح وهم أصحاب الحسين وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وفشل فيها من فشل وهم جميع من سمع واعية الحسين عليه السلام وخذله ولم ينصره، وهذا ما كان ومازال متكررًا، أو كالحر عليه السلام الذي مثّل في ذلك اليوم إمكانية تبديل القدر حيث أثبت للناس أن ذلك بيد الإنسان نفسه فباب التوبة مفتوح للعباد ما دام له نَفَس يصعد وينزل، وأن صحيفة كل أمرئ هو مَنْ يتحكم بمدادها يمليها بما يشاء ويكتب فيها ما يريد، بينما كان بلعم بن باعوراء مثالًا لانقلاب حال الإنسان إلى أسوء حال ونيل سوء العاقبة والعياذ بالله مع أنه كان ممن حباهم الله بمزايا لم يحصل على شيءٍ منها غيره.

إن حب أهل البيت عليهم السلام نافع للمحب، وفي ولائهم النجاة ولا منجي سوى ذلك قطعًا، لكن بشرطها وشروطها، قال تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، بل إن ضريبة الموالاة تفرض على الموالي ما ليس على غيره من تكاليف كاتباعهم عليهم السلام من خلال السير على نهجهم والالتزام بتعاليمهم وتوجيهاتهم كما نصت عليه الآية المباركة، فقد افترضت روايات أهل البيت عليهم السلام أن يكون الموالي سفيرًا لمن تولاه ومرآةً عاكسة عن صورة وليه، ولهذا طالما كان يخاطب الإمام الصادق عليه السلام أصحابه قائلًا: «كونوا زينًا لنا ولا تكونوا شينًا علينا حتى يقولوا:

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

رحم الله جعفر بن محمد الصادق فلقد أدب أصحابه»[١]، ومن هنا ينبغي للموالي كما أسلفت أن يكون دائمًا على وجل؛ لوجود قاصعات قد يذهبن بولائه والعياذ بالله ولا يبقى لذلك أثر يذكر، منها:

الأول: الكذب على الأئمة عليهم السلام

إن من أعظم الأخطار التي تحيط بعض المؤمنين تصديهم لتفسير أقوال المعصومين عليهم السلام من دون أن يكونوا من أهل علم ودراية في التعامل مع أحاديثهم عليهم السلام، وليسوا من أهل الاختصاص، فكلام الإمام إمام الكلام ليس لكل أحد فهمه، وهذا ما أكدوه عليهم السلام في أحاديثهم كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه، ولا يكون الرجل منكم فقيهًا حتى يعرف معاريض كلامنا، وإن الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجها لنا من جميعها المخرج»[٢]، كون كلامهم عليهم السلام حمّال وجوه كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا، إن الكلمة لتنصرف على وجوه، فلو شاء إنسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب»[٣]، فأمرهم صعب مستصعب ومن أمرهم فهم كلامهم عليهم السلام، روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قاعدًا في المسجد وعنده جماعة من أصحابه، فقالوا له: حدثنا يا أمير المؤمنين، فقال

(١) الشاكري الحاج حسين، موسوعة المصطفى والعترة، ج٩، ص٢٠٠.
(٢) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص٢.
(٣) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٤٥٨.

لهم: «ويحكم إن كلامي صعب مستصعب لا يعقله إلا العالمون...»[١]، فتصدي المتطفلون لبيان ذلك مما يؤذيهم صلوات الله عليهم وموجب لإبعاد هذا المتصدي من مبرتهم ومستلزم لبراءتهم منه وسلب الإيمان من قلبه، بل الإسلام بعض الأحيان والعياذ بالله حسب ما روي عنهم، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام نقلًا عن ابن مسكان أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قوم يزعمون أني إمامهم، والله ما أنا لهم بإمام، لعنهم الله كلما سترت سترًا هتكوه، أقول كذا وكذا، فيقولون: إنما يعني كذا وكذا، إنما أنا إمام مَنْ أطاعني»[٢]، وكذلك ورد عن الباقر عليه السلام قال: «يا أبا النعمان لا تكذب علينا كذبة فتسلب الحنيفية، ولا تطلبن أن تكون رأسًا فتكون ذنبًا، ولا تستأكل الناس بنا فتفتقر، فإنك موقوف لا محالة ومسؤول، فإن صدقت صدقناك وإن كذبت كذبناك»[٣].

الثاني: سفك الدم الحرام

إن أكثر ما يتشدد فيه الدين الحنيف هو الفروج باعتبارها أعراض الناس والدماء، فهو يحرم دم المسلم حرمة مغلظة، بل دم الإنسان مطلقًا إلا ما خرج بالدليل وعرضه وماله، فالسياسة الإسلامية غير ملوثة بسفك الدماء والسجن والتعذيب وما أشبه كما يصورها البعض، حيث تمنع عن ذلك منعًا باتًا إلا في أقصى موارد الضرورة كما

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٨٩.
(٢) النعماني الشيخ محمد بن إبراهيم، كتاب الغيبة، ج١، ص٤١.
(٣) الشاهرودي الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج١، ص١٦٣.

وكيفًا، وذلك حسب الموازين المقررة في الشريعة، والأحاديث الواردة عن النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين خير دليل على ذلك، منها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة وهو آيس من رحمة الله»[١]، وعن أبي حمزة عن أحدهما عليهما السلام قال: «أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له: يا رسول الله قتيل في مسجد جهينة! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم.

قال: وتسامع الناس فأتوه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ قتل ذا؟

قالوا: يا رسول الله ما ندري؟

فقال: قتيل من المسلمين بين ظهراني المسلمين لا يدرى مَنْ قتله! والله الذي بعثني بالحق لو أن أهل السماوات والأرض شركوا في دم امرئ مسلم ورضوا به لأكبهم الله على مناخرهم في النار، أو قال على وجوههم»[٢]، وعن أبي سعيد الخدري قال: «وجد قتيل على عهد رسول الله فخرج صلى الله عليه وآله وسلم مغضبًا حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يقتل رجل من المسلمين لا يدرى من قتله والذي نفسي بيده لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار، والذي نفسي بيده لا يجلد أحد أحدًا ظلمًا إلا جلد غدًا في نار جهنم مثله والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم»[٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) مستدرك الوسائل، ج١٨، ص٢١١.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٨٣.
(٣) الشيخ المفيد، الأمالي، ص٢١٦.

«لو أن رجلًا قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب كان كمن قتله واشترك في دمه»[١]، وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أول ما يحكم الله فيه يوم القيامة الدماء، فيوقف ابني آدم فيفصل بينهما، ثم الذين يلونهما من أصحاب الدماء، حتى لا يبقى منهم أحد ثم الناس بعد ذلك حتى يأتي المقتول بقاتله فيتشخب في دمه وجهه فيقول هذا قتلني، فيقول أنت قتلته، فلا يستطيع أن يكتم الله حديثًا»[٢]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أعق الناس على الله تعالى مَنْ قتل غير قاتله ومَنْ ضرب مَنْ لم يضربه»[٣]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدنى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد؛ لأن فيه قود البدن[٤]، وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلةً، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم»[٥]، وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من نفس تقتل برة ولا فاجرة إلا وهي تحشر يوم القيامة معلقًا بقاتله بيده اليمنى ورأسه بيده اليسرى

(١) روضة الواعظين، ج٢، ص٤٦١.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٧، ص٢٧١.
(٣) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص٢٧٨
(٤) أي: القصاص.
(٥) نهج البلاغة، الرسائل، الرسالة٢٣، من رسالة له عليه السلام إلى مالك بن الأشتر.

وأوداجه تشخب دمًا يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني، فإن كان قتله في طاعة الله يثيب القاتل وذهب بالمقتول إلى النار، وإن قال في طاعة فلان قيل له اقتله كما قتلك ثم يفعل الله فيهما بعد مشيته»[(١)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أعان على مؤمن فقد بريء من الإسلام»[(٢)]، وعنه عليه السلام أنه قال: «يجيء يوم القيامة رجل إلى رجل حتى يلطخه بدم والناس في الحساب فيقول: يا عبد الله ما لي ولك، فيقول أعنت عليّ يوم كذا بكلمة فقتلت»[(٣)]، وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن العبد يحشر يوم القيامة وما يدمي دمًا فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دمًا، قال: بلى سمعت من فلان بن فلان كذا وكذا فرويتها عنه، فنقلت عنه حتى صار إلى فلان الجبار فقتله عليها فهذا سهمك من دمه»[(٤)]، وقال عليه السلام: «مَنْ أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله وكان كمن هدم الكعبة والبيت المقدس وقتل عشرة آلاف من الملائكة وأول ما يحكم الله تعالى في الدماء»[(٥)]، وعن فضالة عن أبان عمن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنه سئل عمَنْ قتل نفسًا متعمدًا، قال: "جزاؤه جهنم"»[(٦)]، وعن حمران قال: قلت

---

(١) الشيخ الصدوق، ثوب الأعمال، ص٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٤.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ٢١٧.
(٤) المحاسن، ج١، ص١٠٤.
(٥) أعلام الدين، ص٤١٠.
(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٩، ص١٤.

لأبي جعفر عليه السلام قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]، وإنما قتل واحدًا؟ فقال: يوضع في موضع من جهنم إليه منتهى شدة عذاب أهلها لو قتل الناس جميعًا كان إنما يدخل ذلك المكان ولو كان قتل واحدًا كان إنما يدخل ذلك المكان قلت: فإن قتل آخر؟ قال: "يضاعف عليه"[2].

الثالث: الغدر والخيانة

إن الصفات الذميمة بكل أصنافها هي أحد القضايا التي استهدفتها الأديان الإلهية وحاولت محاربتها والقضاء عليها؛ لأن الهم الأكبر لهذه الأديان أن ينعم الإنسان بحياة دافئة ولا حياة رغيدة مع وجود القبائح خصوصًا الاجتماعية منها، وهذا ما يحتاج إلى تدخل الدين ليسن القوانين ويثبت تشريعات تتضمن واجبات ومحرمات من شأنها تحقيق هذا الهدف؛ لتوفير مقومات هذه الحياة المقصودة من قبله، ومن هذه الخبائث التي تحول دون الوصول إلى هذه الغايات هي التفريط بالأمانات وعدم الوفاء، ومن هنا مقت الإسلام الغدر والخيانة وذمهما؛ لقطعهما أواصر المجتمع، ولكونهما يهدمان مروءة الإنسان، ويعدمان ثقة الناس به، ولا يجعلان له بينهم مكانة ولا مقامًا محمودًا ولا كرامة، وفي مقام بيان معنى الغدر والخيانة، قيل عن الغدر: أنه يقابل الوفاء، أي أنه ترك الوفاء بالعهد،

(١) سورة المائدة، الآية ٣٢.
(٢) معاني الأخبار، ص ٣٧٩.

وعن الخيانة من أنها تقابل الأمانة، فهي عمل مَنْ اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، وكلاهما يدلان على خسة النفس ودناءة أصحابهما؛ ولهذا قطع الله على نفسه جلَّ وعلا أن لا يكلمهم يوم القيامة ولا ينظر إليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]، وأن الخائنين من المبغوصين عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٢]، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان»[٣]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجيء كل غادر يوم القيامة بإمام مائل شدقه حتى يدخله النار»[٤]، وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منا مَنْ أخلف الأمانة»[٥]، ويقول عنها الشيخ النراقي في جامع السعادات: «الغدر والخيانة في المال أو العرض أو الجاه، ويدخل تحته الذهاب بحقوق الناس خفية، وحبسها من غير عسر، وبالبخس في الوزن والكيل، وبالغش بما يخفى، وغير ذلك من التدليسات المموهة والتلبيسات المحرمة، وجميع ذلك من خباثة القوة الشهوية ورذائلها، ومن الرذائل المهلكة وخبائثها»[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٥٨.
(٣) الريشهري محمد، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٢٣١.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص١٣٣.
(٦) النراقي محمد مهدي، جامع السعادات، ج٢، ص١٦٩.

الرابع: أكل الحرام

إن من أخطر الذنوب ذات الآثار التكوينية والتشريعية هو أكل المرء الحرام، فإنه لا يبقي عنده أثرًا لعمل صالح يعمله، أو نورًا في قلبه، فالبدن وعاء الروح وكلما كان الوعاء طاهرًا نظيفًا طاب ولذ ما فيه، وإذا نجس وقذر اشمأزت النفس منه ولم تقربه وإن كان ما فيه الشهد والعسل، ومن المعلوم الذي لا ينكر أن بناء البدن من لَبنات الطعام والشراب، فإن كانا من الحلال طابا وطاب البدن وإن كانا محرمين خبثا وخبث البدن، وبما أن الاتصال بين البدن وبين الروح وثيق ودقيق كان لأكل الحرام أثر على إيمان الإنسان، وتكوين نطفة الولد وقد ورد عن أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم ما يدل على ذلك، ومنه ما ورد عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن ولي علي عليه السلام لا يأكل إلا الحلال لأن صاحبه كان كذلك، وإن ولي "فلان الثالث" لا يبالي أحلالًا أكل أو حرامًا لأن صاحبه كذلك»[١]، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما آمن بالقرآن مَنْ استحل حرامه»[٢]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السماوات وفي الأرض، وما دامت اللقمة في جوفه لا ينظر الله إليه، ومَنْ أكل اللقمة من الحرام فقد باء بغضب من الله، فإن تاب تاب الله عليه وإن مات فالنار أولى به»[٣]، وعن الإمام

(١)الشاهرودي الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج٢، ص٢٦٦.
(٢)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣)المصدر نفسه، ص٢٦٥.

الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أكل مال أخيه ظلماً ولم يرد عليه، أكل جذوة من نار يوم القيامة»(١)، وغيرها من الروايات التي وردت عنهم عليهم السلام التي نصت على عدم إستجابة دعاء مَنْ كان في جوفه لقمة حرام وعدم قبول صلاته وصيامه وحجه وزكاته وسائر أعمال بره، ومقابلها ورد في مدح ترك أكل الحرام وأكل الحلال من الطعام الكثير من الأحاديث منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لرد دانق من حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة»(٢)، وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «ترك لقمة حرام أحب إلى الله تعالى من صلاة ألفي ركعة تطوعاً»(٣).

الخامس: أذية المؤمن وقتاله:

إن للمؤمن حرمة عند الله سبحانه هي أعظم من حرمة الكعبة المشرفة، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال حينما نظر إلى الكعبة: «مرحباً بالبيت ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله، والله للمؤمن أعظم حرمة منك؛ لأن الله حرم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة: ماله ودمه وأن يظن به ظن السوء»(٤)، ومن هنا أولى الإسلام عناية خاصة بالمؤمنين ولم يسمح في أن يعتدى عليهم وجعل أذية المؤمن أذية الله سبحانه فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ آذى مؤمناً فقد آذاني ومَنْ آذاني فقد آذى الله عزَّ وجلَّ ومنْ آذى الله فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٦٤، ص٧١.

والفرقان»[١]، وورد عن عبد العظيم الحسني عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «يا عبد العظيم أبلغ عني أوليائي السلام وقل لهم: أن لا يجعلوا للشيطان على أنفسهم سبيلًا ومرهم بالصدق في الحديث وأداء الأمانة ومرهم بالسكوت وترك الجدال فيما لا يعنيهم وإقبال بعضهم على بعض والمزاورة فإن ذلك قربة إليَّ، ولا يشتغلوا أنفسهم بتمزيق بعضهم بعضًا، فإني آليت على نفسي أنه من فعل ذلك وأسخط وليًا من أوليائي دعوت الله ليعذبه في الدنيا أشد العذاب وكان في الآخرة من الخاسرين وعرفهم أن الله قد غفر لمحسنهم وتجاوز عن مسيئهم ألا من أشرك به أو آذى وليًا من أوليائي أو أضمر له سوءًا فإن الله لا يغفر له حتى يرجع عنه، فإن رجع وإلا نزع روح الإيمان عن قلبه وخرج عن ولايتي ولم يكن له نصيب في ولايتنا وأعوذ بالله من ذلك»[٢]، وقتال المؤمنين كفر، فقد ورد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية وحرمة ماله كحرمة دمه»[٣]، وفي ذلك شيء من بيان مكانة المؤمن عند الله تعالى ومقامه عنده وما أخفاه الله من كرامته عليه في القيامة أعظم، كما جاء عن الفضل بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (يا فضل لا تزهدوا في فقراء شيعتنا، فإن الفقير منهم ليشفع يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر، ثم قال: «يا فضل إنما سمّي المؤمن مؤمنًا لأنه يؤمن على الله فيجيز أمانه، ثم قال: أما سمعت الله تعالى يقول في أعدائكم إذا رأوا شفاعة الرجل منكم لصديقه يوم القيامة: "فما

---

(١) السبزواري الشيخ محمد، معارج اليقين في أصول الدين، ص٤١٥.
(٢) الشيخ المفيد، الاختصاص، ص٢٤٧.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٩٧.

لنا من شافعين ولا صديق حميم"»[١]، ومن هنا لا بدَّ أن نلتفت إلى طريقة بعضنا في تعامله مع فقراء المؤمنين وخصوصًا في المجالس العامة حيث يُبتلى البعض بإكرام القادم إن كان ذا مال ووجاهة ونفوذ والزهد بفقراء المؤمنين ففي ذلك أثم عظيم وذنب كبير لما فيه من انتقاص من أولياء الله وأهل الكرامة عليه، وقد حذّر الأئمة عليهم السلام من هذا الأمر في الكثير من أقوالهم عليهم السلام، منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد أسرى ربي بي فأوحى إليّ من وراء الحجاب ما أوحى وشافهني "إلى أن قال" لي: يا محمد مَنْ أذل لي وليًا فقد أرصدني بالمحاربة ومَنْ حاربني حاربته قلت يا رب ومَنْ وليك هذا فقد علمت أن مَنْ حاربك حاربته قال لي: ذاك مَنْ أخذت ميثاقه لك ولوصيك ولذريتكما بالولاية»[٢]، وعن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ أذل لنا وليًا أوقفه الله يوم القيامة في طينة خبال إلى أن يفرغ الله عز وجل من حساب الخلائق فقيل له وما طينة خبال فقال صديد أهل جهنم»[٣]، وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ استذل مؤمنًا واستحقره لقلة ذات يده ولفقره شهره الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق»[٤]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ حقر مؤمنًا مسكينًا أو غير مسكين لم يزل الله عزَّ وجلّ حاقرًا له ماقتًا حتى يرجع عن محقرته إياه»[٥].

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج١، ص٤٦.
(٢) الأنصاري محمد حياة، قرة العينين من أحاديث الفريقين، ص٥٠.
(٣) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٩، ص١٠٥.
(٤) البرقي أحمد بن محمد، المحاسن، ج١، ص٩٧.
(٥) المازندراني محمد صالح، شرح أصول الكافي، ج٩، ص٤٢٣.

السادس: تسقيط المؤمن وإسقاطه

قد تثبت الحقائق التاريخية والحالية المرحلية التي ترافق الإنسان أو تصادفه في حياته سنة كونية فيما لو تكرر الحدث واتحدت النتيجة بحيث أصبح النتاج الأخير مرتبطًا بمقدماته ملازمًا له لزومًا غير قابل للانفكاك ومن هذه السنن هي محق الدين والعياذ بالله ممن سقَّط مؤمنًا وهدم مروته حيث يخرجه ذلك من ولاية الله تعالى كما تمت الإشارة إليه سابقًا، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «...فإذا أتهمه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»[1]، فما بالك بمَنْ يغتابه أو يبهته ليسقطه من أعين الناس!!!، ونحن لو تتبعنا التاريخ في حقب متعددة وسلطنا الضوء على بعض الشخصيات التي أصبحت مضرب مثل للمؤمن المرتد - نستجير بالله - كأمثال بلعم بن باعوراء الذي أوتي علمًا ومعرفة بآيات الله وبراهينه، بل ورد أنه أعطي شيئًا من الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجاب له، إلا أنه والعياذ بالله ارتدّ عن دين الله وانحرف عن الحق ولم ينفعه ما بلغ إليه ومات على الضلال، فأصبح مثلًا وعِبرة للمؤمنين والعلماء بعدم الاغترار فيما عندهم وعدم الأمان إلى ساعة خروج الروح من البدن وتيقن الثبات، وهذا ما أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام حين تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[2]، أن الأصل في ذلك بلعم

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٥.

ثم ضربه الله مثلًا لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة[(١)]، والسامري الذي وصفته بعض الروايات بأنه كان من خيار أصحاب موسى عليه السلام وكان على مقدمة الجيش يوم أغرق الله فرعون وأصحابه، فرأى جبرائيل وكان على حيوان على صورة رمكة[(٢)]، وكانت كلما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحرك ذلك الموضع فنظر إليه السامري فأخذ التراب من حافر الرمكة واستخدمه بعد اتخاذ بني إسرائيل العجل في قصة معروفة[(٣)]، والشلغماني هو محمد بن علي بن أبي العُزاقِر من أصحاب الإمام الحسن العسكري ومن محدثي الشيعة الذين عاشوا في عصر الغيبة الصغرى ببغداد، تصدى لأمور الشيعة في غياب نائب الإمام المهدي الحسين بن روح، ولكن حمله الحسد على ابن روح على ترك المذهب الإمامية، وادعاء النيابة الخاصة للإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، ثم اتّبع الفرق الأخرى، وبلغ به الحال بأن اعتقد أنّ لله حلولًا وأنّه سبحانه يتجسد في الأنبياء والأوصياء؛ فسمّى نفسه روح القدس، وعاقبته أن ظهر توقيع من الإمام الحجة بلعنه، حتى أمر بقتله الحاكم العباسي آنذاك فقتل، ويكفي مثلًا للانقلاب وما أخبر به القرآن عن حال الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا

---

(١) العلامة المجلسي، البحار، ج١٣، ص٣٨٠.
(٢) أي: الفرس التي تتخذ للنسل.
(٣) انظر: الطباطبائي السيد محمد حسين، الميزان، ج١، ص٢٠١-٢٠٣.

﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[(١)].

إن الجريمة المشتركة التي ارتكبها جميع هؤلاء والتي أصبحت سببًا في ضلالهم وانقلابهم وهلاكهم هي أذية ولي الله في زمانهم وتسقيطه بأعين الناس وهتك حرمته والتعدي على حقوقه، فكانت النتيجة أنهم أسقطوا أنفسهم وهتكت حرماتهم وخسروا الدنيا والآخرة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشيرًا إلى هذه الحقيقة ومحذرًا منها: إنما هي أعمالكم ترد إليكم فمَنْ وجد خيرًا، فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه[(٢)].

السابع: التفريط بالطاعة والإصرار على المعصية:

إن أهل البيت عليهم السلام إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه ببركة طاعتهم لله سبحانه والابتعاد عن مخالفة أوامره أو ارتكاب نواهيه، فمنتهى الكمال الذي هم فيه صلوات الله عليهم ناتج من أعلى مواطن الطاعة في جميع ما حرك العباد إليه وبما زجرهم عنه، وهم أكثر الخلق غيرة على أحكام الله تعالى وشريعته، فليس من المعقول قبولهم مَنْ يصر على المعصية بعد أن يصبح بذلك عدوًا لله والعياذ بالله وهذا ما أكدته رواياتهم عليهم السلام، منها ما ورد عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال لي: يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه وما كانوا يعرفون يا جابر

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.
(٢) الشيخ المفيد، الحكايات، ص ٨٥.

إلا بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء. قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحدًا بهذه الصفة، فقال: يا جابر لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحب عليًا وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالًا؟، فلو قال: إني أحب رسول الله، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير من علي عليه السلام، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئًا، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عزَّ وجلَّ [وأكرمهم عليه] أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة وما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجة(١)، من كان لله مطيعًا فهو لنا ولي ومن كان لله عاصيًا فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»(٢).

وعن علي بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، جميعًا، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله عز وجل: صدقوا، أدخلوهم الجنة وهو قول الله

(١) أي: ليس معنا صك وحكم ببراءتنا وبراءة شيعتنا من النار وإن عملوا بعمل الفجار!!! .

(٢) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص٧٤.

عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)]، وعن حميد بن زياد، عن الحسن بن محمد بن سماعة، عن بعض أصحابه، عن أبان عن عمرو بن خالد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا معشر الشيعة شيعة آل محمد كونوا النمرقة الوسطى[(٢)] يرجع إليكم الغالي؟ ويلحق بكم التالي، فقال له رجل من الأنصار يقال له سعد: جعلت فداك ما الغالي؟ قال: قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منا ولسنا منهم، قال: فما التالي، قال: المرتاد يريد الخير، يبلغه الخير يوجر عليه، ثم أقبل علينا فقال: والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله حجة ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمَنْ كان منكم مطيعًا لله تنفعه ولايتنا، ومَنْ كان منكم عاصيًا لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا»[(٣)].

الثامن: النفاق

لقد أصرَّ الإسلام على تأكيد خطورة النفاق وتأثيره على بناء شخصية الإنسان حيث تبرز في المنافق صفة التلون وتعدد الوجوه وعدم الثبات على العقيدة والمبدأ، كما ويؤثر على بنية المجتمع حيث تفتقد معه المصداقية الاجتماعية من إمكان حمل الناس على الصحة، والتعامل العفوي مع الآخرين، وغيرها من اللوازم التي تفقد الإنسان

---

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.

(٢) النمرقة: الوسادة الصغيرة، والتشبيه باعتبار أنها محل الاعتماد.

(٣) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص٧٦.

العيش الرغيد مع بني نوعه، ومن هنا ذمَّ الله النفاق والمنافقين في الكثير من آيات القرآن الكريم حيث وصل به الحال إلى تخصيص سورة كاملة بأسمهم؛ لما لهذا السم الفتاك من أثر على دين المرء ودنياه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[1]، وقال سبحانه في معرض بيان صفاتهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[4]، ومن الأحاديث التي وردت بحقهم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[5]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المنافق يملك عينيه يبكي كما يشاء»[6]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «بكاء المؤمن من قلبه، وبكاء المنافق من هامته»[7]، وعن الإمام

(١) سورة النساء، الآية ٦١.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤٢.
(٣) سورة التوبة، الآية ٦٨.
(٤) سورة المنافقون، الآية ٤.
(٥) العلامة الكليني، الكافي، ج٨، ص١٥١.
(٦) المتقي الهندي، كنز العمال، الحديث ٨٥٤.
(٧) المصدر السابق، الحديث ٨٥٠.

علي عليه السلام: «المنافق إذا نظر لها، وإذا سكت سها، وإذا تكلم لغا، وإذا استغنى طغا، وإذا أصابته شدة ضغا، فهو قريب السخط بعيد الرضا، يسخطه على الله اليسير، ولا يرضيه الكثير، ينوي كثيرًا من الشر ويعمل بطائفة منه، ويتلهف على ما فاته من الشر كيف لم يعمل به»[١]، وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، إذا قام في الصلاة اعترض، وإذا ركع ربض، وإذا سجد نقر، وإذا جلس شغر، يمسي وهمه الطعام وهو مفطر، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر، إن حدثك كذبك، وإن وعدك أخلفك، وإن ائتمنته خانك، وإن خالفته اغتابك»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «أربع من علامات النفاق: قساوة القلب، وجمود العين، والإصرار على الذنب، والحرص على الدنيا»[٣]، ولعل من أخطر ما ورد في المقام الرواية الآتية وأمثالها ففي وصايا المفضل قال: لا تأكلوا الناس بآل محمد، فإني سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «افترق الناس فينا على ثلاث فرق: فرقة أحبونا انتظار قائمنا ليصيبوا من دنيانا، فقالوا وحفظوا كلامنا وقصروا عن فعلنا، فسيحشرهم الله إلى النار. وفرقة أحبونا وسمعوا كلامنا ولم يقصروا عن فعلنا، ليستأكلوا الناس بنا فيملأ الله بطونهم نارًا يسلط عليهم الجوع والعطش. وفرقة أحبونا وحفظوا قولنا وأطاعوا أمرنا ولم يخالفوا فعلنا فأولئك منا ونحن منهم»[٤]، وقال الرضا عليه السلام: «لا تأكل الناس بآل

---

(١) ابن شعبة الحسن بن علي، تحف العقول، ص٢١٢.
(٢) الشيخ الصدوق، أمالي الصدوق، ص٣٩٩.
(٣) الشيخ المفيد، الاختصاص، ص٢٣٨.
(٤) الشاهرودي الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج١، ص١٦٤.

محمد عليهم السلام فإن التأكل بهم كفر»[(١)].

توصية ثمينة:

ومن الجدير بالذكر ضرورة التفريق بين المعصية والعصاة فهو أمر دقيق يجب توخي الحذر فيه، فليس كل العاصين والمذنبين في كفة واحدة ليتم التعامل معهم بأسلوب واحد، كما أن الظروف الاجتماعية تختلف من عصر لآخر، ومن مكان لآخر، فمنهم الجاهل، ومنهم الغافل، ومنهم مَنْ تصدر منه المعصية اتفاقًا، بخلاف ما إذا كان سلوكًا دائمًا، وقد يكون متجرئًا معاندًا، كما يختلف الحال بين كونه متسترًا بمعصيته أو مجاهرًا بها.

إن هذا الاختلاف في الحالات ينتج عنه ضرورة التفريق في أسلوب التعامل والتعاطي معهم، وهناك مبدأ تؤكد عليه التعاليم الدينية بحسب الموروث عن أئمة الهدى صلوات الله عليهم وهو ألا يتحول الموقف من المعصية إلى موقف حقد ذاتي على شخص العاصي، والى توجه الانتقام والتشفي منه، فالمعصية حالة مرضية والعاصي في أغلب الأحيان كالعليل يحتاج إلى المساعدة للتعافي وتجاوز المرض، وفي هذا السياق تأتي كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم»[(٢)]، وعن الإمام الكاظم

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٩، ص٤٩٦.

عليه السلام حينما سأله أحد أصحابه: الرجل من مواليكم يكون عارفًا يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب، نتبرأ منه؟

فقال عليه السلام: «تبرؤوا من فعله ولا تتبرؤوا منه، أحبوه وابغضوا عمله»(١)، لا أن نتعامل معه كما يتعامل معه البعض من الذين قد يصح وصفهم بأنهم يعيشون وضعًا نفسيًا متأزمًا، فيعكس ما يعانيه على تعامله مع الآخرين باسم الدين تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!!! فالجوامع والمشتركات بين الموالين كثيرة لا يُفرط بها لأجل عمل يصدر منه وإن كان قبيحًا، وهذا لا يعني التقليل من فديح معنى المعصية، فهي إذا ما ارتُكِبت كبيرة بحق من عُصي وهو المنعم، المتفضل، واجب الطاعة سبحانه وتعالى، فالعاصي متجرئ على مقام إله الكون، جبار السموات والأرض، إلا أن الموالي وإن صدر منه هذا القبيح يبقى مصدرًا لعمل حسن يحبه الله سبحانه ورسوله وآله صلوات الله عليهم أجمعين وهو الموالاة لأولياء الله والمعاداة لأعدائهم، أما ترى أنك لا تبغض ابنك العاصي لك وإن أبغضت واستنكرت عمله، وهذا ما حاول المعصومون عليهم السلام تربيتنا عليه فقد أرادوا منا أن نوسع هذه الدائرة لتتعدى الأهل والأولاد والأحبة لتصل إلى مطلق مَنْ تجمعك الولاية معه، ونرى أن هذه التربية قد آتت أكلها مع بعض الصالحين، ينقل عن معروف الكرخي - الذي كان معروفًا بصلاحه وتقواه، بل من الأولياء حسبما يصفه بعضهم - أحد أصحابه موقفًا جميلًا عنه، يقول: «مرَّ بِنَا أحداث شباب في زورق في نهر دجلة يضربون الملاهي

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٥، ص١٤٧.

ويشربون، فقال أحد جُلّاسه: يا إمام، اُدعُ الله عليهم!

فرفع معروف رحمه الله يديه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي، كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة.

فقال له أصحابه: إنّما قلنا لك: ادعُ عليهم، وكيف تدعو لهم بهذا الدعاء؟!

فقال: نعم، إذا فرَّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، ولم يضرّكم شيء»[١].

أي أنهم إذا توفقوا للتوبة، وتاب الله عليهم دخلوا الجنة.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أُتِيَ برجل قَد شرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اضربوه، فمنّا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثَوبه، فلَما انصرف قَال بعض القَوم: أَخزاك الله!

فقَال رسول الله: لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا رحمك الله»[٢]،وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا إله الحق: ارحم دعاء المستصرخين، واعف عن جرائم الغافلين، وزِد في إحسان المنيبين يوم الوفُود علَيك يا كريم»[٣].

هذا هو التوجيه الديني، الذي يريد أن يملأ قلب الإنسان

(١)الأبشيهي بهاء الدين، المستطرف في كل فن مستظرف، ص١٦٠.
(٢)النسائي، السنن الكبرى، الحديث٥١٨٥.
(٣)السيد الأبطحي محمد باقر، الصحيفة الجامعة لأدعية الإمام السجاد عليه السلام، من دعائه في التحميد، ص٢٥.

بالشفقة والرحمة حتى على المذنبين، فالمصلح يتمنى صلاح المذنب، ويسعى في إنقاذه وتوبته، ولا يتناسب ذلك مع الحقد عليه!، المصلح كالطبيب الذي يريد أن يعالج المريض، وهل يكون ذلك وقلبه يغلي بالحقد عليه؟!!، من جهة أخرى، على المؤمن أن يبذل جهدًا في استقطاب الآخرين إلى منهج الاستقامة والصلاح، ولا يتحقق ذلك إذا كان متشنجًا منفعلًا، أو إذا تعامل بشدة وقسوة!، قال تعالى مخاطبًا نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين»(١).

إن من الحري بالمؤمنين في هذا العصر الذي تكثر فيه جهات الاستقطاب، ويتفنن أصحاب الدعوات السيئة بجذب الشباب إلى الفساد والرذيلة، عليهم -أي المؤمنين- أن يقتربوا من إخوانهم وإن كانوا عصاة، ويحتوونهم بالكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، وإذا صدر خطأ من أحدهم، علينا أن نعالج الموقف بشيء من الحكمة واللين والشفقة كما كان أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ حالة التشنج والقسوة مدعاة للنفور والتمادي، وقد تدفع إلى الارتماء في أحضان الفاسدين والعياذ بالله.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات، لكن هذه الفريضة لها شروط وضوابط، فلا ينطلق الإنسان في تطبيقها من غرائزه وعقده الشخصية الذاتية، وإنما يتقيد بالآداب والتعاليم والأخلاق

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

الشرعية، أوَلم يقل الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[(١)]، فلا مجال للمزايدة على الله سبحانه وتعالى، فقد خلق الخلق في هذه الحياة وأعطاهم حريتهم حتى يمتحنهم ويبتليهم، وعلينا حينما نغضب لله، أن نكون ملتزمين بالتعاليم والآداب التي شرعها الله سبحانه وتعالى، فالمؤمن يرفض المعصية بقلبه وفكره وسلوكه، لكنه يرحم العصاة ويشفق عليهم، فهذا شيخ الأنبياء نوح على نبينا وآله وعليه السلام بقي في قومه يدعوهم إلى الهداية والصلاح مشفقًا عليهم من أن يطالهم عذاب الله تسعمائة وخمسين سنة كما عبر عنه القرآن الكريم، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا...﴾[(٢)] وهذا ما عرفناه من خلال ما وصل إلينا من سير المعصومين عليهم السلام أنبياءً كانوا أو أئمة صلوات الله عليهم أجمعين، فلا ينبغي أن يتعامل مع العصاة والمذنبين بالشدة والقسوة، بل عليه أن يتجنب الآثار السلبية، ويحصّن نفسه، فلا يتأثر بأوضاع العصاة والمذنبين، كما عليه أن يسعى لمساعدتهم وإنقاذهم وذلك بأساليب الجذب وليس بالطرق المنفرة.

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

شبهات مستحدثة

بدأ البعض في الآونة الأخيرة يحاول الترويج إلى بعض الشبهات، منها:

الشبهة الأولى: أن الله تعالى جهز الإنسان بآلات عديدة وكرمه بالعقل، وبه يستطيع أن يميز العمل الحسن من القبيح، حيث أعطى الله جل وعلا قابلية استحسان الصدق ونبذ الكذب، والركون إلى الحب والسلم، والنفور من البغض والعدوان، والرغبة الدائمة بالعدل ومقت الظلم، وما إلى ذلك من أمور مشابهة لها، وعليه نستطيع أن نجزم ونقول بأن مسألة الحسن والقبح -بحسب ما ذهب إليه العدلية- هما أمران عقليان وجاء الشارع المقدس فأكّدهما وأمضاهما.

وهنا نصل إلى النتيجة، وهي: أن الإنسان بإمكانه أن يعتمد العقل في التعبد؛ باعتبار أن الأعمال مرجعها العقل فالحسن والقبح عقليان، وبذلك نستطيع أن نستغني عن الشريعة والمعتقد؟

جوابها: يوجد للرد عن هذه الشبهة عدة أجوبة:

أولها: أن العقل له القابلية في إدراك الأمور الكلية فقط، فيده لا تطال الجزئيات، فهو يدرك حسن وقبح الأفعال، وأن الكل أعظم من الجزء، واستحالة اجتماع النقيضين، وأمثالها من القضايا الكلية، أما الأحكام الشرعية العبادية فهي من الأمور الجزئية التي لا يمكن للعقل إدراكها، فهو يدرك حسن العبادة وضرورة التعبد، لكنه لا يتمكن من

الوصول إلى كيفية ذلك، فالصلاة قضية جزئية لا يمكن للعقل أن يصل إلى كيفيتها وشرائطها ويميز بين الواجب من أجزائها والمستحب منها، وهكذا الحال بالنسبة إلى الصيام وبقية العبادات، فلا بدّ له من الرجوع إلى الشريعة في ذلك لبيانه وتحديده.

ثانيها: في الحقيقة أن هذا الأمر غير ممكن عمليًا وإن أمكن نظريًا؛ وذلك لأن العقل قد يتعرض للمؤثرات الخارجية من أفكار خاطئة وقضايا منحرفة؛ بسبب البيئة التي يعيش بها، والأعراف والتقاليد التي تحيط به، أو لنقل نتيجة تلبس الحق بالباطل مما يؤدي إلى عدم قدرته حينئذٍ على التمييز بينهما في بعض الأحيان؛ ولذلك يكون محتاجًا إلى مَنْ يسنده ويرشده ويقومه إذا ما مال وانحرف، وليس هذا إلا الشريعة، وحيث إن الله تعالى لطيف بعباده؛ لذا أرسل الرسل ليقوموا العقل وليأخذوا بيد العبد ليصل إلى ربه مطمئنًا.

ثالثها: أن من مدركات العقل العملي أيضًا لزوم شكر المنعم، فهو يدرك أن كل منعم ومتفضل يجب شكره على مَنْ أفاض وأغدق عليه النعم، ولا يمكن إظهار الشكر له إلا من خلال طاعته والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، ولا منعم على العباد مثله سبحانه فقد أبدع خلقه وأحسن خلقته، وتكفل رعايته وتربيته، وتدبير أموره منذ بدء نشأته إلى آخر الأبد، ولا يتسنى إتيانه حقه تبارك اسمه إلا من خلال الكشف عما يريده ولا يتم ذلك، إلا عن طريق أنبياءه ورسله والتعرف على مراداته وتعاليمه إلا من خلال شرائعه، وعليه لا بدّ من الرجوع إليها بحسب ما يمليه العقل نفسه على الإنسان.

رابعها: أن جميع ما ذكره صاحب الشبهة منصب على كون العقل هو العملي فقط، متغافلًا عن أن للعقل بحسب مدركاته تسميتين نابعتين من اختلاف نوع المُدرَك، فهو:

إما عملي: وهو الذي يستتبع عملًا – ما ينبغي أن يعمل –، أي أن العقل سوف يرتب أثرًا عمليًا حينما يدرك حسن فعل أو قبحه، وحينئذ سيدفع المُدرِك ويحركه نحو القيام بالعمل الذي أدرك حسنه كما في إدراكه حسن الصدق، وكذا الحال فيما أدرك قبحه فسيحرك صاحبه نحو اجتنابه، وبعبارة أدق سوف يزجر ويمنع صاحبه من فعل القبيح.

أو نظري: وهو الذي لا يستتبع عملًا – ما ينبغي أن يعلم –، أي أن العقل سوف لا يرتب أثرًا عمليًا على ما يدركه، بل سيكتفي بكون المُدرَك نوع معلومة نظرية بحتة لا تخرج عن إطار الفكر والتفكير، كإدراكه إلى كون النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، أو إدراكه بأن الكل أعظم من الجزء، وهي وإن لم تؤثر على عمل الإنسان مباشرة، إلا أنها تؤثر به بصورة غير مباشرة، كما لو كان مرتبط بعقيدة وكل عقيدة تفرض على المؤمن بها سلسلة من الأعمال لا بدَّ أن تكون منسجمة معها.

وبذلك تكون الشبهة مبتنية على كون العقل عمليًا فقط، والعمل لا يرتبط إلا بمدركاته، بينما قد تبين أن العقل النظري له تدخل في العمل نفسه وإن كان بصورة غير مباشرة، فبعد أن أدرك العقل وجود واجب الوجود، رتب عليه وجوب طاعته وهو جل وعلا فرض على الناس

الرجوع إلى شرائعه لكشف ما يريد وليبين لهم موارد طاعته ولا يمكن للعقل مستقلًا إدراك ذلك أو العثور عليه وحده بمعزل عن الشريعة.

الشبهة الثانية: أن جميع الأعمال الصالحة تكون حسنة بما هي هي، وتؤتي أثرها وثمارها العملية كيفما كانت، فالمصلحة منها تتحقق بمجرد صدورها، فمكتشف الكهرباء وإن كان قد اختلف أهل الاختصاص فيه فقيل: إنه عالم الفيزياء الإنكليزي وليام جيلبرت ١٦٠٠م، وقيل: إنه أوتو فون غيريكه الألماني الجنسية ١٦٦٠م، وقيل: غير ذلك[١]، التي غيرت وجه العالم برمته وأحدثت نقلة نوعية في الحياة الإنسانية، ألا يؤجر على ذلك!!!، وأديسون الذي حصل على (١٠٩٣) اختراع، منها جهاز إرسال أديسون الذي يمكنه أن يصل إلى أي نقطة في العالم (الهاتف)، والمصباح الكهربائي، وجهاز الفونوغراف، والميكرفون، وآلة التصوير السينمائية، والصور المتحركة، ويعتبر أول من أنشأ مختبرًا للأبحاث العلمية، وغيرهم الكثير من العلماء الذين خدموا البشرية من خلال اكتشافاتهم واختراعاتهم، يعتبرون مشركين!!!، ولا يؤجرون على ما عملوا !!!.

أليس من الظلم أن يحرم مثل هذا العامل - أي الذي لم ينوِ القربة لله تعالى في عمله- من الأجر والثواب!؟، أو يعتبره الدين عملًا لا قيمة له!؟ ولماذا يحكم على عمل العامل من دون نية القربة بالشرك إن أراد منه غير الله تعالى!؟، وما الداعي لاشتراط نية القربة في قبول العمل إن

(١) انظر: الموقع الإلكتروني: httns:IImawdoo3.com.

كان يؤتي أُكُله!؟.

ويمكن الإجابة عن هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن مثل هذا العمل لا يقبل بحسب نظرة المشرع؛ لأن مثله لا ينسجم مع مدركات العقل العملي من لزوم شكر المنعم ووجوب طاعته، فمقتضيات جميع ذلك أن يكون العمل خالصًا له سبحانه خاليًا من الشراكة، أو من أن يكون لغيره.

الوجه الثاني: أن مثل هذه الأعمال تشوبها غالبًا غايات عديدة غير وجه الله سبحانه ومن دون نية القربة إليه، وإنما منها: حب الظهور والسمعة، ومنها ما يكون بدافع حب الإنسانية، وما شابه ذلك، ومع كون لا شيء من هذه النوايا يربطها العامل به سبحانه -مع عدم القربة إليه بحسب الفرض-، ولهذا لا يكون له أجر مثوبة عند ربه تبارك وتعالى، إلا أنه جلَّ وعلا مع ذلك كله يثيب جميع هؤلاء في الدنيا فيبلغهم مناهم وما كانوا يرومونه من وراء عملهم؛ تحقيقًا لعدالته وإن كانوا مقصرين في توجههم، غير قاصدين إياه فيما يصدر عنهم، قال سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

الوجه الثالث: إذا تدبرنا آيات القرآن الكريم نجد أن الله تعالى أشار بأن من عمل عملًا وإن كان صالحًا، إلا أنه سيفقد قيمته ما لم يكن مصاحبًا للعقيدة؛ لأنه سبحانه يريد للإنسان أن يحيا حياة طيبة

(١) سورة الشورى، الآية ٢٠.

لا نصب فيها ولا لغوب ومن المحال أن يبلغ العباد ذلك بمعزل عن الالتزام بالعقائد الحقة؛ لعلمه سبحانه بأنهم قاصرون عن إدراك تمام مصالحهم ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا من خلال الرجوع إلى الشريعة، بل سيمحى كل عمل ويصبح كالغبار الخارج من الكوة في يوم عاصف، حيث يرى في شعاع الشمس متفرقًا لا أمل فيه، ولا فائدة ترجى منه، كما في قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[2].

الوجه الرابع: أن الأجر والثواب المقصود من العمل العبادي يفترض أن يكون هو الأخروي أولًا وبالذات؛ وعليه فهو مرهون بنية القربة إليه سبحانه؛ لأن ما كان من هذا القبيل إن لم يقصد لم يبلغ، أما ما قصده العامل من الأجر الدنيوي بحسب النية المذكورة في الشبهة يناله حسب التفصيل الذي جاء في الجواب الثاني.

الوجه الخامس: أن العقل والعرف لا يلزمان أحدًا على مجازاة المحسنين إلى غيره، بل يلزمان المُحسَن إليه أن يجازي مَنْ أحسن له ويعتبره واجبًا عليه، كما ذكره الأعلام واعتبروه من الأدلة على ضرورة معرفة الخالق ووجوب طاعته تأدية لشكره.

إذن الأساس في العمل وإن كان صحيحًا أن يكون متكئًا على عقيدة تسانده وتقومه حتى يكون هذا العمل مثمرًا في الآخرة، يثاب

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٣.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٨.

عليه العامل.

الشبهة الثالثة: أن من غير المقبول والمعقول القول بأفضلية زيارة الحسين عليه السلام على حج بيت الله الحرام، فالحج واجب والزيارة مستحبة ولا يمكن تقديم المستحب على الواجب!، مع أن الشيعة على وجه الخصوص قد أجمعوا على أفضلية الزيارة على الحج مستندين إلى ما نصت عليه بعض الروايات التي ذكرت ذلك صراحة، منها ما ورد عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شوقًا وتقطعت أنفسهم عليه حسرات، قلت: وما فيه، قال: مَنْ أتاه تشوقًا كتب الله له ألف حجة متقبلة وألف عمرة مبرورة وأجر ألف شهيد من شهداء بدر وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظًا سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه.

فإن مات سنته حضرته ملائكة الرحمة يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له، ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر ومن منكر ونكير أن يروعانه، ويفتح له باب إلى الجنة، ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نورًا يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي مناد: هذا من زوار الحسين شوقًا إليه، فلا يبقى أحد يوم القيامة إلا

تمنى يومئذ أنه كان من زوار الحسين عليه السلام»[١].

إن قال قائل: ما علاقة هذه الشبهة بالموضوع الذي نحن فيه!.

قلت: إن كلامنا الآنف الذكر عن كون الولاية عبادة ومعتقد، وباعتبار أن الحج والزيارة دافعهما العقيدة وكلاهما عمل، وقد رُوِجَ لهذه الشبهة بكثرة أحببت أن أقف عليها وأبين المغالطة فيها والرد عليها.

ويمكن الرد على هذه الشبهة بجوابين، أحدهما نقضي، والآخر حلي:

الأول: الجواب النقضي: لقد تضمنت الشبهة مغالطة واضحة قائمة - بحسب المدعى - على الترويج لنقض قاعدة عامة تذكر في باب التزاحم في علم الأصول ونسب ذلك إلى مَنْ يقول بأفضلية الزيارة على الحج، مع أنه لم يقل بذلك أحد، فقد أجمع علماء الأمة على تقديم الواجب على المستحب، وفرق بين التقديم والأفضلية، فقد تثبت الأفضلية من حيث عظمة الثواب للمستحب على الواجب وهذا ما جاء في أكثر من مورد من موارد الشريعة الغراء، منها ما ورد في السلام الذي أجمع العلماء على أن الابتداء به مستحب والرد واجب في حين أن الأحاديث بينت فضل الرد على الابتداء، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بين المسلم والمجيب مئة حسنة تسعة وتسعون منها لمن يسلم

(١) ابن قولويه جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ص٢٧١.

وواحدة لمن يجيب»[١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «للسلام سبعون حسنة تسع وستون للمبتدئ وواحدة للراد»[٢].

الثاني: الجواب الحلي: يحتوي على عدة وجوه:

الوجه الأول: لقد حكى القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام عندما أتمَّ بناء الكعبة المشرفة أمره الله عزَّ وجلَّ بأن يدعو الناس إلى الحج، ولكن الغريب في الأمر أن الغاية التي ذكرت للحج هي المجيء إلى إبراهيم عليه السلام نفسه!، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[٣]، مع أنه من المفترض أن يأتي الأمر بصيغة يأتين - أي البيت -، ومن هنا يتضح أن الحجة والإمام - باعتبار أن إبراهيم عليه السلام هو الحجة على أهل زمانه وإمامهم - هو المقصود وهذا يبين أهمية الحُجة على الحج، وقد أكد الإمام الباقر عليه السلام هذه الحقيقة على ما نقله الفضيل حيث قال حينما: «نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة، فقال: هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها، ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾[٤]»[٥]، ومثله ما ورد عن أبي عبيدة قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام ورأى الناس بمكة وما يعملون - قال: فقال:

---

(١) السيد البرجوردي، جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٥٨٨.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) الحج، الآية ٢٧.
(٤) إبراهيم، الآية ٣٧.
(٥) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٢.

فعال كفعال الجاهلية أما والله ما أمروا بهذا وما أمروا إلا أن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم فيمروا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم»[١].

الوجه الثاني: أن مما يثبت بطلان هذا الادعاء هو دعوة الإمام الحسين عليه السلام أخاه محمد بن الحنفية وإخوته من بني هاشم في كتابه الذي أرسله إليهم، الذي تضمن حثهم على ترك كل شيء واللحوق به وتحذيرهم من التخلف عنه، فقد نقل أصحاب السِّير أنه جاء فيه أن الحسين بن علي عليه السلام كتب إلى أخيه محمد بن علي - أي محمد بن الحنفية- «بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد: فإن من لحق بي استشهد ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام»[٢]، فضلًا على أن خروجه عليه السلام من مكة متجهًا نحو كربلاء كان في يوم التروية - ولم يبق بينه وبين الحج سوى يوم واحد-؛ ليبين للمسلمين أن أمره مقدم على الحج وأنه الأولى والأفضل وأن قضيته أخطر وأعظم، وأن ترك الناس له يعني تركهم للدين برمته وما الحج منه إلا يسير، لكن هذا لا يعني إجزاء الزيارة عن الحج، وإنما لا تبرأ ذمة المكلف المستطيع من وجوب الحج إلا بامتثاله من خلال قصد البيت وأداء المناسك.

والحمد لله رب العالمين

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٢) العسكري السيد مرتضى، معالم المدرستين، ج٣، ص٥٨.

المحتويات

الإهداء.. ٣
المقدمة.. ٩
معنى الولي وأهميته.. ١٥
الاستدلال على المستوى القرآني ١٩
أهمية الولي في القرآن...................................... ٢٤
الاستدلال على المستوى الروائي............................. ٢٦
أهمية الولاء... ٣٣
فائـدة: الفرق بين الولاء والانتماء............................ ٣٧
الفرقة... ٤٦
الفرق بين الخلاف والاختلاف............................... ٥٠
التسقيط والتقويم والفرق بينهما............................... ٥٢
الانتقاد والنقد البناء... ٥٧
أثر وسائل الإعلام في نشر الخلافات......................... ٦٠
الآثار الاجتماعية للتسقيط وما يستلزمه....................... ٦٥
الولاية عبادة ومعتقد.. ٦٩
الولاية المتبادلة... ٧٤

ولاية المؤمنين.. ٧٧
ولاية الكافرين.. ٨٧
ولاية الظالمين.. ٩٣
فلسفة التولي.. ٩٨
فروض اجتماعية.. ١٠٥
مَنْ نحب؟ ومَنْ نبغض؟.. ١١١
إنارة ونكتة ١١٥
الولاية في روايات أهل البيت عليهم السلام.. ١١٨
العربي هو المحب.. ١٣١
أثر تولي الحق عند الاحتضار وساعة مواراة الإنسان في قبره ١٣٢
إشكال وجوابه.. ١٤٢
الجواب عن الأول وهو مخالفة الحس: ١٤٣
الجواب عن الثاني:.. ١٤٥
سلامة البرزخ في الولاية.. ١٤٧
الولاية مفتاح دخول الجنة ١٤٩
وحدة الطينة.. ١٥٥
تتمة البحث.. ١٦٢
الأول: العناية والرعاية من قبل الأئمة عليهم السلام ١٧٢
الثاني: توحيد الأمة.. ١٧٥
الثالث: مصدر قوة.. ١٧٧
الرابع: تنظيم شؤون الأمة.. ١٨٠

الخامس: سبيل رقي الأمة وازدهارها........................ ١٨٢
السادس: قبول العمل.. ١٨٣
السابع: استجابة الدعاء...................................... ١٨٧
الثامن: سيادة مبدأ الحب في الله ١٩٠
التاسع: سيادة مبدأ العفو والتسامح.......................... ١٩٢
العاشر: النصرة والتآزر ١٩٤
الحادي عشر: الاستقامة والثبات............................. ١٩٦
الثاني عشر: الأمان من التيه والضلال........................ ١٩٧
ملحق... ٢٠٠
في أثر الدفن بجوار ولي الله الإمام علي عليه السلام.............................. ٢٠٠
عطر ومسك ٢٠٣
أثر الموالاة يوم القيامة....................................... ٢٠٥
امتداد الولاية.. ٢٢٠
البحث عن الدين هو طريق الكمال ٢٢٣
الدافع الأول: حب الاطلاع................................... ٢٢٤
الدافع الثاني: لزوم دفع الضرر ٢٢٦
الدافع الثالث: لزوم شكر المنعم ٢٢٨
علماء النفس والعبادة... ٢٣٠
أهمية البحث عن الدين....................................... ٢٣٢
الإمامة من أصول المذهب.................................... ٢٣٥
التوحيد والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما ٢٣٧

ماذا كان يمثل سجود الملائكة لآدم عليه السلام؟........................ ٢٤٧
النبوة والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما........................ ٢٥٥
المعاد والإمامة الارتباط والعلاقة بينهما ٢٦٤
الولاية مخاض الإمامة........................ ٢٦٨
امتداد الولاية........................ ٢٧٣
مثبتات المودة........................ ٢٧٩
جفاء الأخوان........................ ٢٨٥
الخاتمة في القاصعات........................ ٢٩٢
الأول: الكذب على الأئمة عليهم السلام ٢٩٤
الثاني: سفك الدم الحرام ٢٩٥
الثالث: الغدر والخيانة........................ ٢٩٩
الرابع: أكل الحرام........................ ٣٠١
الخامس: أذية المؤمن وقتاله:........................ ٣٠٢
السادس: تسقيط المؤمن وإسقاطه........................ ٣٠٥
السابع: التفريط بالطاعة والإصرار على المعصية: ٣٠٧
الثامن: النفاق........................ ٣٠٩
توصية ثمينة:........................ ٣١٢
شبهات مستحدثة........................ ٣١٧